

كتابي

١٠ قروش

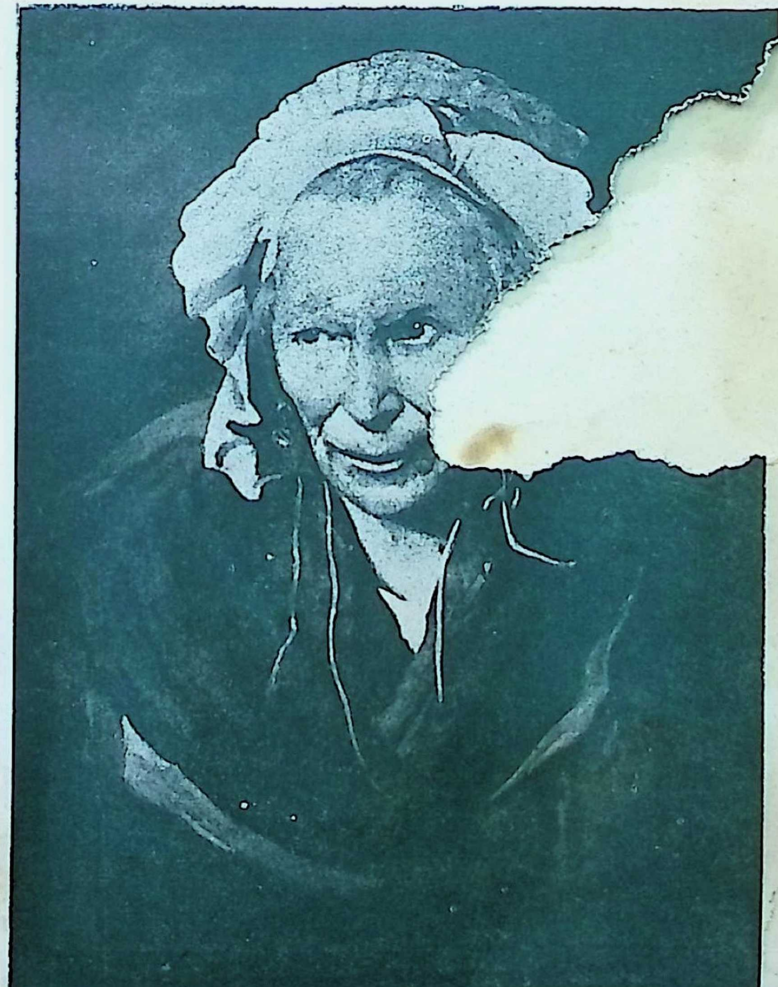
الجمال الأسير .. (لوحة للرسام الانجليزي "جون . ا . ميليه")

حلمي مراد



الفن .. والحياة !

(الفتاة من (كوبا) .. والتمثال فى احدى حدائق باريس .. واللوحة من تصوير الفنان « بول هوف »)



المجنونة ! لوحة رائعة من معروضات متحف (ليون) ، للرسام « تيودور جيريكو » (١٧٩١ - ١٨٢٤)

كتابى

كتاب شهرى لتلخيص الكتب العالمية
يصدر أول كل شهر
صاحبه ورئيس تحريره : حلمى مراد

شعار الكتاب

مصباح الفكر عند الاغريق

لكتاب الحادى والاربعون (السنة الرابعة) : أغسطس ١٩٥٥
لاشتراكات ومجموعة الاعداد السابقة: اقرأ التفصيلات بالداخل
لادارة : عمارة الجندول - ١٤ شارع ٢٦ يوليو - بالقاهرة
تليفون : ٥٩٥٥٦ و ٦٥٦٠٨

محتويات الكتاب

الموضـــوع	الصفحة
افتتاحية العدد	٧
رأيت وسمعت لك فى فيينا : مشاهدات وتعليقات للمحرر	١١
امرأة شريفة : قصة مصرية للدكتـور **سعيد عبده**	٣٩
ابن المرأة : أحدث كتاب عن حياة وانتاج الاديب الكبير « **د . ه . لورنس** » ، داعية الادب المكشوف !	٥٣
كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة : للطبيب النفسانى الامريكى الدكتـور « **جون شيندلر** »	٨٥
لوريت : (قصة صراع بين العاطفة والواجب) ، للكاتب الفرنسى «**ألفريد دى فينى**»	١٠٥
أسرار انحلال وسقوط الامبراطورية الرومانية: الكتاب الخالد للمـؤرخ الانجليزى « **ادوارد جيبون** »	١٣٩
كيف تقاوم نزعة اللصوصية عنـد الاطفال : من محاضرات « مدرسة الوالدين » ، للباحثة الفرنسية الدكتـورة « **ماريان رودروف** »	١٦٣
راشيل : (الفتاة المتشردة التى أصبحت ملكة المسرح فى عصرها) ، للكاتب الفرنسى الكبير « **هنرى بوردو** »	١٧٧
مذكرات كازانوفا : (الفصل السادس) : الكتاب الكلاسيكى الخالد فى أدب العشـق والمغامرة	١٩٥

عزيزى القارىء ٠٠

◆ فى العدد الماضى سألتك رأيك فى باب : « نافذة كتابى تطل على العالم ــ رأيت وسمعت لك فى أوربا » ، لمناسبة الرسالتين المتناقضتين اللتين تلقيتهما بشأنه فى يوم واحد ، تنتقده احداهما ٠٠ وتحبذه الاخرى بشدة !

والحق اننى حين استفتيتك فى هذا الموضوع ــ شأنى معك فى كل مناسبة ــ لم أكن أتصور أن تبلغ حماسة القراء الاعزاء فى تحبيذ الباب هذا الحد الذى جعل البعض يسىء الظن بقصدى من الاستفتاء فيحسبنى قد ضقت ذرعا بالمجهود الذى يجشمنى اياه اعداد هذا الباب ، فأردت « التملص » من الاستمرار فيه ، ومن ثم عمدت الى طرح هذا الاستفتاء كى أتعلل بأن الغالبية لا تحبذه ، فأتوقف عن كتابته !

نعم ، هذا هو « الاتهام » الجديد الذى دار فى أذهان البعض ــ سامحهم الله ــ حين نشرت استفتائى الاخير لك بشأن هذا الباب !٠٠ كما ذهب البعض الآخر فى تحبيذه الى حد المغالاة ، فأقسم ــ على حد تعبير السيد « محمود نصير ، مهندس زراعى » ــ على « أن كتابى ، بغير هذا الباب، لايساوى شيئا »! (كذا !)

وذهب آخر ، هو السيد « ادوارد حنا لاوندى ، الموظف بالبنك الاهلى المصرى ، أبو تيج » الى القول فى رسالته : « اناشدك « بالله » أن لاتحرمنا من السير فى هذا الباب حتى نهاية الرحلة ، فان هذا الباب هو من أمتع أبواب كتابى وأكثرها تشويقا ٠٠ »

وقال ثالث ، هو السيد « نجيب صديق عمر ــ رينهارت وشركاه ، ديروط» ــ فى رسالة رقيقة : « اننى أضم صوتى لصوت الدكتور نجيب صديق ــ لا لتشابه الاسماء ! ــ بل ان هذا هو رأيى الخاص ، ولا أغالى اذا قلت لكم اننى كنت دائما أحلم بزيارة أوربا والخارج عامة ، ولكنكم أتيتم فحققتم لى بل للملايين هذا الحلم بنشركم باب « نافذة كتابى تطل على العالم » ٠٠ أتدرى ، اننى أشعر كأننى قد زرت هذه الاماكن فعلا ! ٠٠ فسر على هذا المنوال ، بل زد هذا الباب توسيعا وتفصيلا ، فهذا هو رأى الجميع تقريبا ٠٠٠ الخ »

أما السيد الفاضل الذى شاء أن يكتفى من اسمه بأحرف « ا ٠ ك ٠ ع ــ ٣ شارع رفاعة بالجيزة » ، فقد أخجلنى بقوله : « هذه تحية من شاب مصرى لم يعود الناس أبدا أى مديح ٠٠ ولكنى أفخر بكتابك وأسلوبه وطابعه الرقيق » ٠٠ ثم ألمع الى الباب الذى نحن بصدده فقال : « اننى أطالعه فأطير بين الشرق والغرب ، والامس القريب والبعيد ، والماضى والحاضر ٠٠ وفقك الله وضاعف من انتاجك ٠٠ الخ »

.. وأجدنى عاجزا عن مواصلة اقتطاف فقرات من بقية الرسائل الكريمة التى كررت هذه المعانى وغيرها ـ فلو فعلت لشغلت عدة صفحات أخرى ـ لذلك اكتفى بهذا القدر ، معاهدا أصحابها الاعزاء على مواصلة نشر فصول المراحل الباقية من الرحلة ، على نفس الصورة التى درجت عليها حتى الآن ..

ولهذه المناسبة ، وتوضيحا للمبدأ الذى ألتزمه ، والغاية التى أتوخاها من كتابة فصول « رأيت وسمعت لك فى أوربا » على الصورة التى أكتبها بها ، أقول اننى لا أقصد منها ـ كما قد يتبادر الى الذهن ـ الاشادة بمتعة السفر ، والفوائد الثقافية والذهنية ، والجسمية ، التى يجنيها المسافر ـ فتلك بديهية لا أعتقد أنها فى حاجة الى ترديد .. لا ، وليس هدفى من نشر هذه الفصول هو ارشاد من يعتزم السفر الى تلك البلاد ، الى المعالم التى ينبغى أن يحرص على مشاهدتها فيهـا ، ولا يدعها تفوته ـ فلسوف يجد فى كل بلد مكاتب السياحة التى تنحصر مهمتها فى ارشاده الى هذه المعالم ـ وانما هدفى وغايتى من كتابة هذه الفصول ، ومن توخى الدقة والتفصيل فى وصف تلك البلاد على الصورة التى التزمها ـ مع تجنب الناحية الخاصة من مشاهداتى ، والثرثرة فى الامور الشخصية التى لا تهم القارىء فى شىء ـ أو ينبغى فى رأيى ألا تهمه ـ أقول ان هدفى من الكتابة بشىء من التفصيل عن المعالم « الجامدة الصماء » لتلك البلاد ، هو ان أقرب صورتها ـ جهد الطاقة ـ الى خيال من لم تتح له الفرصة لرؤيتها ، وقد لاتتاح له فى المستقبل .. وبذلك أكون قد ساهمت الى حد ما فى اعطائه صورة تقريبية عن تلك البلاد .. ولعل العنوان الذى اتخذته لهذه الفصول وهو « نافذة كتابى تطل على العالم » ، خير ما يوضح هذه الفكرة ..

.. أما الذين يزمعون السفر بالفعل ، ويقـولون فى رسائلهم الرقيقة ان الفصول التى كتبتها سوف تعينهم على زيارة أهم معالم تلك الاقطار ، فاذا كنت قـد حققت لهم بذلك نفعا أو خـدمة ما ، فهى ـ والحق يقال ـ خدمة « غير مقصودة » .. وان كنت غير آسف عليها بحال !

والله ولى التوفيق ..

حلمى مراد

أعــداد نفــدت

الكتب الستة الاولى ، والادارة مستعدة لشرائها .

أعداد توجد نسخ منها بالادارة

كتابى السابع « **عشيقة نابليون** » ، والثامن « **مذكرات كيوبيد** » ، والتاسع « **صنم تحطم** » ، والعاشر « **حديقة الله** » ، والحادى عشر « **عندما تحقد المرأة** » ، والثانى عشر « **لعبة الحب والموت** » ، والثالث عشر « **توبة خاطئة** » ، والرابع عشر « **أيها الربيع ترفق** » ، والخامس عشر « **الشيطان على الارض** » ، والسادس عشر « **ليدى هاملتون** » ، والسابع عشر « **الارملة المرحة** » ، والثامن عشر « **حياة جورج صاند** » ، والتاسع عشر « **حياة سارة برنار** » ، والعشرون « **رباعيات عمر الخيام** » ، والحادى والعشرون « **حياة بتهوفن** » ، والثانى والعشرون « **حياة موسولينى** » ، والثالث والعشرون « **كوخ العم توم** » ، والرابع والعشرون « **الزوج والعشيق** » والخامس والعشرون « **البوهيمية** » ، والسادس والعشرون « **فتاة لها ماض** » ، والسابع والعشرون « **ترويض النمرة !** »، والثامن والعشرون « **فن الحب** » ، والتاسع والعشرون « **الجريمة والعقاب** » ، والثلاثون « **المنافق** » (**طرطوف**) ، والحادى والثلاثون « **أميرة مصر** » ، والثانى والثلاثون « **الامطار** » ، والثالث والثلاثون « **أفروديت** » ، والرابع والثلاثون « **أقنعة الحب السبعة** » ، والخامس والثلاثون « **سالومى** » ، والسادس والثلاثون ، والسابع والثلاثون ، والثامن والثلاثون ، والتاسع والثلاثون ، والاربعون .

◆ **وتطلب** من ادارة كتابى : ١٤ شارع ٢٦ يوليو بالقاهرة (عمارة الجندول)، وثمن كل عدد (من العدد ٧ الى ٢٤) ١٠ قروش خالصا أجرة البريد (المسجل) ماعدا الاعداد ١٣ و١٦ ، وثمن كل منهما ١٢ قرشا ، والعدد العاشر ، والعدد العشرون ، وثمن كل منهما عشرون قرشا .. وابتداء من العدد ٢٥ ثمن كل نسخة بالبريد المسجل ١٢ قرشا

◆ **ملاحظة : ترسل القيمة فى مصر والسودان باذن بريد عادى ، وفى الخارج بشيك على أحد بنوك القاهرة ، ولا تقبل العملة الاجنبية أو أذون البريد الخارجية . وتحرر الاذون والشيكات باسم صاحب المجلة شخصيا**

مطبوعات كتابى

١ ـ قصة مدينتين — **٢ ـ ذات الثوب الابيض**
٣ ـ الخالــدون — **٤ ـ الخاطئــة**
٥ ـ حياة امرأة (الجزء الاول) — **٦ ـ حياة امرأة (الجزء الثانى)**

وثمن كل من الاول والرابع ، عشرون قرشا خالصا أجر البريد المسجل (نظرا لوشك نفادهما) ، والثانى ١٢ قرشا ، والثالث والخامس والسادس عشرة قروش، خالصة أجر البريد

« كتابى » يشترى الاعداد الستة الاولى من القراء !

نظرا لالحاح الكثيرين من القراء فى طلب الاعداد الستة الاولى من « كتابى » ، ولتعذر اعادة طبعها فى الوقت الحاضر ، ولما كان لا يبعد أن يكون لدى البعض أكثر من نسخة من الاعداد المذكورة .. فقد رأت **ادارة « كتابى » أن تعلن عن استعدادها لشراء أى عدد من نسخ الاعداد الستة الاولى ، تمهيدا لتمكين من تنقصه الاعداد المذكورة من اقتنائها بعد ذلك من الادارة . فالرجا الاتصال بالمجلة فى هذا الشأن ، على أن يكون تسليم النسخ اليها حضوريا أو بالبريد المسجل .**

الاشتراك فى « كتابى »

◆ **ترسل** جميع الاعداد الى المشتركين : بالبريد المسجل . وقيمة الاشتراك فى مصر والسودان : عن سنة (١٢ عددا) : ١٢٠ قرشا ، وعن نصف سنة (٦ أعداد) ٦٥ قرشا ـ فى الخارج (العراق وسوريا ولبنان والاردن الخ ..) ترسل القيمة بشيك أو بحوالة بريدية نقدية Money order عن طريق مكاتب البريد وتحتسب القيمة بما يوازى ١٣٠ قرشا (عن سنة) و ٧٠ قرشا (عن نصف سنة) . وفى الحجاز والكويت وعدن وحضرموت واليمن وقبرص وانجلترا وأمريكا وفرنسا واستراليا قيمة الاشتراك ١٦٠ قرشا (عن سنة) خالصة أجر البريد . وفى ألمانيا ١٦٠ قرشا (عن سنة) بخلاف أجر البريد الجوى



نافذة "كتابي" تطل على العالم :

رأيت وسمعت لك في أوربا

مدينة النبيذ .. و«الفالس» .. والغناء !

◆ فى الفصل السابق صحبتنى فى جولتنا الاولى بعاصمة النمسا ، فزرنا قصر « شونبرون » العظيم ، الذى كان مقرا صيفيا لأباطرة النمسا فى عصورها الذهبية ، والذى تحيط به حدائق غناء رائعة الجمال تبلغ مساحتها ٤٩٥ فدانا (أى أكبر من مساحة حدائق (هايدبارك) بلندن بنحو ١٠٠ فدان !) ، ويتألف القصر من ١٤٤١ غرفة ، وبه ١٣٩ مطبخا !

ثم انتهينا من زيارة القصر فطفنا ببعض معالم (فيينا) الهامة ، وفى مقدمتها قصر بلفدير ، وكنيسة القديس « ستيفان » ، ثم دار البلدية .. واليوم نواصل زيارة بقية الاماكن الجديرة بالمشاهدة فى قلب المدينة ، ثم نختم جولتنا بزيارة ضواحى فيينا الخلابة ، وهى : سمرنج ، جرينتزج ، كالنبرج ، مايرلنج ، غابات فيينا .. الخ

لمحات .. من المجد الغابر

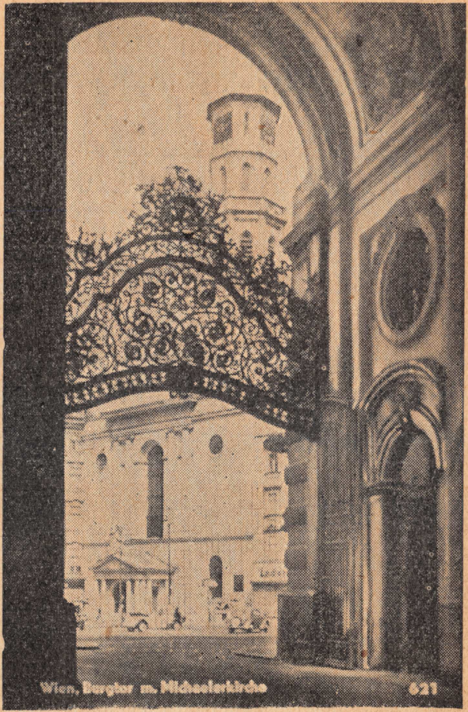
◆ **تتألف** مدينة فيينا من ٢٦ « منطقة » ، تعرف بأرقامها لا بأسمائها كأحياء ـ شأنها فى ذلك شأن باريس ـ فيقال فى الاستدلال على عنوان مكان بها : شارع كذا بالمنطقة الخامسة، أو المنطقة الثالثة والعشرين .. الخ .. وأهم هذه المناطق المنطقة الاولى ، وهى منطقة فيينا القديمة ، العريقة ، التى يحيط بها طريق دائرى طوله ٦ كيلومترات يطلق عليه «رنج»، أى الحلقة أو « الدبلة » التى تحيط بالاصبع . ويليها فى الاهمية منطقة رصيف فرانز جوزيف ـ وقد نسيت رقمها ! ـ وهى فى الناحية الشمالية من المدينة ، بمحاذاة ضفة قناة الدانوب..

وعدد سكان فيينا نحو ١٫٧٠٠٫٠٠٠ (أى ربع سكان النمسا كلها) .. **وهى مدينة عريقة ذات تاريخ مجيد ، وقد كانت فى مكانها ـ منذ نحو ألفى عام ـ مستعمرة أو بالاحرى قلعة رومانية صغيرة باسم « فندوبونا » ، وفيها مات الامبراطور الرومانى «مارك اوريليوس» عام ١٨٠ . وفى عام ٨٨١ أنشئت**

النواة الاولى للمدينة ، ولكن لم يطلق عليها اسم فيينا الا فى سنة ١٠٣٠ ، ومنذ ذلك التاريخ كانت مكانا مختارا لسكنى النبلاء ، والامراء ، والملوك ، والاباطرة ، وصار لها بلاط لامع ، وتجارة مزدهرة .. ثم جاء حكم أسرة « هابسبورج » فجعل منها عاصمة لامبراطورية ضخمة «لاتغيب الشمس عن أراضيها»، وهى امبراطورية بلغت أوج مجدها فى عهد « شارل السادس » (١٧١١ ـ ١٧٤٠) وعهد ماريا تيريزا (١٧٤٠ ـ ١٧٨٠) ، ايام ان أظلت سماء (فيينا) نخبة من أعظم الفنانين ، والعلماء ، والمهندسين ، والموسيقيين ، والنبلاء ، وقد عاشوا جميعا فى ظل البلاط الامبراطورى الزاهر ، وأقاموا الدور والقصور ذات الطابع النمسوى العريق « الباروك » الذى مايزال يشكل قلب العاصمة الى اليوم .. وغداة مؤتمر فيينا ـ الذى عقد لتصفية



مدالية برونزية ترمز الى « فيينا القديمة » ، وهى تمثل زوجين طاعنين فى السن يسائل أحدهما الآخر : « هل ما تزال تحبنى ؟ »



البوابة الحديدية « المطرزة » لكنيسة
« سان ميشيل » بعاصمة النمسا

امبراطورية نابليون فى سنة ١٨١٥ ـ كانت أوربا بأسرها يضرب أهلها الموعد بعضهم لبعض فى فيينا ، فعرفت المدينة رخاء لا مثيل له ، أسبغ أثره على مبانيها ، وهندسة المعمار فيها، بل على روحها ومستوى معيشة أهلها ..

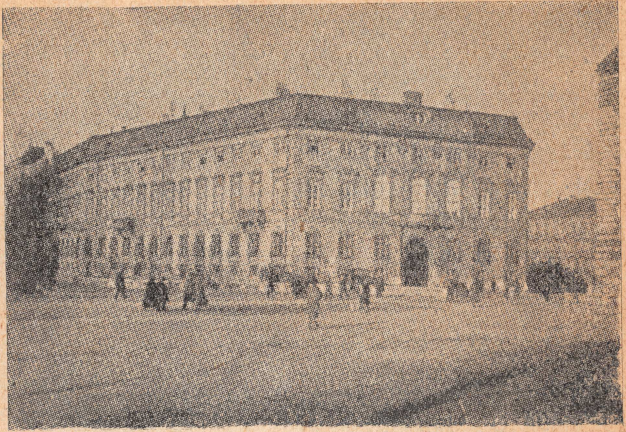
وعقب ثورة ١٨٤٨ ، تنازل الامبراطور فرديناند عن العرش لابن أخيه « فرانز جوزيف » الذى كان فى الثامنة عشرة من عمره ، والذى حكم الامبراطورية طيلة ٦٨ عاما ، كان رعاياها خلالها يبلغون الستين مليونا من الانفس ـ فى حين يبلغ رعايا النمسا اليوم ستة ملايين فقط ، أى العشر ! ـ وفى سنة ١٨٦٥ هدمت الاسوار التى كانت تحيط بالمدينة ، لحمايتها من الغزاة ، وضمت الضواحى الى المدينة بواسطة الطريق الدائرى «الرنج» ، تحف به المسارح والمتاحف والابنية المختلفة ، وبذلك تحدد الشكل النهائى لفيينا .

كيف حلت النمسا أزمة المساكن

◆ **وعقب** الحرب العالمية الاولى ، التى انتهت بهزيمة النمسا ـ ضمن حلفاء المانيا ـ تقلصت الامبراطورية الى دولة هزيلة لا يزيد تعداد سكانها عن ستة ملايين ونصف مليون ، يعانون



أقطاب وساسة دول أوربا ، أثناء اجتماعهم فى مؤتمر (فيينا) التاريخى المشهور سنة ١٨١٥ (عقب سقوط نابليون)



مبنى وزارة الخارجية النمسوية ، حيث عقد مؤتمر فيينا التاريخى عام ١٨١٥

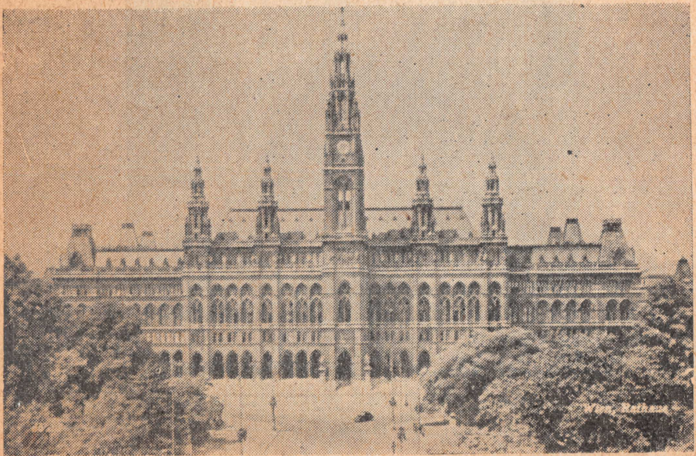
الفقر والبطالة ، بل المجاعة !٠٠ وعندئذ قامت البلدية بعدة اصلاحات اجتماعية هامة ، من بينها حل أزمة المساكن عن طريق انشاء أبنية وعمارات ضخمة فى الضواحى ، وتأجيرها للاهالى بأجر زهيد !

وعندما احتل هتلر النمسا عام ١٩٣٨ ، اضحت فيينا ـ خلال السبع سنوات التالية ـ مدينة من « مدن الاقاليم » ! ٠٠ وقد عانت الكثير من ويلات الحرب الاخيرة ، ولا سيما فى الاشهر القليلة التى سبقت الهدنة ، فقد كانت هدفا لثلاثة وخمسين غارة جوية ، هدمت ٢٠ فى المائة من مبانيها ! وكانت دار الاوبرا والمتاحف من بين الابنية التى أصابها التدمير والتلف البالغان ٠ ولكن لم تكد الحرب تضع أوزارها حتى نهض النمسويون فى حماسة هائلة يعيدون تشييد ما هدم من

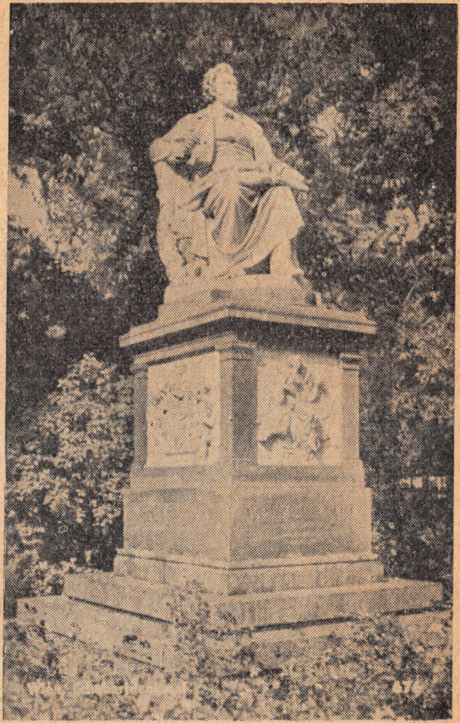
عاصمتهم العريقة ، حتى لقد كادت اليوم تسترد مظهرها قبل الحرب !

عاصمة الفنون !

◆ **وقد** أضحت فيينا ـ منذ حكمتها أسرة هابسبورج ـ عاصمة الفنون فى أوربا ٠ فقد شغف عدد كبير من النبلاء واغنياء البورجوازيين باغداق الهبات والعطايا على الرسامين الموهوبين ، لتشجيعهم على الاستقرار فى المدينة٠٠ أما الموسيقى فقد انبتت بذرتها الاولى فى فيينا عام ١٤٩٨ بتأليف « جوقة القصر الامبراطورى » ٠٠ ثم جاء العبقرى « جلوك » الذى بذر بذور النهوض بفن الاوبرا ، و « موزار » الذى تعتبره النمسا



القصر الفاخر لبلدية (فيينا) ، ويتوسط مبانيه فناء مكشوف تقام فيه حفلات موسيقى كلاسيكية كل أسبوع ، يؤمها آلاف المواطنين مقابل تذاكر زهيدة الثمن



تمثال شامخ للموسـيقى النمسوى الخالد « شوبرت » ، وهو مقام فى احدى حدائق فيينا

على مر العصور فخر أبنائها ٠٠ ثم « شوبرت » ، صاحب « السيمفونية الناقصة » ، و « شتراوس » ملك ألحـان « الفالس » ٠٠الخ

وقد طالما أطلق على فيينا اسم « باريس الدانوب » ، بسبب « الجو الفنى » الذى يطبعها بطابعه ، والروح المرحة التى يتصف بها أهلها كما يتصف بها الفرنسيون .. ومن ثم لم يكن



التمثال ، بل الصرح الفنى الرائع ، المقام فى احدى حدائق فيينا تخليدا للموسيقى النمسوى الخالد « موزار »



فى بداية الحروب الصليبية كان نهر الدانوب هو الطريق الطبيعى الموصل الى الاراضى المقدسة . وقد انتعشت (فيينا) وأثرى أهلها يومئذ بتأثير الحركة الدائبة بين أوربا وفلسطين

غريبا ان تصبح فيينا المركز الثانى للأزياء فى أوربا ، بعد باريس ، وان تطبع أزياؤها أكثرية سكان أوربا الوسطى بطابعها الخاص ..

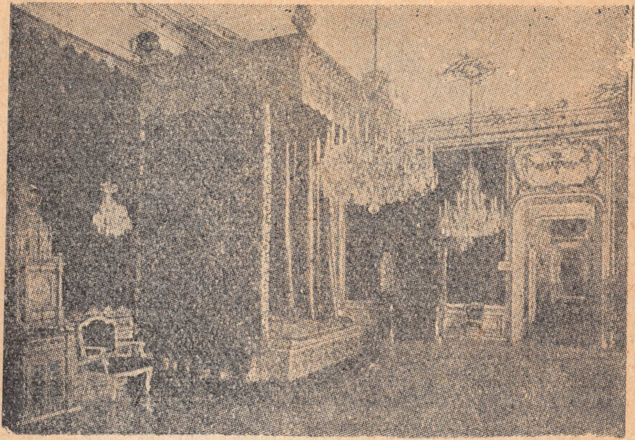
البرد .. يفتح الشهية

◆ **وأهل** فيينا مولعون بالأكل الى درجة كبيرة ـ ربما بسبب برودة الطقس فى مدينتهم ـ ولعل أغرب مايلفت نظر الاجنبى فى هذا الصدد ، وجبتهم الاضافية التى يتناولونها فى الساعة الحادية عشرة صباحا ـ كذا ! ـ وهى تتألف فى الغالب من « السجق » النمسوى المشهور ، ومعه صلصة ال « جولاش » . بل ان شراهتهم تتجلى أيضا فى الاكثار من ألوان الطعام الفاتحة

للشهية التى تتخلل الاصناف الرئيسية · ومن هذه الألوان الحلو والمملح على السواء · كما يميل أهل فيينا للفطائر بصفة خاصة ، حتى لقد اشتهرت فطائرهم فى العالم بأسره · ومن أشهر مابرعوا فيه صنف من « الجاتو » الممزوج بالشكولاته ، يطلقون عليه « ساخر تورت » ـ اذ ابتدعه المدعو « ساخر » ، طاهى الرئيس مترنيخ ـ ويليه فى الشهرة « السجق » و « السكالوب » النمسوى ، والدجاج المحمر بالبيض والبقسماط !·· ثم أنواع الحساء المختلفة الممتازة ، وأخصها حساء « الجولاش » الذى اعتادوا تناوله بعد السهرات الطويلة ·· ثم هناك سمك « البلطى » المحشو ·· وأخيرا القهوة « الفيينواز » ذات الشهرة العالمية ، التى يعتبرها « الذواقون » ألذ قهوة فى أوربا ، يقدمونها غالبا مع « الكريمة المضروبة » ، ومع قدح كبير من الماء المثلج ··

النبيل الذى صار دليلا !

◆ **وتنظم** فيينا لزائريها أربع جولات رئيسية بين معالمها ، بسيارات « الاوتوكار » الفاخرة ، مقابل أجر زهيد يساوى ٦٠ قرشا مصريا لكل جولة · وتستغرق الجولة ثلاث ساعات كاملة ، ويتولى الشرح خلالها بالميكروفون ـ وباللغتين الفرنسية أو الانجليزية ـ دليل مثقف لا يدع صغيرة أو كبيرة الا وتحدث عنها ، أو اجابك على سؤالك بشأنها · (وتستطيع قبل الركوب أن تختار السيارة التى يتكلم دليلها اللغة التى تتقنها) · وقد كان الدليل الذى صحبنا فى جولتنا الاولى « عزيز قوم ذل » كما يقول المثل العربى ، اذ كان من النبلاء ثم فقد ثروته كلها حين انهارت قيمة المارك الالمانى فى اعقاب الحرب العالمية الاولى !·· **فكان يبدو فى لهجته وهويشرح لنا معالم مدينته العريقة ، وقار يقطر مرارة ·· وكلما جاء ذكر عصور النمسا الذهبية ، وحكم الامبراطورة « ماريا تيريزا »**



مخدع الامبراطورة « ماريا تيريزا » ، وبه سريرها الضخم ذو السقف الشامخ ، الذى يوحى طرازه العريق « بالعظمة » والمجد !

أو الامبراطور « فرانز جوزيف » ، كانت تمتزج فى هذه المرارة حسرتان : الحسرة على «عزه» الزائل ، والحسرة على مجد وطنه الغابر !

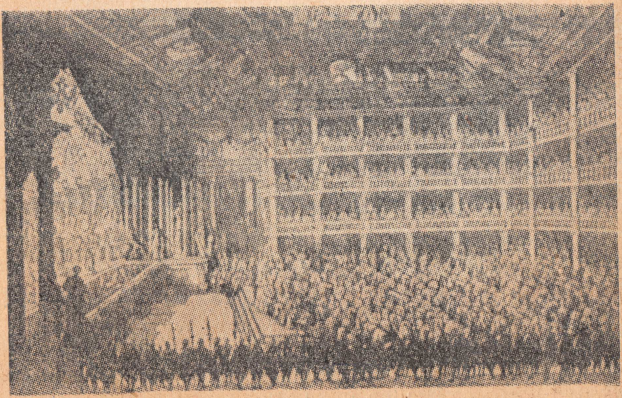
والآن تعال معى نبدأ جولاتنا الأربع فى مدينة النبيذ ، و «الفالس» ، والغناء :

الجولة الاولى

◆ **نحن** فى ميدان الاوبرا ، على مقربة من دار الاوبرا التى هدمتها القنابل أثناء غارة جوية ليلة ١٢ مارس سنة ١٩٤٥ .. ولكن الدار قد شيدت من جديد فصارت أعظم مما كانت ، ويجرى العمل فى تزيينها من الداخل كى تفتتح فى الشتاء ، بعد ان تصبح « احدث » دار للاوبرا فى العالم . ويومئذ قد تنافس دار اوبرا باريس فى فخامتها وروعتها ..

وقد كانت « الأوبر » ـ كما يطلق عليها بالألمانية ، بدون الفتحة الاخيرة ـ أول مبنى ضخم أنشىء على الطريق الدائرى « الرنج » عقب ازالة أسوار المدينة عام ١٨٦٥ ، وقد افتتحت فى ٢٥ مايو سنة ١٨٦٩ بأوبرا « دون جوان » لموزار ٠٠ ومنذ تلك الليلة حفل تاريخها بالأمجاد الفنية ، وبذكريات عظماء الرجال والملوك الذين حضروا حفلاتها ، وعظماء المغنين والممثلين والموسيقيين الذين اعتلوا خشبتها ٠٠

ثم تنطلق السيارة نحو الغرب فى شارع « الرنج » ، فنمر بتمثال الى يميننا للأديب الخالد « جيته » ، ثم بآخر الى يسارنا لزميله « شيللر » ٠ وخلف هذا الاخير نرى أكاديمية الفنون الجميلة ، فمكتبة عامة مجانية تفتح كل مساء ٠٠ ثم نمر فى شارع « ماريا هيلفر » ، وهو أكثر شوارع فيينا ازدحاما بالمتاجر ويقطن فيه عدد كبير من أفراد الجالية الفرنسية فى المدينة ٠٠ وهاهى حدائق « بورج » ، فتمثال « ماريا تيريزا » ، فقبر الجندى المجهول ، فميدان الابطال ، الذى يزينه تمثالان



دار أوبرا (فيينا) الفاخرة ، من الداخل



لوحة بقصر (هوفبورج) تمثل دخول الجيوش الفرنسية
(فيينا) فى عهد الامبراطور « فرديناند الثانى »

رائعان ، أحدهما للأمير « يوجين » والآخر للأرشيدوق « شارل » .. والى يمين الميدان قصر « هوفبورج » الجديد الذى يضم مجموعة من المتاحف الهامة : ففيه جناح لمتحف تاريخ الشعوب ، فأجزاء من متحف التاريخ الطبيعى ، بها مجموعة ثمينة من الاسلحة التاريخية ، وآلات الموسيقى القديمة ، وبعض الآثار التابعة لمتحف تاريخ الفن ، و«مشروع متحف » للثقافة النمسوية ، ثم مجموعة لوحات لأشخاص ، تابعة للمكتبة الاهلية . وعند الزاوية اليسرى من القصر مدخل يرفرف عليه علم أحمر كبير ، انه مدخل « كازينو الضباط السوفييت » !

.. وهذه هى كنيسة القديس ميشيل ، وهى من أقدم كنائس فيينا ـ اذ شيدت فى أوائل القرن الثالث عشر ـ وهذا « سوق الكرنب » ، وهو رغم اسمه هذا يحوى حوانيت غاية

في الأناقة ، لا سيما حوانيت العاديات والمكتبات · ثم ندخل في شارع «جرابين» ذى المتاجر الأنيقة والعامود الاثرى الذى أقيم فى عام ١٦٨٢ وفاء لنذر نذره الامبراطور « ليوبولد » مقابل انتهاء وباء الطاعون الذى اجتاح المدينة ! ·· وفى نفس الشارع تقع « كنيسة القديس بطرس» التى أسسها «شارلمان» العظيم فى القرن التاسع ، ثم كنيسة القديس «ستيفان» التى حدثتك عنها فى الفصل السابق ·· وندخل فى أهم شوارع فيينا وأكثرها جمالا ، وهو شارع



« شارلمان » العظيم ، مؤسس النمسا ، يضع على رأسه تاج « الامبراطورية الرومانية المقدسة »

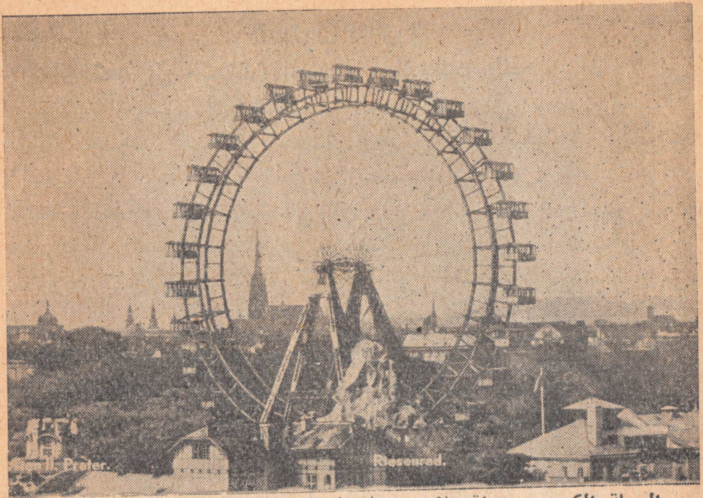
« كارنتنر » ، وبه عدد كبير من محال الأزياء ودور حياكة ثياب النساء ·· ثم نرى « نافورة دونر » ، أجمل نافورات فيينا ، وقد صممها الفنان « رفاييل دونر » عام ١٧٣٩ ، ثم أصيبت أثناء الحرب الأخيرة فأعيد انشاؤها عام ١٩٤٩ ·· ونصل الى ميدان كارل ، فدار « كونسرت هاوس » التى تقام فيها حفلات الموسيقى الكلاسيكية ·· **وهذا تمثال الفنان الخالد « بيتهوفن » ·· وذاك متنزه البلدية ، وحديقة الشعب ، أكثر حدائق فيينا ازدحاما بالناس ، وقد صفت فيها « ألوف » المقاعد المريحة بمحاذاة جميع ممراتها ، فى نظام بديع ·** وفى احد ميادين الحديقة تمثال رائع للموسيقى ذائع الصيت « يوهان شتراوس » وهو يعزف على الكمان ، وتسلط على التمثال

الأنوار الكاشفة فى المساء ـ وقد نشرت لك صورته على الورق المصقول فى العدد الماضى

كازينو ٠٠ وقصة غرام من مصر !

◆ **وفى** أقصى الحديقة يقوم كازينو ومطعم « كورسالون » الفاخر الذى يملكه هر « هوبنر » ، والد السيدة « مارى هوبنر » ، الزوجة السابقة للمرحوم توفيق نسيم « باشا » ٠٠ وبه شرفات فسيحة يحظى الجالسون فيها بجلسة شاعرية تطل على الحدائق ، وشرفات أخرى للرقص والموسيقى ٠ ولم أتمالك نفسى وأنا أتأمله ، من ان أستعيد فصول المأساة التى خاضت فيها صحف مصر والعالم يوم تم ذلك الزواج ، ثم يوم فسخ ، وقضية الحجر على السياسى الذى استحق يوما « تقدير الوطن » ٠٠ الخ

٠٠ ثم نصل الى ميدان « براتر شتيرن » ـ فى القطاع الذى يحتله الروس ـ وتتفرع منه سبعة شوارع كبيرة على شكل نجمة ، لكنه لا يقاس بحال بميدان « الاتوال » بباريس ، الذى يتفرع عنه ١٢ شارعا على نسق رائع ٠ **وبالقرب من الميدان ، تقع مدينة الملاهى أو « اللونابارك » ذات الشهرة العالمية « براتر » ـ وترى مع هذا الكلام صورة لعجلتها الدائرية الضخمة التى يبلغ ارتفاعها ٦٤ مترا ـ ولحديقتها من المكانة فى فيينا مثل ما لغابة بولونيا فى العاصمة الفرنسية ٠ وقد كانت تضم في القرن السادس عشر حديقة كبرى للحيوان ، وكانت تقام فيها الأعياد والمهرجانات الكبرى التى ينظمها البلاط الامبراطورى ٠ وقد أمر بفتحها للجمهور الامبراطور جوزيف الثانى فى عام ١٧٦٦** ٠ وبالحديقة عدد لا يحصى من الألعاب ، والمقاهى ، والحانات المكشوفة للهواء الطلق ، كما ان بها قطارا صغيرا يؤدى الى « ستاد » فيينا الرياضى الذى يتسع لنحو ٦٠ ألف متفرج ، والذى تقام فيه المباريات



العجلة الكبرى بمدينة ملاهى (فيينا) ، وهى الوحيدة من نوعها فى العالم ، وبها ثلاثون مقصورة مغلقة تتسع الواحدة منها لأكثر من عشرين راكبا !

العالمية والمحلية فى مختلف فروع الرياضة ، ولا سيما فى «كرة القدم» ، رياضة النمسويين المفضلة – (ويعتبر فريقهم فى هذه اللعبة ، المسمى «فريق العجائب» Wonder Team من أشهر فرق أوربا) . ويتفرع من الحديقة طريق يؤدى الى « جناح الصيد » الامبراطورى ، وقد صار الآن مقهى ، وآخر يقود الى « سيرك » فيينا ، والى مدرسة فن النحت ، وطريق ثالث الى أرض المعرض ، حيث يقام جزء من سوق فيينا الدولية مرتين كل عام ، فى الربيع والخريف . أما الجزء الآخر من السوق فيقام فى « قصر السوق » ، فى مكان آخر من المدينة . والى يسار الحديقة تقع حلبة السباق ، و « الستاد » الرياضى الكبير ، وأرض الجولف ، وحمام السباحة .. الخ

الدانوب الأزرق

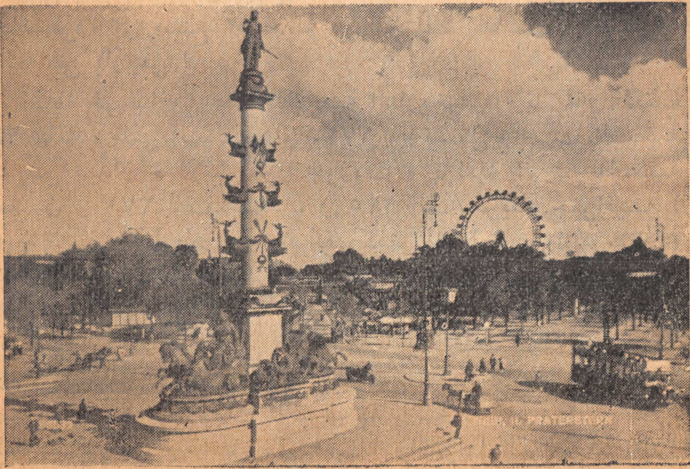
◆ **ولنعد** الى ميدان النجمة ، لنسلك الطريق المؤدى الى « كوبرى الجيش الأحمر » ، الذى تقوم الى يساره مسلة حمراء نصبت احتفالا بانتصار الجيش السوفييتى فى الحرب الأخيرة . فاذا تركنا المجرى الصناعى الذى أقيمت فوقه القنطرة المذكورة – ويسمى تجاوزا « قناة الدانوب » – ومضينا فى احد الاتجاهات ، بلغنا « الدانوب » الحقيقى .. الدانوب الأزرق المشهور الذى أوحى للموسيقى شتراوس بلحن الفالس الخالد .. وهناك تحف بالنهر الخالد شواطىء و « بلاجات » متعددة للاستحمام .. فاذا حاذينا الشاطىء مسافة طويلة استطعنا ان نصل الى جبال الشمال

وعلى ذكر لحن « الدانوب الأزرق » ، فان المنزل الذى لحنه فيه « شتراوس » ، فى عام ١٨٦٧ ، يقع فى المبنى رقم ٥٤ بشارع « براتر » ، المتفرع من ميدان النجمة ، وهو من أعرض شوارع فيينا وأكثرها ازدحاما

١٤٠ توقيعا لعظماء العالم !

◆ **والآن** نصل الى **جامعة فيينا** ، وهى ثانية جامعات أوربا فى القدم ، فقد أسست فى عام ١٣٦٥ ، وبها مكتبة عالمية تحتوى على ٦٠٠ ألف مجلد ! .. ثم نمر **بدار البرلمان** ، وهو تحفة من تحف فن المعمار الاغريقى ، يرتكز مدخلها على ثمانية أعمدة ضخمة من البرونز ، ويزين واجهتها تمثال رائع للالهة « اثينا » ، ونافورة جميلة . وفى مواجهتها تقع حدائق البلدية الغناء . وهذا هو « **المسرح الأهلى** » – الامبراطورى سابقا – وهو من أجمل مسارح أوربا ، وله « سلاملك » فاخر ، تزين جدرانه وأسقفه لوحات خلابة لأشهر أعلام الفن النمسويين .. ثم نمر تباعا بعد ذلك بقصر العدالة ، فمسرح الشعب ، فحدائق الشعب ، فتمثال الموسيقى « هايدن » ،

فميدان محطة فيينا الخلابة « وستبانهوف » ٠٠ ثم نعود فى اتجاه ميدان الاوبرا حيث بدأنا جولتنا ، فنرى متحف « **الألبرتينا** » الرائع ، وبه نحو ٢٦ ألف رسم لجميع أساتذة وأقطاب الفن منذ القرن الخامس عشر حتى اليوم ، ونحو ستمائة ألف لوحة محفورة على الخشب أو الجلد أو مرسومة بالألوان المائية ! وفى مواجهة المتحف « **نافورة الدانوب** » ، التى تمثل النهر العجوز وروافده المختلفة ، وقد أصيبت النافورة باضرار جسيمة أثناء الحرب الأخيرة ٠٠ وفى الجانب الآخر من ميدان الاوبرا يقع فندق « ساخر » ، وهو من أشهر فنادق فيينا ، وملتقى الطبقات الراقية بها ، وقد طالما اتخذت فى صالوناته الخاصة قرارات غيرت مصير أوربا فى كثير من المناسبات التاريخية ٠ وقد أولعت صاحبة الفندق « مدام انا ساخر » بالحصول على



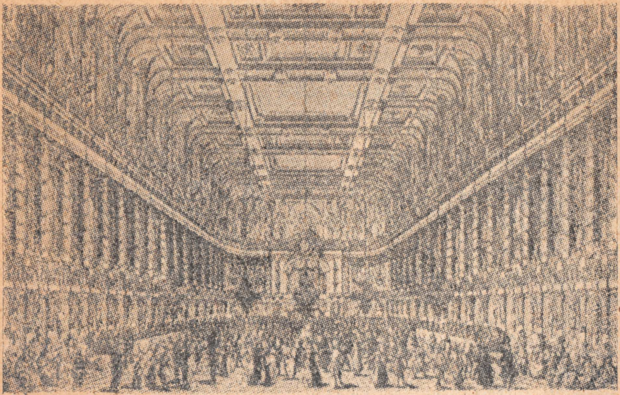
ميدان النجمة بفيينا ، وتتفرع منه سبعة شوارع كبرى ، وقد كان يحتله الروس منذ انتهاء الحرب الى ماقبل شهرين

توقيعات ضيوف الفندق من عظماء العالم على مفرش من القماش الفاخر ، وكانت فى كل مرة تبادر بتطريز التوقيع فى مكانه بخيوط من الحرير ٠٠ حتى بلغ مجموع التوقيعات نحو ١٤٠ توقيعا ، الأمر الذى جعل المفرش أشبه بكتاب ذهبى مبتكر ، يعتز به الفندق باعتباره أعظم كنوزه !

الجـولة الثانيـة

◆ **فاذا** كانت الجولة الثانية ، انطلق بنا « الأوتوكار » من ميدان الاوبرا أيضا الى حيث عقد ـ بطريق التفويض والوكالة ـ زواج « نابليون » من زوجته الثانيـــة « مارى لويز » فى كنيسة القديس اغسطين ، التى شيدت فى عام ١٣٣٠ ٠ ومن طريف ما يذكر ان القائمين بعقد ذلك الزواج كانوا يجهلون مقاس اصبع نابليون كى يصنعوا له « دبلة » الزواج المناسبة ، فاضطروا الى صنع ١٢ دبلة من مختلف المقاسات وأرسلوها اليه فى باريس !

فاذا خرجنا من هذه الكنيسة التاريخية مررنا **بدار الكتب الأهلية** ، التى أنشئت عام ١٧٢٣ ، وتشغل واجهتها الضخمة عرض ميدان « الامبراطور جوزيف » بأكمله ! وفى المكتبة مليون و ٣٧٠ ألف مجلد ، و ١٣٥ ألف خريطة جغرافيـة ، و ٣٥ ألف مخطوط ، و ٨٥ ألف دفتر للتوقيعات (اوتوجراف) ٠٠ الخ ٠٠ ثم نبلغ مبنى هائلا من أربعة طوابق ، هو «**مدرسة الفروسية الاسبانية**» ، التى شيدت عام ١٧٣٠ ٠ وقد وضع تصميمها أشهر مهندسى ذلك العصر ، فجاءت تحفة تشبه فى روعتها مبانى متحف اللوفر بباريس ـ وترى مع هذا الكلام صورة لقاعة الاحتفالات الكبرى بالمدرسة ـ وهى أشهر معهد للفروسية من نوعه ، يعلم فنونها واصولها الكلاسيكية التى كانت سائدة منذ ٣٠٠ سنة ، كما يتولى تربية الجياد الأصيلة من أندر الفصائل وأعرقها ! ٠٠ والمدرسة تمثل اليوم تقاليد



حفلة ساهرة فى أحد الاعياد ، بقاعة « المدرسة الاسبانية الامبراطورية لركوب الخيل »

فيينا التاريخية المجيدة . وقد بلغ من اهتمام العالم أجمع باستعراضات المدرسة انها صارت ترسل جيادها ومدربيها للقيام برحلات الى عواصم أوربا وأمريكا لعرض فنونها على عشاقها فى كل مكان . وكان أكبر نجاح صادف « الفرقة » فى لندن ، حيث عرضت ١٨ استعراضا خلال ٩ أيام ، وقد حضرها الملك وولى العهد ، كما حضرها ملك اسبانيا يومئذ .. الخ

كنوز من التحف « المنسوجة »

◆ ثم نزور قصر « هوفبورج » ، الذى كان مقرا « شتويا » لأباطرة النمسا - (وقد زرنا المقر الصيفى فى « شونبرون » فى الفصل السابق) - وقد بدىء فى تشييده عام ١٢٢١ ، وهو يتألف من عدة أبنية تمتد مسافة ربع ميل ، ويختلف طراز البناء فى كل منها حسب العصر الذى بنى فيه ، فقد كان

كل امبراطور يضيف الى القصر جنـــاحا جديدا وفق ذوقه الخاص . والقصر حافل بتحف « الجوبلان » الثمينة ، وأكثرها مما أهداه ملك فرنسا لويس الرابع عشر الى الدوق فرانسس الأول حاكم اللورين ـ الذى صار فيما بعد زوجا للامبراطورة ماريا تيريزا .. وثمة تحف أخرى أهداها لويس السادس عشر وزوجته مارى انطوانيت الى الامبراطور جوزيف الثانى . وفى قاعة المائدة الكبرى لوحات منسوجة تمثل احداها « اغتصــاب هيلين حسناء طروادة » ـ وهى منقولة عن لوحة مشـــهورة لرفاييل ـ وأخرى تمثل « محاكمة الامير باريس » . أما اللوحات الزيتية التى تمــلأ القصر فأكثرها يمثل وقائع ومعــارك واحتفالات ، هى من صميم تاريخ الشعب النمسوى العريق . على ان أجمل محتويات القصر اطلاقا هى غرفة الصالون التى احتــوت أثاثا من خشب « الباليساندر » ، نقشت عليــه مشاهد ولوحات قومية وتاريخية بطريق «التطعيم» فى الخشب !

٤ بيوت كان يقطنها بيتهوفن !

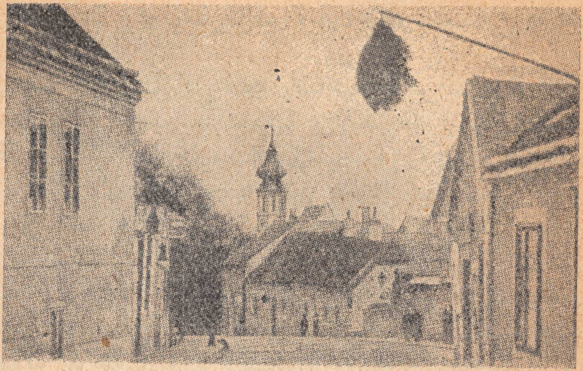
◆ **فاذا** فرغنـــا من زيارة القصر واصـلنا جولتنا مارين بطريق « هيليجنشتاتر » ، حيث تقع أهم مدينة عماليـــة انشأتها بلدية فيينا الاشتراكية عقب الحرب العالمية الأولى ، ولها واجهة واحدة طويلة تمتد مسافة كيـلومتر كامل ، وبها ١٢٠٠ مسكن . وفيها وقعت معـارك واصطدامات فـبراير سنة ١٩٣٤ . ويدين هـذا الحى بشهرته الى « بيتهوفن » ، الذى كان يعتبره ضاحيته المفضلة ، وقد لحن فيه قطعا مختلفة من موسيقاه ، منها سيمفونيته الريفية « الباستورال » ، التى وضعها وهو يقطن المنزل رقم ٢ بميدان « بفار » .. ومنها « وصية هيليجنشتاتر » ، وقد لحنها فى المنزل رقم ٦ بشارع « بروبسجاس » .. ومنها « البطولة » ، التى وضع لحنها فى المنزل رقم ٩٢ بشارع « دوبلنجر هاوبت » .. وثمة منزل

رابع كان يقطنه فى نفس الضاحية ، يقع بشارع كالنبرجر رقم ٢٦ .

ثم يقودنا الطريق فى اتجاه ضاحية (جرينتزج) المشهورة بكرومها ، التى يعصر محصولها ويقدم بعد أشهر قليلة (فى نفس العام) نبيذا طازجا - يطلقون عليه «هوريجن» - يشرب به رواد حاناتها ذات الشهرة العالمية التى يتقاطر عليها كل من يهبط فيينا من السائحين ، كي يقضوا فى احداها سهرة جميلة على أنغام موسيقى جوقة صغيرة تتألف عادة من عازفين على الكمان ، وعازف على القيثارة ، ورابع على الاكوردیون .. يصاحبهم جميع رواد الحانة بأغانيهم الشعبية وروحهم النمسوية المرحة . وفى الضاحية « مئات » من هذه الحانات المتلاصقة ، المختلفة الطراز والبناء و « الديكور » ، حسب



الطريق الى ضاحية (جرينتزج) ، حيث مزارع الكروم وحانات النبيذ الطازج المشهورة



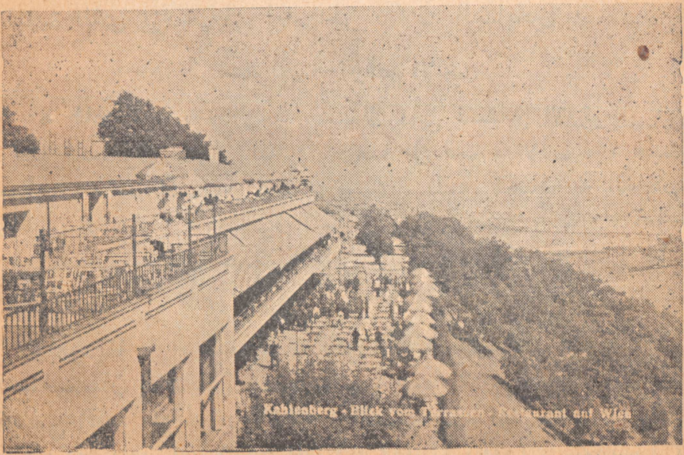
بعض حانات النبيذ التقليدية فى ضاحية (جرينتزج) ، وفى كل منها حديقة خلفية يقدم فيها النبيذ الطازج والعشاء ، على أنغام الفالس الحالمة وأغانى النمسويين المرحة الصاخبة

ذوق ورأسمال صاحبها . لكن أكثرها ذو طابع ريفى عتيق وبسيط ، يضفى عليها طابعا تقليديا جميلا يغرى روادها باطلاق النفس على سجيتها دون تقيد بـ « اتيكيت » العواصم الكبرى و « رسميتها » البغيضة . وفى كل حانة حديقة خلفية وغرف أو قاعات مسقوفة ، كى تناسب مختلف الاجواء ، على مدار العام .

فلنرجىء قضاء السهرة فى هذه الحانات الى ليلة أخرى ، ولنواصل صعودنا بالسيارة الى الضاحية التالية لها ، والتى تحتل هضبة عالية يبلغ ارتفاعها ٤٨٣ مترا ، وهى ضاحية « كالنبرج » . **ولهذه الضاحية تاريخ مجيد ، ففيها تجمع - فى سنة ١٦٨٣ - الجيش الامبراطورى بقيادة شارل أمير اللورين و « جان سوبييسكى » ، ثم هاجم قوات الاتراك التى كانت قد فرضت على فيينا حصارا رهيبا ، وبعد قتال مرير انتصر الجيش النمسوى واستطاع تحرير عاصمته المحبوبة**

وفك الحصار عنها ٠٠ وعلى بعد خطوات من تلك البقعة يوجد مطعم مشهور ذو شرفات من ثلاثة طوابق ، يشرف الجالس فيها على منظر رائع لفيينا الراقدة فى بطن الوادى ، ويسرح البصر فى غاباتها المشهورة التى تغنى بها « شتراوس » فى لحنه الخالد المسمى باسمها ٠٠

وبالقرب من (كالنبرج) توجد ضاحية (ليوبولد زبرج) ، التى ترتفع عن سطح البحر ٤٢٣ مترا (و ٢٢٦ مترا عن مجرى الدانوب) ، وبها تنتهى سلسلة جبال الالب التى تبدأ جنوبا من خليج « جنوا » بايطاليا ٠ وفوق أعلى قمم الضاحية كنيسة صغيرة بناها الامبراطور ليوبولد ـ الذى سميت الضاحية باسمه ـ على أثر الانتصار على الاتراك ٠٠ وعلى مقربة من الكنيسة قصر شاهق أقامه الامبراطور عام ١٧٠٥ وقد صار الآن مطعما يشرف على أروع منظر للدانوب ٠



شرفات مطعم (كالنبرج) ذى الثلاثة طوابق ، ويقع فوق مرتفع عال يشرف على أجمل منظر لمدينة (فيينا)

.. الى « مايرلنج »

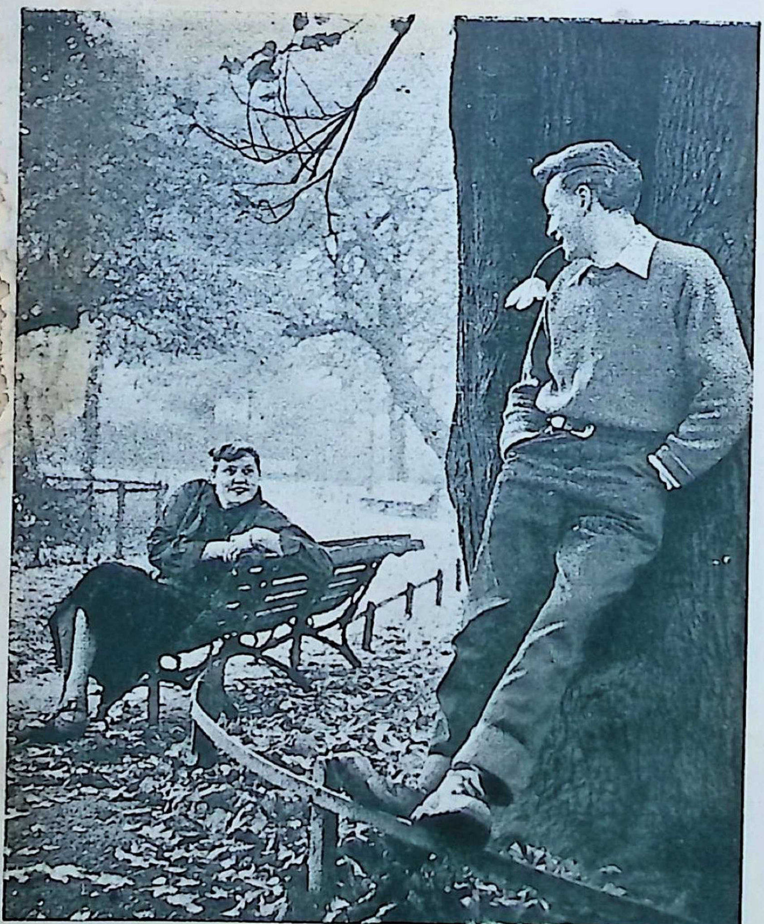
◆ **أما** الجولة الثالثة فتستغرق نصف نهار ، وهى تبدأ ـ كالعادة ـ من ميدان الاوبرا وتتجه الى غابات فيينا ، مارة بالطاحونة التى لحن فيها الموسيقى النمسوى « فرانز شوبرت » أغنيته المشهورة « تحت ظلال الزيزفون » .. **ومن هناك تنطلق بنا السيارة الى ضاحية (مايرلنج) التى خلدتها مأساة مصرع ولى عهد النمسا « رودلف » ـ ابن الامبراطور فرانز جوزيف ـ مع عشيقته البارونة الشابة « فيتسيرا » يوم ٣٠ يناير سنة ١٨٨٩ . وقد كانا يقضيان يومهما فى « شاليه » أقامته الاسرة الامبراطورية ليكون بمثابة استراحة لافرادها فى رحلاتهم للصيد .**

ومن هناك نواصل الطريق الى (بادن) ، حيث ينابيع المياه الكبريتية التى اشتهرت منذ أيام الرومان . وبجوارها بلاج البلدة الذى يزدحم فى أيام الحر بآلاف السابحين .

سمرنج .. وقمم الالب

◆ **فاذا** كان يوم الاحد ، فتعال معى نستقل الاوتوكار فى رحلة تستغرق النهار كله .. رحلة الى قمم « الالب » ، حيث مصيف فيينا المشهور (سمرنج) ، الذى تحيط به الغابات والقمم الشماء . ويستغرق الطريق اليه ساعتين ونصف ساعة . ومن هناك نستقل المصعد الطائر الى قمة « رآكس » التى يبلغ ارتفاعها ٦١٠٠ قدم .

وبعودتنا من (سمرنج) نكون قد استنفدنا « أهم » معالم فيينا ـ فان الاحاطة بجميع معالم عاصمة الامبراطورية العريقة تقتضى اقامة طويلة ، وآلافا من الصفحات ـ وفى العدد القادم نزور معا باذن الله حدود ألمانيا ، فمدينة زيوريخ بسويسرا ، ومنها الى .. باريس .



الربيع .. فى الخريف !

فى صباح يوم احد ، فى متنزه بمدينة (ماسترخت) بهولندا ، التقط الفنان « بتيوفروماتز » هذه الصــورة المشرقة لاول لقاء بين بطليهـــا .. والطريف أن تعارفهمـــا انتهى الى الزواج !



الحمام التركى !

لوحة مشهورة بمتحف اللوفر ، للفنان
الخالد « انجر » (١٧٨٠ - ١٨٦٧)



من رسائل النساء :

امرأة شريفة !

قصة مصرية : بقلم الدكتور سعيد عبده

- ١ -

مسز ترندال
٢٦٠ - كامبردج تراس - لندن
١٣ سبتمبر سنة ١٩٣٦

عزيزى محمود :

لأول مرة أكتب اليك فيما كان ينبغى أن يكون موضوع تفاهم شفوى صريح • واذا كنا أخفينا عليك الحقيقة ستةأشهر، فيجب أن تعلم الآن انك الشرقى الوحيد الذى آويناه - ابنتى مس ترندال وأنا - فى بيتنا كنزيل ! •• وعلى كل ، فقد ظللنا طوال هذا الوقت غير نادمتين على خرق المادة الأولى فى قانون بيتنا العريق ، وهى اعتبار أى شخص ملون - حتى ولو كان من رعايا التاج البريطانى - كما لو كان مريضا بالطاعون !••وقد كانت كل تصرفاتك فى الاشهر الخمسة الاولى التى أقمتها معنا لحسن الحظ طيبة للغاية وسليمة من كل الوجوه ، وآية على أنك رجل مهذب ، وبرهانا على مبالغة الاتهامات القذرة التى كنا نسمعها عن الشرق والشرقيين !

•• الى أن كان الشهر الاخير ، فبدأت نظراتك الى ابنتى ترق •• وتطول !

ياعزيزى محمود •• انى لا أتعمد أن أجرح شعورك ، ولكنى أعتقد أن الصراحة المبنية على حسن النية هى أساس التفاهم الوحيد ، وخاصة بالنسبة لامرأة تعودت أن تستقبل كل يوم نزيلا أو تودع نزيلا ، محتالة للحصول على القوت من هذا السبيل •• وبالاخص لامرأة شريفة مثلى كانت تقاليدها فى بيتها - وما زالت - صارمة صرامة شرائع السماء ! •• فالنزيل فى بيتها دائما شخص محترم حتى تبدو فى عينيه نظرة السوء •• وللنزيل على شفتها ابتسامة ، فان استغلها قدمت له قائمة

الحساب ! ٠٠ والنزيل شخص له كرامته وحرمته فى دائرة غرفته ، فان تعداها شيعته الى باب الطريق !

٠٠ من حسن الحظ ياعزيزى محمود اننى لا أخاطبك بهذه اللهجة الا على سبيل العلم دون سواه ، وحتى فى هذه الساعة التى أكتب اليك فيها ، ومع الحادث الاخير الشنيع ، الموجب للأسف ، فاننى لا زلت أحنو عليك ، وأنظر اليك نظرتى الى شاب مهذب ، جدير بالعطف والثقة أكثر مما هو جدير بالزجر والتأنيب ٠٠ وسأندم كثيرا اذا سمحت للنزق وعدم التروى بأن يخلقا من هذا الحادث مضاعفات يكون من شأنها أن تتجه اتجاها غير الذى أريد !

انك تذكر من غير شك ، اليوم الذى قدمت فيه الينا باحثا عن غرفة ٠ ان عيونك الزرقاء ، وبشرتك البيضاء ، وقامتك الطويلة ، ولسانك الطلق ، ولباسك المهندم ، والابتسامة الدائمة على شفتيك ، لم تشفع كلها لك يومئذ - كشرقى - فى قبولك لدينا ، قدر ما شفع لك رجاؤك الساذج أن نرشدك - ان هفوت بتأثير الغربة واختلاف العادات - الى وجه الصواب فيما أخطأت فيه !

أجل ياعزيزى محمود ٠٠ ان هذا الرجاء وحده كان شفاعة كبرى لك كأجنبى ، وشهادة بأنك رجل مثقف ، تحب أن تستفيد من خطئك ، فى الوقت الذى يأنف سواك فيه من ذكر العيوب والاخطاء !٠٠ واحمد الله على أننى - منذ ستة أشهر - أستعمل للمرة الاولى ، وبصراحة تامة ، هذا الحق الذى منحتنى اياه !٠٠ قلت لك ان نظراتك الى ابنتى خلال الشهر الاخير بدأت ترق وتطول ، وهأنت ترى اننى - ابقاء على مودتك - أتلطف معك فى التعبير قدر المستطاع ٠٠ ولما كنت امرأة شريفة تجابه رجلا تعتقد انه شريف ، فقد بدأت أنظر بقلق الى مصير الامور !

ان فكرة زواجك من ابنتى بدت من أول الامر فكرة مستحيلة ، ان لم يكن لتباين الدين والوطن ، فلارتباطك بالفتاة الشرقية



الجميلة التى تضع صورتها بجوار سريرك ٠٠ كما ان اتصالك بابنتى ، على غير هذا الاساس، بدا لى أمرا مروعا ومنحطا ، وأكثر استحالة ، وأنا المرأة التى لا ثروة لها غير الشرف ! ٠٠ الشرف الذى لم تعلق به شبهة فى الماضى ، وسوف لا أدع للظروف ، مهما تكن ، أن تكدر بياضه الناصع !

على اننى يا عزيزى محمود لم أنس أن أفكر فيك ٠٠ انك قادم من بلد بعيد ٠٠ قادم لتتعلم ثم تعود الى الفتاة التى لا أشك فى انها تحبك مرفوع الرأس ، منصور الجبين ٠ وأنا كربة بيتك ، مسؤولة عنك الى حد كبير ، وعن الطريق التى تختارها لنفسك مادمت فى بيتى ، بل وعن مستقبلك ، وعن النقود التى لا يعلم الا الله وحده كم يشقى فى جمعها ابوك ٠ **فلم يكن يسيرا على – أو قل كان منتهى النذالة – أن أتركك هكذا وأنت شاب ، ولشبابك نزوات ، فريسة عزلاء لاول قناصة رجال تعترض سبيلك على رصيف من أرصفة لندن المائجة بالأوشاب ، وكل همها أن تملأ جيبها الفارغ ، وتشبع جسدها الفانى ، ثم سلام بعد ذلك على روح الطفل البرىء وعواطفه ومستقبله ٠٠ وربما صحته أيضا – وهذا ماكان يؤرقنى أكثر من سواه ياعزيزى محمود !**

اغتفر لى انى أدعوك طفلا ٠٠ فقد شعرت نحوك، منذ زمن بعيد ، بحنان الامومة ٠ وبحق هذه العاطفة فكرت فى مصيرك

المهدد ٠٠ وعلى ضوء هذا الاعتبار احسست بالحزن والقلق والرثاء ، وبمثل وخز الابر فى ضميرى ، لمجرد التفكير فى أن أراك يلقى بك هكذا مكتوفا الى هاوية المستقبل الاشد حلكة وغموضا من ماء نهر (التيمز) ، فلا أمد لك سببا للنجاة !

فكرت عدة ليال فى هذا المصير البشع الذى ينتظـــرك ، والذى تقع تبعته على أكثر من أى مخلوق ، وشعرت بوحى ينادينى أن أفعل شيئا يستبقيك لخطيبتك وأبيك ومستقبل حياتك ، حتى ولو بلغ الامر مبلغ التضحية بالذات !

نظرت الى وجهي في المرآة فرأيته على بقية من نضارة وحسن، استطيع مع نبل الغاية وشرف الرجاء المنشود ،أن أجعلها تصمد فى مجال الحرب والتنافس ، لهذا الجمال الزائف المبتذل ، الذى تشتريه أولئك النساء بمالهن الحـــرام من الحلاق والخيـــاط وباعة المساحيق والعطور !٠٠ أترانى ارتكبت خطيئة ياعزيزى محمود ؟ ٠٠ لست أدرى ، ولكن ضميرى كان هادئا هدوء الملاك النائم ، ومستريحا لهذه التضحية ـ من أجلك ـ راحة الطفل الغرير !

اننى لم أكن قط فتاة رعناء ، كلا ولا كان جسدى متعة لكل من أراد ٠٠ ولا عرضت شرفى الاشد بياضا من ورق الزنبق فى سوق المزاد ـ كما تفعل أولئك النسوة الساقطات ـ فلئن أكن ارتكبت خطيئة ، فما أشك أن الله غافرها لى ٠٠ اذ وسعت رحمته ذنب المسىء العامد ، أفتراها تضيق بتضحية نبيلة تقدمها امرأة مسكينة لخلاص مخلوق برىء ؟!

شعرت بمرارة قاسية وأنا أتقدم الى مذبح الفداء فأضع تلك اللوحة الممتلئة بزهور البنفسج ، والمحفور فيها بالخط الجميل بين الزهور « علمنى أن أفعل ماتريد ! » ٠٠ وضعتها على الجدار المقابل لعينيك ، لتصحو على اغرائها فى الصباح ٠ ولكى تتأكد تماما من مرارة وقداسة الشعور الذى كنت أشعر به حينئذ ، يجب أن تعلم أن هذه الكلمة التى كان يمكن أن أقتبس غيرها

من ديوان أى شاعر متهتك ، انما هى آية مقدسة من آيات الانجيل !

أواه ياعزيزى محمود ! ٠٠ عندما أذكر أن هذه الكلمةأبعدتك عنى أكثر من أى وقت مضى ، وجعلت نظراتك المريبة الى ابنتى المسكينة تزداد رقة وطولا ، كما لو كانت هى التى وضعتها لك على الحائط ، أشعر أننى امرأة غير موفقة ، وأنك شاب مسكين !

على أننى لم أيأس ، ولم أترك الشعور بالغيرة من ابنتى يستحوذ على نفسى ، كأية امرأة حمقاء ٠٠ وعندما رأيتك فى المساء مضنى ومتعبا وحائل اللون ، أثناء تناول الشاى ، تجاهلت مالغياب ابنتى من أثر فى شحوبك البادى ، وعرضت عليك نزهة خلوية فى (هايد بارك) تستعيد فيها بعض مافقدت من نشاطك بين الكتب والدروس !

كنت أؤمل أنك بتأثير الهواء المنعش ، فى المساء الصحو ، وفى هذا البستان الجميل ٠٠ وبحكم عدوى النظر الى مئات العشاق الراقدين على العشب الاخضر المخضل برذاذ المطر ، والاصغاء الى أصوات القبلات والهمسات مختلطة بحفيف الشجر ، سوف تستسلم ــ ولو لحظة ــ لهذا العبير المخدر ٠٠ فارتجفت لك عن عمد ، ورأيتك ــ واسوأتاه ــ تخلع معطفك وتسبله على جسدى المقرور !

لم يكن معطفك ياعزيزى محمود هو الذى أريد ! ٠٠ كنت أريد أن أشعر بساعديك من حولى ، بغية انقاذ نفسك من دوافع السوء ٠٠ فاما وقد اخترت أن تكون أعمى كالأرنب الوليد ، فاعترف لك والخجل يقطر من فؤادى ، أن المرأة التى صرخت عندئذ فى جسدى كانت تمشى الى جوارك وحيدة ، مقرورة ، مترنحة ، شاعرة بمثل طعنة الخنجر النافذة فى كبريائها الجريح ! ولاول مرة سهرت معك فى تلك الليلة ، وفى غرفتك

وبأرق ماعندى من غلائل ، وتركتك وأنا مغمضة العين تخلع قباءك أمامى وتنام على السرير ٠٠

كانت روحى تهتف هتاف الفضيحة ، ولكنى أسكتها !٠٠ وغالطت نفسى فقلت لها : « هل أنا الا مثل أم للطفل المسكين؟!» ٠٠ وبهذه العاطفة لففتك جيدا فى الغطاء ، وأصلحت لك الوسائد ـ كما تفعل أم حانية على مهد طفلها المريض ـ وبدلا من أن أودعك بالتحية المعتادة من ربة بيت الى نزيل ، أغمضت عينى مرة أخرى وهممت أن أقبلك قبلة أم ، ولكن ٠٠ آه من الاضطراب الذى تملك نفسى فجعل القبلة الأموية تنحدر مرغمة الى فمك الدافىء الجميل !

لو انك ضممتنى ساعتئذ الى صدرك لكنت أسلمت لك نفسى رخيصة ، وسعدت بأننى نلت من تضحيتى أقصى ما أريد ، كما سعدت المرأة التى فى جسدى بنيل الترضية التى تبتغيها لكبريائها الجريح !٠٠ لكنك بمنتهى القسوة ، ومتثائبا أيضا ، تركتنى أفر الى مأواى ، شاعرة بوطأة الفشل الفادح والخزى والمذلة والعار ٠٠

٠٠ وكان اليوم التالى ، وكان الخطاب الشنيع الذى أرسلته أنت الى مس ترندال ، ابنتى ، بالبريد ٠٠ اننى امرأة لهــا هفوات جنسها ياعزيزى محمود ، لكنى أقسم لك اننى فى هذه المرة لم أقصد أن أكون جاسوسة على أسرار ابنتى ـ فاننى امرأة شريفة على الرغم من كل اعتبار ـ لكن الفرق بين «مس» و « مسز » ـ أى بين الآنسة والسيدة ـ فى لغتنا فرق ضئيل ٠٠ فكان ان فتحت الخطاب خطأ ، ومضيت أقرأ ماسطرته فيه من لواعج غرامك المتألق ، حتى جئت الى الكلمة التى تطلب فيها منى ـ وكنت تقصد ابنتى الطاهرة يانذل ـ أن انتظرك فى غرفتى بعد منتصف الليل ، فان لم أكن أشاطرك هواك فلأقفل بابى ، ولأمزق هذا الخطاب وأنساه !

وشعرت اننى من الفرح والسعادة يخفق قلبى خفقة الطير الذبيح !٠٠ وأسفاه ياعزيزى محمود ! لقد وهبتنى على الرغم منك لحظة أحسست فيها بنشوة عروس ٠٠ ثم ولت عندما أدركت خطئى ، وأدركت أن الخطاب لابنتى ، تاركة نفسى منطفئة كرفات الشمع المحترق ، غارقة كالزورق المحطم فى بحر من الدموع ٠٠

ماتت فكرة التضحية فى نفسى ، وشعرت فى أعقاب هذه اللحظـة أننى أحبك حبا يفرى كيانى ، ويعصف بروحى ٠٠ حبا لم أذق مثله ولم أنعم بسواه ٠٠ حبا جعلنى أرتكب النذالة التى سأعترف لك بها وأنا مسلوبة الرشد ميتة الضمير !

اغفر لى ياعزيزى محمود ٠٠ ياحبيبى محمود ! ٠٠ اغفر لامرأة رأت أمنيتها الكبرى دانية القطاف ، فسرقتها فى غفلة من الحراس ! ٠٠ ان ابنتى لم تخسر شيئا حين باتت فى غرفتى تلك الليلة ، ولكنى أنا ـ عندما بت فى غرفتها ـ كسبت كل شىء ، واقتحمت باب الجنة بلا جواز !!



أتراني فى حاجة لأن أقول أكثر مما قلت ؟٠٠ أتراني فى حاجة لأن ألطخ لك روحى أكثر ممافعلت بقذارةهذا الاعتراف؟! **٠٠ اننى أكاد أجن عندماأتصور أن كل مافعلته بى كان مدخرا للابنة المسكينة التى ما زالت طفلة تتهجى فى غرامها القبل والنظرات !**

اننى أكاد أجن موجدة عليك كرجل مهذب تستغل هــــكذا غرارة صبية طاهرة ـ كابنتى المسكينة ـ وتشفيا منك كلص أعراض انقلب من سارق الى مسروق !

ونذالة بنذالة يامحمود !

ولئن التمست لنفسك معذرة من طيش الشباب ، فانى التمس لنفسى ألف معذرة من اننى أم ٠٠ أم شريفة ومسؤولة عن سعادة ابنتها ، وماكان باليسير على نفسى أن أتركها تنحط الى هذا الدرك الشنيع !!

تعال الى غدا يا عزيزى محمود ، وقل لى انك سعدت بى ليلة أمس كما سعدت بك ٠٠ تعال أعد على مسمعى الالفاظ البذيئة التى صببتها فيه ـ أعمى كما كنت ـ بفصاحة شيطان !

تعال قل لى انك أخطأت فى كتابة العنوان سهوا على ظهر خطابك ، فلم تفرق بين مس ومسز ترندال !

تعال قل لى انك أخطأت الطريق الى غرفة الام التى تحبك وتحبها ، فاقتحمت غرفة الابنة المسكينة بلا سابق اصرار !

تعال الى غدا وقل لى أى شيء ٠٠ فأنا مستعدة أن أصدق كل ماتقول ٠ فان لم تفعل فأنا مضطرة ، وقلبى يقطر أسى ياعزيزى محمود ، أن أذكرك بأنك مدين لى بأجرة ثلاثة أسابيع ! ٠٠وان تقاليدى فى ادارة بيتي مازالت فى نظرى مقدسة ومحترمة : النزيل فى بيتى دائما شخص محترم حتى تبدو فى عينيه نظرة السوء !

ووداعا ، أو الى اللقاء ـ كما ترى ـ من المخلصة لذكراك حتى تموت :

مسز ترندال

حاشية : ابنتى شديدة الاسف لانها سافرت ، من غير أن تودعك ، الى منزل خالتها مسز جرترود بالريف !!

- ٢ -

مسز ترندال
صيف عام ١٩٤٦

عزيزى محمود :

كان بودى أن ترانى - يا عزيزى محمود - عند ما تسلمت برقيتك التى تقول لى فيها انك قريب منى فى لندن ، وانك قد تزورنى لبضعة أيام !

ان قلبى وقف لحظة كأنما كان يتحفز للرقصة المؤلمة التى مزق بها صدرى ، وذهبت يدى الى عينى دون وعى ، تفركها بوجل ، خشية أن يكون هذا حلما من الاحلام العديدة التى طالما رأيتك فيها واقفا ببابى وعلى ثغرك ابتسامته الهادئة ..

ساءلت نفسى : **هل يمكن أن يحدث هذا ؟ .. هل فى طاقة القدر أن يرد لى بعد عشرة أعوام طويلة ، الرجل الذى اطلع القمر فى حياتى المظلمة ، ثم أخذه واختفى بعد بضع ليال قصار كانت ولا تزال ذكرياتها الحلوة قوت روحى الوحيد حتى الآن ؟**

لقد كتبت لك - تحت وحى اللحظة - البرقية التى لابد انك تسلمتها بالامس ، أرحب فيها من قرارة قلبى بمقدمك ،وذهبت كفتاة طائشة أعد لك الغرفة التى كنت تؤثرها على سواها من بيتى المتواضع .. وأوجج لك النار التى كنت تحبها ، لتظل وهاجة بالليل والنهار حتى تأتى .. واحلم وعيناى مفتوحتان، وقلبى يغنى ويرقص ، بمئات اللحظات السعيدة التى فى قدرتنا ان نعيدها للحياة برغم ضيق الوقت ، وادعو لوليمة هذا « الزفاف » الجديد فى حياتى - التى خلت بعدك من الافراح - كل المعارف والاصدقاء وأفراد الاسرة الذين عرفتهم وعرفوك .. وان كنت استبعدت منهم « مسز جالورى » التى عرفتها فتاة باسم « جيسى» .. انها الآن عجوز مولعة بالنمائم!

٠٠ واستبعدت كذلك « جان تيوليب » التى أصبحت تسمى الآن « مسز درنكواتر » ، لانى لا أستطيع مطلقا أن أنسى اعتذارها عن وداعك يوم سفرك ، كأن ذنبا مثل هذا يمكن أن يتسع له الغفران ٠٠ أما ابنتى الكبرى ـ وانت تعرف اسمها وتعرفها جيدا ـ فمن سوء الحظ انها تزوجت فى الريف ، وأنا واثقة انها مشغولة بأولادها وزوجها الى الحد الذى يصبح فيه من الجريمة ازعاجها بنبأ عودتك ، لاسيما وقد قلت لى انك لا تمكث أكثر من بضعة أيام ٠٠

على انك مع هذا ستتاح لك الفرصة فى هذه الوليمة ان ترى « مسز جرينفيلد » وزوجها الذى طالما حدثك عن مومياوات الفراعنة ـ وهو يشبهها الآن تماما بحكم السن ! ـ ولكن حديثه مازال عذبا كما كان ٠٠ وسترى جارتنا الجديدة « مسز ويلسون » ، وستعجبك جدا بلسانها الذى لايدخل فمها ، وفكاهاتها التى تملأ ماحولها بالنور والاشراق ٠٠ **وقد يتاح لابنتى الصغرى « ايفلين » التى طالما دللتها على حجرك وهى طفلة ، وغمرتها بالهدايا والقبلات ، والتى شبت الآن وترعرعت وأصبح لها خطيب يهواها وتهواه ٠٠ قد يتاح لها أن ترحب بك يوما على السلم اذا لقيتها فيه،لان الصغيرة الشريرة تخرج من البيت صبحا فلا تعود الا فى المساء المتأخر بصحبة خطيبها ٠٠ الغيور !**

لقد كان كل هذا جميلا ومسعدا وأنا مشغولة بالتفكير فى كل شىء يملأ اقامتك القصيرة بالبهجة والسرور ٠٠

على أن شيئا ما ٠٠ شيئا فظيعا جدا ٠٠ حدث بعد ذلك ياعزيزى محمود !

فبينما أنا أرتب الاشياء الصغيرة التى تعودت أن تراها على رف المدفأة فى غرفتك ، حتى يبدو كل شىء لعينك كما كان : الفيل الخشبى الذى كان يرى بعيونه الطيبة الكئيبة كل شىء ولا يتكلم !٠٠ وتمثال المهرج الوغد الذى كان لا يفتأ بضحكته

الساخرة يذكرنى بأن نعيمى لا يدوم ، (وقد كنت ـ وسامحنى ياعزيزى محمود ـ كسرت أنفه فى ساعة ثورة عقب عودتى من وداعك ، لانه حتى فى هذه اللحظة والدموع فى عينى ، وقلبى يئن تحت حمل هائل من الرصاص ، كان الوغد لا يزال يضحك !) ٠٠ ثم الزورق الصغير الذى طالما تمنيت لو نشر شراعه المطوى ، وسبح بنا الى جزيرة لم تطأها قدم انسان ، نعيش فيها وأنا وانت كآدم وحواء ، لا نقرب الشجرة أبدا ، ولا نصغى لهمسات الافاعى والشياطين ٠٠

فيما أنا أفعل ذلك ، وأستعيد هذه الذكريات الحلوة ٠٠ وقعت عينى عفوا على ٠٠ المرآة !

هذا الشبح يا الهى ٠٠ من وضعه هنا ، ومن أذن له فى الدخول ؟٠٠ ولماذا اختار هذه اللحظة دون سواها ليسمم نبع الامانى الحلوة الذى تفجر لى فى مغرب حياتى على غير انتظار ؟

هذا الشعر الابيض ، وتلك الجزر الذهبية الضئيلة التى فيه ٠٠ ما أشبهه بصحراء موحشة عرفت فى زمن مضى لون الزهور !

وهذه الاسنان المبعثرة هنا وهناك فى الفم الادرد ، قد أحالها الكبر والتدخين الى مثل أوتاد مهملة علاها الصدأ فى كهف مهجور ٠٠

وهاتان العينان ٠٠ وهذا الجسد الرخو المترهل ٠٠ أواه ياعزيزى محمود ٠٠ ان طيش المرأة السعيدة التى كنتها منذ لحظة ، وهناءتها هناءة الطفل المحبوب أيضا ، قد استحالا فى مثل لمح البرق الى عمود فان من الدخان الازرق وأنا أنظر الى هذا الشبح المسكين فى المرآة !

يالله !٠٠ أيمكن أن يحدث مثل هذا كله لمخلوق بشرى فى أى عدد مهما طال من السنين ؟٠٠ أو يكون هذا الشبح مسخة من تهاويل حلم اعانيه ٠٠ أوهو أنا بذاتى وعينى هذا الشبح المخيف ؟!

ان الشبح يتكلم ٠ ٠ان ألفاظه تلذع قلبى كالسياط ٠٠ انه يقول لى : « **انك لن تستطيعى أن تنشرى من القبر ماضيا أكله التراب !٠٠ لقد تآمرت منذ عشر سنوات مع الظلام واللؤم ، ومع بقية من الصبا كانت لا تزال فيك ، فسلبته من ابنتك الكبرى ! فأى شريك من هؤلاء يرضى ان يضع يده فى عظام يدك الآن ؟٠٠**

وأية مؤامرة تستطيع اليوم أن تجلب لك رجلا أيا كان ، بغض النظر عما اذا كان هذا الرجل هو الحبيب الغالى ٠٠ محمود ؟٠٠ وهبى محمود كان طيب القلب فوضع على سبيل « الصدقة » قبلة على شفتيك ، أتراه يضع هذه القبلة على هذه الشفاه الذابلة الا وهو يتقزز !؟٠٠ وهبيه تصدق عليك فضم اشلاءك الى صدره ، أتكونين بين ذراعيه أكثر من تمثال من الرخام لا أثر فيه لدفء أو حياة ؟!

اعترفى أيتها العجوز المتصابية ان هؤلاء الذين أقصيتهم بخسة عما سميته وليمة عرسك الجديد ، لسبب أو لآخر ، انما أقصيتهم لأنك تخشين أن تصبحى بينهم أضحوكة يا مسز ترندال !٠٠ تخشين ان محمود الذى ليس نقيا كالثلج ، قد تنزلق عينه عفوا عن وجهك المجعد لتولم على وجه أو آخر من هذه الوجوه التى ما زال يترقرق فيها ماء الشباب !

اعترفى وكونى شجاعة مع نفسك ومع محمود ، انك لم تعدى لهذا الضيف الغالى مائدة ، ولكنك أعددت له مقبرة كل مدعويها هياكل أثرية تخطر فى أكفان !

لقد ظننت ياحبيبى محمود اننى عندما أحطم المرآة بقبضة يدى المحمومة سيفارقنى الشبح ٠٠ ولكنه مع ذلك يطارد خيالى بسياطه اللاذعة فى كل مكان !

اذهب من طريقي يا طيب القلب ياعزيزى محمود ، ودعنى لهذا الشبح الطاغية يحطم أحلامى بهذا المعــول الجبار ! ٠٠ اذهب ولا تأت الى ، ولا تعرج على المسكينة التى تتعذب كثيرا

في هواك .. ولكن اذا غلبك كرمك برغم هذا وعطفت على حبيبتك الباكية ، وقلت لنفسك ان مسز ترندال التعسة قد تكون في كل هذه المبالغات الطائشة ضحية القهر والحسرة على كونها لا تستطيع أن تبدو لك في كل بهائها وجمالها القديم .. وانك انت ايضا لم تعد شابا كما كنت ، بل ان الزمن ربما يكون قد تحيف منك أضعاف ماتحيف من مسز ترندال !.. فستجد كل شيء مهيأ لاستقبالك ، وستجد القلب الصبي الذي أسعدته يوما ، مازال ظامئا الى السعادة . وستجد النار التي أحببتها ، موقدة في غرفتك بمنتهى السخاء .. ان فحم (كرديف) كله تحت امرك .. وقربة الماء الساخن تنتظرك تحت اللحاف !

.. فقط تذكر انك اذا أتيت فان مسز ترندال - والشكر لله على أنها لا تزال تحترم نفسها - تأبى أن تعامل كامرأة كسيحة أو كعجوز مريضة بالروماتزم !.. واذا خطر لك أن تنظر الى ابنتي الصغرى « ايفلين » - ويقولون أنها تشبهني تماما - تلك النظرات المجرمة التي كنت تسبغها على أختها الكبرى منذ عشر سنوات ، فثق أن أي خطأ من هذا القبيل - مقصود أو غير مقصود - سيعاقب بمنتهى الصرامة ، لا من خطيبها الغيور الاحمق وحده ، ولكن من سيخ المدفأة الذي لن تدركه أي رحمة حتى على عيونك الحلوة ياعزيزي محمود !

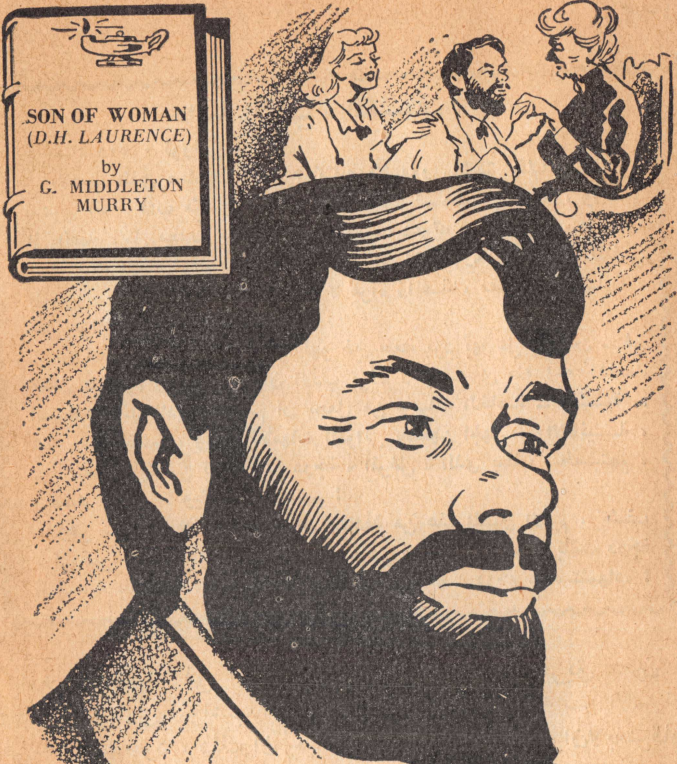
ان مسز ترندال قد تكون فقدت كل شيء - وهذه مسألة فيها نظر - الا الشرف ، فلا تلجئها الى الدفاع بهذه القسوة عن رأس مالها الوحيد !

لا تشمت بي أصدقائي الذين دعوتهم الى وليمة استقبالك .. وتعال بأسرع ماتستطيع ياحبيبي محمود »

المخلصة

مسز ترندال

(طبق الاصل)



احدث كتاب عن حياة وإنتاج الأديب الكبير :

د . هـ . لورنس

ابن المرأة !

تلخيص : صلاح الدين الشريف

داعية الأدب « المكشوف » !

◆ « د٠هـ ٠ لورنس »

الاديب الذى صادرت انجلترا كتابه المشهور «عشيق الليدى تشاترلى» بدعوى أنه « أدب مكشوف » ! ٠٠ ثم عادت فسمحت بتداوله ، ورفعته الى القمة ، بل مجدت مؤلفه ٠٠ حين فهمت دعوته على حقيقتها ، على أنها حملة ضد النفاق والرجعيـــة ، ودعوة الى أن يكون الادب مرآة للنفس البشرية ٠٠ مرآة واقعية صافية ، لا مرآة زائفـة ، مقعرة أو محـدبة ، مثل مرايا « لونابارك » !

ان أدب « د٠هـ ٠ لورنس » لهو خير حجة يرد بها على القائلين ـ فى مجال المناظرة والجدل ـ بأن الادب ترف لا جـدوى منه ! ٠٠ فلقد استطاع هذا الاديب العظيم أن يجعل من مأساته الخاصة ـ الجنسية ـ عظة لبنى البشر ، وعبرة للامهات اللواتى يدفعهن الجهل ، والانانيـــة ، الى التعلق بأبنائهن تعلقا يبلغ درجة « المرض » الذى يتلف شخصيتهم ، ويفسد حياتهم ، ويقوض سعادتهم !

وفى سبيل انقاذ أبناء الاجيال القادمة من هذا المصير الاليم ، كشف « لورنس » حياته الخاصـة للملأ ، فى صراحة « نبيلة » بلغت درجة التضحية بالسمعة ، وبكرامة الرجولة ٠٠ بل بلغت درجة «الاستشهاد» !

– ١ –

◆ **للعبقرية** فى أفراد الجنس البشرى سر عريق دفين ، وهى عند ذوى المواهب الادبية والقوى الروحيـــة سر الاسرار فى هذا الوجود ، ذلك أن حياتهم و « المأساة » صنوان لايفترقان ٠٠ فهم سريعو الاكتمال والارتفاع والتألق ، سريعو الانطفـــاء والأفول ، لسر لاندريه ! ٠٠ يرفعهم خطو الزمن الحثيث الى ذروة النضج الفنى القادر على أن يبدل لنا معانى الحياة والوجود ، وهم بعد فى سن الثلاثين أو الخامسة والثلاثين ، ثم لا يلبث هذا الخطو الحثيث نفسه أن يقذف بهالة العبقرية ويسحر شعلتها الحارقة الى هوة الانحدار ، فالاحتضار ، فالمغيب ، مع انحدار سفينة العمر الى سن الاربعين ، أو مابعدها بقليل !

٠٠ وهم بالرغم من ذلك ينتجون ويبدعون ، بعد مغيب عبقريتهم ، فالنور الذى كان مشعا ساطع الشعاع ، لايمكن أن

تنطفىء بغتة كل ومضاته ! لكن النبض الخالق الذى يسرى فى انتاج مابعد الاربعين ، تنقصه على التدريج حرارة سن «النضج» الخالقة ووهجها ، هذه السن التى خلفوها وراءهم بحكم الدفع الرهيب لركب الزمن ، شاعرين بذلك أو غير شاعرين ، مقرين بهذه الكهولة الذهنية ٠٠ أو مستنكرين ؟!

وهذا الذى لاحظه الكثيرون من المعنيين بتحليل ظاهرة « العبقرية » فى الجنس الانسانى ، منطبق تمام الانطباق على الكاتب الروائى الفذ « د ٠ هـ ٠ لورنس » : **ففى سن الخامسة والثلاثين ، أبدع لورنس درة من أخلد درره ، وأبقاها على الزمن ، هى قصته التى سماها** Fantasia Of The Unconscious **٠٠ ففى هذه القصة ـ التى كان ظهورها ايذانا بمولد عصر جديد للأدب والفن فى الغرب ـ كشف لورنس عن كل خبايا نفسه ، وأبان عن هذه الخفايا المعتركة فى أعمق أعماقه ، وراء السطح البراق وتحت « القشرة » التى ينسجها ، بل يلفقها ، العرف الاجتماعى الكثير الزخارف ، الموكول بالنفاق والمصانعة!**

لقد أعلن « لورنس » فى هذه القصة عن دين جديد ، وبشر من خلال سطورها ذات اللهب والوهج والوجدان الثائر ، بعقيدة عصرية أقرب صدقا وأكثر واقعية من كثير من عقائد عصره ٠٠ وفيها حدد « لورنس » لنفسه موقفا من الحياة ، ومن مجتمع الناس ، ومن فضائلهم التقليدية وقيمهم ، ومن المعانى التى يخلعونها على حكمة وجودهم ومغزاه ٠ وقد بوأته قصته « فانتازيا » مركزا مرموقا فى دنيا الأدب النفسى القائم على خوالج التكاشف والمصارحة والصدق المشبوب ٠٠ فهو فيها يشرف من قمة سن النضج التى بلغها ـ سن الخامسة والثلاثين ـ على كل مراحل ماضيه : طفولته ، وصباه ، ويفاعته ، وشبابه ، ورجولته ٠٠ فيستقر على حقيقة واحدة لاتتغير ، حقيقة مرة بشعة : **هي ان الانسان ـ هذا الكائن الحساس المفكر ، المغلوب على أمره رغم فكره وحسه ـ يرسف وراء القضبان فى سلاسل**

وقيود صنعها لنفسه بنفسه ! وهى سلاسل وقيود قاسية عاتية ، تتمثل له فى هذه « التوالب » الاجتماعية المتحجرة ، التى لايدرى لها مع ذلك علة ، ولا يرجو مع وجودها صلاحا لأمره ، وأمر بنى جنسه !

ان لورنس الطفل ، ولورنس الشاب ، ولورنس الرجل ، قد أضناه وأشقاه – فى كل مرحلة من هذه المراحل – وقع الاحساس بظلم هذه السلاسل والقيود الاجتماعية لرجل الفكر – بل لأى كائن انسانى حى ، أيا كان حظه من « مدلول » اسم الجنس الذى ينتمى اليه ويعتز به مفاخرا ، ولو فى فخر كاذب! – وهو يكتب ويسجل هذه التجارب التى تضمنتها قصته هذه، لا لنفسه ، ارضاء منه لمجرد نزعة فنية عارضة ، كما يفعل الكثيرون من كتاب القصة فى عصره ، بل ليبشر بالمذهب الجديد الذى سينقذ به روح أطفال عصره ، وشبابه ، وكهوله .. بل روح أطفال العصور القادمة وشبابها وكهولها ، كى لا تقسو عليهم بعد اليوم هذه القوالب الاجتماعية المتحجرة ، التى يحاربها كما يحارب الاشباح والضلالات .. ويهاجمها كما ينبغى أن تهاجم كل خرافة ينسجها ، ككفن للاحياء ، أولئك الجامدون المتخلفون ، المولعون بأن يقيموا من كل عرف ومن كل عادة « وثنا » مقدسا يسجدون له ماعاشوا !

جوع المرأة الى الحب !

◆ **يقول** لورنس فى قصة « فانتازيا » المذكورة ، ان رابطة الزوجية التى تربط بين الرجل والمرأة ، ستظل الاساس الاول، أو القاعدة الضرورية ، لنظام مجتمعه الجديد الذى يريده ويتوق اليه . ولكى تكون هذه الرابطة الانسانية الاصيلة ، هذه الوصلة الوجدانية الرقيقة العميقة ، عاملا من عوامل الخلق والتجديد فى نطاق الاسرة – لا عاملا من عوامل زعزعتها وتقويض بنائها – لابد من أن يدرك الرجل « الناضج » ، ذلك

الاحساس بالمسئولية « المقدسة » التى تلقيها عليه رابطة الزوجية ، والتى تستمد قداستها من قداسة الغرض الاجتماعى الضخم الذى خلقت من أجله ٠٠ فاذا لم يدرك الرجل هذه المسئولية ، ترتبت على ذلك نتيجة بالغة الخطورة ، تحددها المرأة - لا الرجل - وترسم بتصرفاتها النفسية ، وسلوكها الجنسى ، مداها وخطرها ! ٠٠ ذلك أن جوع المرأة الى الحب ، هذا الجوع الغريزى الذى لا حيلة لها فيه ، سيغدو عندئذ ، اذا لم يجد شبعه ومتنفسه ، شعارا لاهبا ، بل اعصارا رهيبا عاتيا ، يقوضها ويقوض الاسرة معها ! ٠٠ استمع اليه وهو يتحدث فى قصته ، عن هذه الحقيقة ، فى كلمات بسيطةملؤها الصدق : « ان المرأة التعيسة ، المحرومة ن الحب ، لا تنى تتخبط ، وهى تبحث خلال سعيها لاطفاء جوعها الى الحب ، وراء من يشبع هذا الحب فيها ٠٠ انها تتلفت الى كل ناحية ، تنشرها وتطويها حيرتها الملهوفة المنهومة ، عساها تلتقى بشخص ما ، وعندئذ - كما هى العادة - يلتقى نظرها بنظر طفلها ٠ وهنا تحسب أنها وقعت على بغيتها ! انها تستطيع أن تستثير فى طفلها ، ابنها ، كل ماتاقت اليه وتلهفت على الاستمتاع به من مشاعر واحساسات ، ونبضات تهزها ٠٠وهى تلتقى هنا - فى شخص طفلها الذى من دمها ولحمها - بتلك الاستجابة النهائية الكاملة لكل هذا الذى هفت اليه وأحست بظمأ لاهب الى العب منه فى شراهة ٠٠ ان الطفل يكون هنا واسطة وذريعة ، وليس هدفا أو غاية ٠ انه مجرد وسيلة لاشباع مايضنى كيانها الانثوى من مشاعر هذا الحب العارم المكبوت ٠٠ **ومن ثم نراها تتهالك على طفلها ، وتطوى كيانها كله فى غمرة حب جارف له ، حب عظيم يستغرقها ، فتحبس على هذا الابن كل هيامها واخلاصها اللذين كانا حقيقين أن يصرفا - بحكم رابطة الزوجية وصلتها المقدسة - الى الزوج وحده ، ليكونا مصدر اغناء لشخصيته واعزاز لمركزه ، فأصبحا**

بسبب هذا الانحراف الشاذ فى مزاج الزوجة المحرومة ، سما زعافا لابنها ، قمينا أن يغتاله ويقضى عليه من أقرب طريق ! »

·· ثم يستطرد لورنس : « ان المرء لا ينسى ماعاش حبه الاول ، هكذا يقولون · لكن هذا القول ، فى أيامنا هذه ، يبدو سخرية من السخريات اللاذعة · فالكثيرون من شباب العصر ينكرون صحته ، وهم يقهقهون حتى يستلقوا حين يسمعون أحدا يردده أمامهم ، اذ يكفى أن يستغرق مشاعرهم حب جديد ملتهب ، حتى ينسوا كل ذكريات « الحب الاول » ! ولكن الواقع ان المرء لا ينسى حبه الأول ، ولو زعم ذلك لنفسه وألح فى الزعم ·· انه لن ينسى هذا الحب الذى رسخت له يوما رواسب فى قلبه · وهو قد ينسى المحاولة الاولى التى قادت الى هذا الحب وفتحت أمام القلب بابه ، ولكن ما أن يتأصل يوما حب واحدة من النساء فى أعماقه ، حتى يحس أن علاقته ، الظاهرة والخفية ، بهذا الحب هى علاقة ثابتة لاتنقطع ·· انهاعلاقةلاتنقطع حتى بالموت ! ·· ان الشعور بالحب ، حتى فى صورته الوجدانية العليا ، يستثير حتما المراكز الدنيا للاحساس الجنسى ، ويحثها على النشاط لأداء الوظيفة الموكول بها أداؤها ·· وبالرغم من ذلك ، فقد لا يكون ثمة اتصال جنسى ، بالمعنى المعهود ، بين الرجل والمرأة اللذين ربطهما هذا الحب الوجدانى الرقيق ·· ولكن ماذا يحدث عندئذ ؟ انك اذا شئت أن تلتقى بالصورة المرموقة للزوجة الظامئة الى الحب ، هذه الصورة التى تكشف لك عن روحها الحقيقية المعتملة فى كيانها ، فحسبك ان تلاحظ وتتأمل علاقة أم بابنها المراهق ، الذى يناهز الثامنة عشرة من عمره ! تأمل كيف تخدمه ·· كيف ترضيه وتتملق مطالبه ·· كيف تشعره على الدوام بأن روحها الانثوية الصادقة هى توأم لروحه ·· انها تبدو فى كل تصرفاتها معه كما لو كانت هى زوجته الخاضعة لأمره ·· بل جاريته العابدة له ، بصورة

فريدة فذة ، لا يمكن أن تتحقق يوما للزوج نفسه الذى كان يجب أن ينصرف اليه كل هذا الاخلاص والحب ؟!

ومرة أخرى : ماذا يحدث بعد ذلك ؟ **ان الابن يستمر فى النهل من معين هذا الحب المعسول زمنا ، قانعا راضيا منتشى الحواس ، حتى يصطدم بأول احساس بالحاجة الغريزية الى اشباع عاطفته الجنسية على الوجه الطبيعى المألوف ! ٠٠ لقد ظل ، قبل أن يغزوه هذا الاحساس ، يحيا فى ظل مراهقة سعيدة ، آمرة ناهية ، لا عقبة تقف فى طريقه ، ولا صدمات نفسية تنغص عليه حياته ٠ فهذه الأم ، جاريته المتفانية ، تخدمه وتقف حبها وحنانها عليه وحده ٠٠ وكل شىء يشتهيه ، يأتيه فى حفل من الجمال والسحر والزينة ، كأنه موكب حلم مذهب الحواشى يحس هو معه انه يخطر فوق هام السحاب !**

وأنت تستطيع أن تتأمل مدى هذه « القوة » التى تملك مثل هذه المرأة ، التى استكملت نضجها الجنسى ، أن تبثها فى ابنها المدلل ، حتى لتجعله يحيا متوهجا على الدوام ! ٠٠ ولا تعجب اذا سمعت الناس يقولون : «ان معظم العباقرة لهم أمهات عظيمات ! » ٠٠ وان كان القائلون قد نسوا أن يضيفوا : « ان لهؤلاء العباقرة ، أيضا ، مصائر حزينة تعسة ! »

نشأته « خنقت » عاطفته الجنسية !

◆ **وهذه** حياة لورنس ذاته ، تكاد تكون صورة واقعية حية لمأساته ، سجلتها ريشته المبدعة فى قصة « فانتازيا» ٠٠وتتجلى ملامح الصورة بعينها من خلال مشاهد قصته الاخرى : « ابناء وعشاق » (Sons & Lovers) التى أخرجها بعد ثمانى سنوات من قصة « فانتازيا » ، حين كان أقدر على التبصر فى خفايا مأساته كطفل ثم رجل ، ثم كعاشق تكتوى جوانحه بلهب النار المقدسة ، نار الحب التى تميت وتحيى !

والحق أنه اذا كان علينا أن نفهم أو نعى حقيقة الدوافع التى حركت هذا الرجل ، الموهوب الى أبعد مايمكنأن يوهب انسان،

المعذب الى أقصى مدى يمكن ان يبلغه العذاب ، فمن واجبنا أن نضع أصابعنا على هذا التاريخ النابض الحى ، الذى يعد مصدرا جوهريا لمن يؤرخ لحياة لورنس • ان هذا التاريخ يحكى لنا قصة رجل خنق برغمه عاطفته الجنسية ، وأمات فى سن مبكرة غريزة النوع أو كاد •• وصلب على خشبة النشأة الاولى حياته العاطفية والجنسية جميعا !

ومع ذلك فلورنس لم يقص علينا فى هاتين القصتين ـ وفى غيرهما من قصصه وأشعاره ـ كل شىء ، أو كل حقيقة مستورة فيه ، فهناك سر دفين لم ينكشف بعد ، لايستطيع هو أن يكشف عنه بنفسه ، بل انه ليكافح من أجل كتمانه ، أو انكاره ، ليبقى خبيئا فى خزانة وعيه الباطن الى آخر لحظات حياته ! •• ولكن هذا السر الذى يطوى عليه لورنس جوانحه سوف ينبثق ، مع ذلك ، على مر الزمان من أعماقه البعيدة ، ذلك أن لورنس قد كتب عليه العجز التام عن اخفاء أى شىء يعتمل فى أعماقه ، ويتصل بجوهر نفسه من قريب أو بعيد !

وليس غرض هذا الكتاب أن يكشف عن شىء لم يكشف عنه لورنس نفسه ، فليس ثمة مايستطيع باحث ان يكشفه من أشياء لم يكشف عنها « لورنس » ـ سواء وهو شاعر بما كشف منها أو غير شاعر ـ فالواقع أن « لورنس » لم تكن له الا حياة حقيقية واحدة ، هي تلك التى عاشها • وهذه الحياة قد كشفت عنها أعماله الادبية جميعا ، منثورة ومنظومة •• وانما كان هدفى من وضع هذا الكتاب أن أنقذ قصة حياة لورنس من أولئك « السطحيين » الذين يأخذون كل شىء وفق ماتوحى به « حرفيته » الظاهرة ، وان أنقذها كذلك من لورنس نفسه الذى حاول أن يسربل نفسه ، فى قصصه وأشعاره ، بأستار غير قليلة من خداع النفس ! •• فالواقع ان الذى يهم عشاق الادب العالمى ، والانسانية جمعاء ، هو ماذا كان لورنس • • وليس ماتظاهر بأن يكونه !

- ٢ -

◆ ولد « لورنس » فى اليوم الحادى عشر من شهر سبتمبر عام ١٨٨٥ فى فى (ايستوورد) بمقاطعة (نوتنجهام شاير) ، وكان الولد الرابع لاب يعمل فى مناجم الفحم ، ولأم بورجوازية تكدح هى الاخرى من أجل أسرتهماالصغيرة. وكان والده صورة مجسمة للانسان « الحيوان » - بالمعنى الصالح ، والمعنى الطالح ، لهذه الكلمة ! - فقد كان مشبوب الغرائز ، سريع الاحتداد ، يألف الاهمال فى كل شىء ، ولا يفقه معنى للمسؤولية كوالد ورب أسرة . فهو لايحيا الا للحظة التى يعيش فيها ، ولا يمد أنظاره الى أبعد من أرنبة أنفه ! وبجانب هذا كله كان رجلا كذوبا ، يحب أن يجعل من حياته كلها « أكذوبة » كبيرة ترضى فيه غريزة السخرية بكل شىء ، والاستهانة بجميع القيم !

أما الام فكانت رقيقة ذكية ، صافية النفس ، تقدر للمسؤولية التى ألقتها أعباء البيت والأمومة على كاهلها ، خطورتها وقدسيتها . وكانت الى جانب هذا كله شجاعة النفس ، كريمة ، صابرة . وفى قصة « أبناء وعشـــاق » (Sons & Lovers) نجد لورنس يحاول ، فى جهد صادق ، أن يعقد مقارنة عادلة بين أبيه وأمه . لكنه انتهى الى أن هذه المقارنة أو الموازنة أمر من الصعب تحقيقه على النحو الذى يرضى الحقيقة الفنية عنده ، ويرضى ضميره كابن !.. فمع كل مالاقت الاسرة على يد الوالد من ويلات ، كان لورنس أميل فى هذه القصة الى أن يلتمس لوالده بعض الاعذار ، وان لم يستطع ذلك بالنسبة لأمه التى بدا فى ثنايا قصته انه يحملها جانبا من اللوم على ماآل اليه حال « رب الاسرة » من انحلال وضياع ، جرت الاسرة الى هوتهما الرهيبة بلادة الاب ، وعناد الام !

.. يقول لورنس فى هذه القصة : « ان المأساة كل المأساة هى أن طباعها - أى الام - كانت تبدو على النقيض تماما من طباع الزوج ، ولم تكن قادرة على أن ترضى أو تقنع بأن تكون على وفاق - ولو وهمى - مع شخصية الزوج على علاتها ، ذلك انها كانت تود له - صادقة مخلصة - ان يكون اعظم مما كان ! ومن أجل أن تخلق منه انسانا أنبل خلالا وأسمى نفسا ، نسيت امكانياته ، وحدود شخصيته ، ومايستطيع ومالا يستطيع ! فكان أن أضاعته وحطمته ، وتركت المعركة فى نفسها جراحا غائرة لم تندمل بقية أيام حياتها !

« والحق أنها لم تحطمه وحده ، ولا أساءت الى نفسها بما فعلت فحسب ، بل حطمت أيضا فى محاولتها تلك أولادها ! ومن أسف أنها لم تكن معتدية ولا متجنية فى هذه المحاولة من جانبها أن تجعل من زوجها المتبلد رجلا يفهم معنى المسؤولية ويضطلع بتبعاته نحو أسرته .. بل انها عدت ذلك واجبا ضروريا

يقتضى وضعها ، كزوجة وأم ، أن تؤديه نحو زوجها الذى لايريد أن يفهمها ، سواء من أجل نفسه ، أو من أجل أولادهما التعساء ٠٠ ولا شك انها لو كانت أقل قسوة عليه ، وأقرب الى فهمه ، والى التجاوب مع بعض النواحى الطيبة فيه ، لعانت أقل مما عانت من متاعب وآلام ٠٠ ولكن بناء الاسرة كان حقيقا عندئذ أن ينقض من أساسه على رأس الجميع !»

ومع ذلك ، لم يملك لورنس فى قصة « فانتازيا » الا أن يعود الى مقاييس العدل فى نفسه ، فيحمل والده تبعة ماحدث ، أو الجانب الاكبر من التبعة ، تاركا للزوجة الجانب الباقى ٠٠ فلم تملك الام الا أن تنسحب من الميدان وتنفصل عن الزوج ! وقد وقعت مأساة الانفصال هذه ، ولورنس فى طريقه الى الدنيا ٠ ولم تكن الام ، فى محنتها القاسية ، تتمنى أن تكتحل عيناها برؤية هذا الجنين الذى كان يتحرك فى أحشائها وقت أن عقدت أمرها على أن تحيا منفصلة عن جو المأساة ٠٠ ومن ثم لم تفرح لمجيئه الى دنيا العذاب والآلام ، كما فرحت من قبل لمجىء أخويه ، حين لم تكن أمور الاسرة قد بلغت من التعقيد والسوء مابلغته قبيل مولده هو ٠٠

انتصار الطفولة !

◆ ولكن ، بعد أن جاء ٠٠ بعد أن صافحت آذان الدنيا صرخته الاولى ٠٠ ماذا كان شعورها نحوه ؟ هل تبدل ؟ هل تلون بلون نفسى جديد ؟ هل أملت أن تعيش لهدف جديد ٠٠ عزيز ؟!

ان لورنس يقص ذلك أيضا فى نفس قصته « أبناء وعشاق » ، فلنستمع اليه وهو يصف بأسلوبه اللماح المرهف مشاعر الام فى تلك اللحظات القاسية الرحيمة معا : « ٠٠ وبين ذراعيها ، وعلى وسادة صدرها الخانق ،كان يرقدالطفل الضئيل الرقيق ٠ ان عينيه الزرقاوين العميقتين ، كانتا دائمتى التطلع ، فى فضول الطفولة العذب ، الى وجهها الشاحب وعينيها الجامدتين اللتين لا يختلج لهما جفن ٠ انه فى تطلعه الحالم يحاول أن يستشف من عينيها أسرار نفسها المعذبة ، ويستخرج من أعمق أعماقها كل مايعترك هنالك من خواطر وأفكار وأحزان ٠ انها لم تعد تحب بطبيعة الحال زوجها الذى نفضت يديها من أمره الى الابد ٠ ثم هى لم تكن تريد هذا الطفل الذى لايدرى بعد من سر المأساة شيئا ٠ ومع ذلك ، فهاهو ذا راقد فى سلام جميل بين ذراعيها الحانيتين ، وكأن وصلة سحرية تشده الى قلبها بروابط خفية لا تنفصم ٠ انها تحس كأن هذا « الحبل السرى » ، الذى كان يربط هذا الجسم الضئيل النحيل بجسمها ، لم ينقطع بعد ! وبين الفينة والفينة ، تلفحها موجة حارة دافقة من حب متوجد يزيدصلتها بطفلها ، فلا تملك فى استجابتها اللاشعورية لها ، الا أن تلصق بوجهه الصغير

وجهها ، وبصدره الضئيل صدرها، وهى تجتذبه اليهافى ضغطة حنون ولهانة . انها موزعة النفس بين حبها لهذا الوليد اللاعب بين أحضانها فى براءة واستسلام ، وبين خشيتها الدائمة عليه من دنيا هى فى الغدر أفعى ، لها فى كل يوم اهاب وناب .. ولكن حبها له يزداد على مر الايام ، بل الساعات ، بل اللحظات ، حتى لتحلق فى جو بعيد عن هذه الدنيا ، وتحس أنها تحملهمعها على أجنحة حبها المسحورة ، لتكون على الدوام معه ويكون على الدوام معها .. كل منهما لاصق بالآخر ،لا يغيب طرفة عين عنه .. انها لتنظر الى عينيه الصافيتين الذكيتين ، فتحس أنهما تشعان مع بريق الطفولة الحالم ، بالالم والخوف .. ترى أيحس هذا الرضيع بآلامها الدفينة التى تنهش صدرها ؟ هل فى نظرة هذا الطفل لوم أو عتاب ؟ انها حين يسرح بها الخيال وتطوح بها الخواطر الى مرمى بعيد ، تحس مع ذلك أن نخاع عظامها يذوب تحت وطأة الخوف والالم .. لماذا ؟!»

.. وقد يكون هذا الوصف العميق البليغ ، من قبيل الخيال الروائى الممتع ، ولكنه خيال واقعى صادق كل الصدق ، بحيث يجوز لنا أن نثق فيه ونطمئن اليه ، اذ لا بد أن عناصر كثيرة من الحقيقة ـ الحقيقة القاسية المرة التى عاشها لورنس الطفل ، ولورنس الصبى المراهق ـ قد انعكست على أسلوب تفكيره الروائى ، وطريقة ربطه للحوادث و « العقدة » .. ان حب أمه التعسة ، هذا الحب اليتيم المخنوق ، الذى لم يجد من يعاطفه ، بعد أن أخفق زواجها وتحطم حلم سعادتها كزوجة ، قد انبعث مرة أخرى فى قوة مشبوبة ، هى أضعاف أضعاف قوته الاولى .. انبعث فى صدرها وقلبها وجوارحها جميعا ، ليتركز فى عاطفة جارفة ملتهبة ، تحسها نحو شخص حبيب عزيز ، هو شخص ابنها « دافيد » هذا . وقد انفعل الطفل ، والفتى ، والشاب ـ والرجل فيما بعد ـ باشعاعات هذه العاطفة ، واستجاب لها بكل نابضة فيه ، وبادل أمه حبا جارفا بحب جارف .. لكنه دفع الثمن الرهيب من ذوب روحه وأعصابه ودمه ، فقد غدا الفتى حساسا مفرط الحساسية ، بعد أن نمت حواسه وطباعه فى ظل هذا الجو الدافىء الحالم ، الغنى بعواطف أمومة محبة حانية ، أسرفت فى حبها الى مدى جاوز كل حد معقول !.. على أن حساسيته البالغة هذه قد قوت فيه قدرته على التجربة ، التجربة الحساسة العميقة الواعية ، بنفس النسبة التى قوت بها ميله الى الانطواء على نفسه والهروب منها ، حالما يحس أن التجربة ستكون قاسية عليه .. فى غير ماجدوى !

عذاب الفتى المراهق

◆ وقد نما فيه ، أيضا ، حب أصيل الى أن تكون علاقاته بالجنس اللطيف من قبيل علاقته الجميلة الرقيقة بأمه ، وهو احساس سيطر عليه فى مرحلة

المراهقة التى تسود أيامها ولياليها أحلام وأشـواق فى مثل عمر الزهور ٠٠ وهكذا كان لورنس - فى سن الرابعة عشرة - يبدو لعارفيه فتى حالم النظرة ، يقظ الحواس ، شاعرى الوجدان ، له شعر رمادى كغمام رقيق على حاشية الافق لم يسفعه وهج الشفق الا من أطرافه ٠ وتتأرجح فى محجريه عينـان زرقاوان تشعان بالضياء ٠ أما نسمات وجهه التى تفسر نفسها بنفسها ، فهى صورة ناطقة حية لملامح لوحة فنية لانسان ينفعل بعديد من المشاعر والاوهام والافكار ٠٠ انه ينظر الى الاشياء فى محيط دنياه كما لو كانت مفعمة الى قرارتها بدفء الحركة ونبض الحياة ٠ وكانت له ابتسامة كابتسامة أمه ، تندلع كالشرر الخافق فى سرعة البرق ، فتبدو حلوة فاتنة كما لو كان لها بريق ضحكة يرسمها ثغر حسناء لاهية ، ثم تتجهم بسخرية مفاجئة ، كما لو كانت سحابة حالت فضتهاالمتلألئة الى لون باهت مكفهر !٠٠ ولو فتشت عن السبب ، لوجدت أن ثمة ما يأخذ بكظمه ويسد عليه منافس روحه كلها ، فلا يملك الا أن يرتد لساعته متجهم الوجه ، متبلد الملامح من فرط انفعـاله المكظوم ، ذلك أنه حسـاس تلهب حساسيته أية اثارة ، ولو كانت عند سائر الناس تافهة غير ذات بال !!

من أجل ذلك كان « لورنس » ، فى كل أدوار حياته ، يتعـذب - عذاب ذرة فيه ، وتكاد تذهب بهيكله بددا !

الغض الصغير ٠ لقد كانت هذه الفكرة تبدو له « كابوسا » رهيبا يجثم ليل نهار على صدره ، ليخنق أنفاسه ويستل من كيانه الطرى حيويته كلها ! أو اللحظات ، اصداؤها ٠٠ حتى تصفو روحه وتعذب نفسه ، ويعود مرة أخرى ذلك الفتى المتهلل الروح ، الراضى عن نفسه ، وعن الناس والاشياء ، المنكر

ولكن ما ان تخف - فى كل مرة - حدة اللقاء الاول ، وتخفت على مر الوقت، من نفسه ماكان ٠٠ وما قد يكون ؟!

الحاد ابيه ٠٠ وكفرانه بالانسانية !

• على أن لورنس الذى اكتوى حتى قرارته بلهب المأسـاة التى عاشت فيها أمه ، عاش أيضا ينقل فى وعيه الباطن ، عن أبيه ، حقيقة أخرى رهيبة ، هى حقيقة الحاده وتجديفه ، وكفرانه المر بالقيم الانسانية والسماوية جميعا !٠٠ فلقد كان هذا الرجل العجيب ، فى كل أفكاره وتصرفاته ، صورة «ممسوخة »

وعندما كان فى السابعة من عمره ، كانت فكرة انتظامه لاول مرة فى حياته الاول ، يحس هذا الفنان أن ثمة ضربا من « الصدمة » الخفية لحسه تهز كل الشهداء - من كل شيء يلتقى به فى طريق حياته لاول مرة٠ ففى هـذا اللقاء فى سلك مدرسة من المدارس ٠ تعذبه عذابا قاسيا ، وتكاد تعصف برأسـه عفنة لهذه القيمة الانسانية العليا التى ترمز لها كلمة « أب » !٠٠ صورة عاشت

فى خيال لورنس الصبى ، وفى ذهن لورنس الاديب ، الشاعر ، القصاص ـ بل لورنس الفيلسوف حين يسلط على الحياة والاحياء والوجود ، نظرات ثاقبات متمهلات ـ فأراد أن يعكس تلك الصورة فى ألوان من فنه الصريح المكشوف ، يستعير لها من ناحية الشكل اسماء أشخاص رمزيين ، ومن ناحية الموضوع النابض الحى حقائق وتجارب ومشاعر ، عاشها هو ، وانفعل بكل وهجها ولهبها ، ونفضها على الصفحات ، فى أشعاره وقصصه ، صرخات وانتفاضات ستعيش مدوية فى الآذان ماعاش على وجه الارض هذا الجنس الانسانى العريق ، الذى يزداد تجهمه للحقائق بقدر ماتزداد نسبة الصراحة والمرارة فيها !!

نعم ، ان لورنس يعيش ـ شاء أو لم يشأ ـ فى قصصه كلها ، وأشعاره ، وينتفض خياله فيها جميعا بملامح تلك الصورة « الخيالية » للاب «المثالى » ، رب الاسرة المثالية الذى ظل يفتقده وهو طفل ثم وهو صبى ، وأخيرا وهو شاب ورجل • ولقد عكس هذه الصورة فى قصته الخالدة « فانتازيا » ثم فى قصته « أبناء وعشاق » •• وهو فى هذه القصة الاخيرة يجعل من بطلها « بول موريل » صورة دقيقة وصادقة للشخص الذى يريد أن يخطو الى عتبات مستقبله وبين جنبيه روح مكافحة وارادة مصممة متحدية •• فلورنس فى هذه القصة يريد أن يجعل من « بول موريل » والدا جديرا بهذا الاسم ، أبا يضطلع بمسؤولية الابوة على أكمل ما ترمز اليه الابوة من معانى الكمال والجلال • انه يريده أبا فى الواقع الحى ، واقع الناس ، لا أبا بالاسم أو اللقب أو الكنية •• أبا تحترمه امرأته ، ولا تجد فيه من العيوب أو النقائص المروعة مايحملها حملا على احتقاره والانتقاص من قدره ، حتى أمام بنيه •• انها قصة المحاولات اليائسة التى حاولها « بول موريل » كى يحطم قيوده التى تضيق عليه الخناق وتشوه فيه صورة الانسان الذى له فكر ، وله مع الفكر هدف فى الحياة يحيا من أجله • ولقد جعله لورنس يحب أمه التى حرمت هى الاخرى سعادة الزوجة التى لها أمل ، وأشفقت أن تفقد معها سعادة الام التى لها عاطفة • أن « بول موريل » هو عند لورنس رمز التعويض ـ كما كان المؤلف تماما ـ فهو يحب أمه حب عبادة ، ويريد أن يجعلها تحس فى ظل حبه لها متعة روحية عميقة ، ينبض لها كل كيانها ، متعة لم تستمتع بها فى ظل حبها الاول الذى قادها الى رباط الزوجية الذى أذلها وحطمها • ولكن هذا الحب المتبادل •• هذه العاطفة « الاموية » الجارفة التى سحقت أمامها كل عرف وخوف وعقبة ، أثارت فى الفتى ـ بطريق عكسى ـ روافد الرغبة الجنسية الثاوية فى أعماقه •• فخلقت منه ، بفضل حرارة هذا الحب الجارف ، رجلا قبل الاوان !

الحب الجنسى للأم !

• ولقد كان « بول موريل » يحس خلال ذلك أنه مسوق الى مصير غير الذى

أراده فى أول الامر .. مصير لو تأمل فيه لاحس من فوره أنه جد عجيب .. ورهيب ! ..

ترى هل يحكى لورنس فى هذه القصة صورة أخرى صادقة لنفسه هو ، ولمشاعره التى كانت تعتلج فى قلبه وصدره نحو أمه ، هذه المخلوقة «الضحية» التى وهبته من أعمق أعماقها ودا وحبا لم تهبهما لزوجها الملحد ، الساخر ، السكير ؟!

ان « لورنس » فى قصته « فانتازيا » لم يكن قد نضج « جنسيا » ، وانما ظهر لنا فى صورة المراهق الذى نضج روحيا ونفسيا فى سن مبكرة ، وفى ظروف قلما تتاح لمن فى مثل عمره . أما « بول موريل » ، فقد ظل عذرى الروح والقلب حتى سن الثالثة والعشرين ، ثم انقلب حبه « الروحى » الذى يكنه لامه الى صورة « غامضة » - وان ظلت تومض بين الفينة والفينة بالوهج - هى صورة الحب الجنسى الذى يحس به رجل سوى نحو فتاة أحلامه ! أتراها صورة أخرى لتلك «العقدة» من عقد الشذوذ ، التى يسمونها « عقدة أوديب » ؟!

ان الذى لاشك فيه أن هذه التجربة التى مر بها « بول موريل » ليست الا مرحلة أخرى من مراحل حياة المؤلف نفسه ، استأنف بها مرحلة حبه الاول الذى كان حتى سن العشرين مطبوعا بطابع روحى متصوف ، لم يقتحم بعد أرض الحقائق الجنسية ليعرف ما وراءها من خبايا وأسرار ..

ومن المشاهد الطريفة التى يرويها لورنس فى هذه القصة مشهد مثير ،للفتى « بول » وقد تمدد على فراشه يشكو مرضا يكاد يسلبه زهرة العمر ، وأمه بجواره ، أدنى اليه من روحه التى تعترك مع غوائل المرض بين جنبيه .. انها ترقد معه على نفس الفراش تغدق عليه الضمات الحارة والقبل النابضة ، وهى ضمات وقبل يزداد عنفها كلما أوغلت حمى المرض فى جسده المنهوك . وفى ذات ليلة ، وقد بلغت حساسية الوعى عنده قمتها العليا ، ارتعش بول وهو يهتف بنبرة أضناها الضعف والالم :

- أماه .. انني أموت !

فرفعته بذراعيها ، لتسند رأسه المحموم الى صدرها الناضج الناهد ، وهى تهمس له بأحلى نغمة عاشت فيها روحها الوسنانة ، نغمة فيها حب أقرب الى العبادة : « أواه يابنى .. ابنى .. ابنى ، انك ستعيش .. من أجلى أنا ! » .. فاهتز كل عصب فيه ، وأحس بنشوة حلوة تسرى فى كل كيانه ، وتكاد تسحق أمامها جيوش المرض .. وملأت صورة هذه الام المنحنية عليه تضمه وتقبله بحرارة منعشة مذهلة ، كل وعيه الظاهر والباطن .. فانبثق من أعماقه احساس جديد لذيذ ، احساس لايشعر به الا رجل ناضج الرجولة نحو زوجته التى يعبدها ، ويريد أن يحيا من أجلها وحدها !

- ٣ -

• **وكان** « لورنس » قد بلغ السادسة عشرة من عمره ،حين مست قلبه بوادر الحب « العذرى » الاول ، التى يثيرها مرأى أول أنثى يلتقى بها الفتى المراهق فى المحيط الذى يشهد كل يوم غدوه ورواحه ، فهو حب الظروف والمصادفة ٠٠ لا أكثر ولا أقل ! ٠٠ وهكذا قابل « لورنس » الفتاة « ميريام » التى كتب له أن يرتبط وجوده بوجودها مدى عشر سنوات ، فقد ظلت ميريام متألقة فى حياته حتى توفيت أمه وهو فى سن السادسة والعشرين ٠

وقد تعرف الى الاسرة الصغيرة السعيدة التى نشأت فيها ميريام ، وأصبح بيت هذه الاسرة بيتا ثانيا له ٠ وكان هذا البيت كوخا ريفيا بديعا ، رغم ذلك الطابع «الحزين» الذى تركه الزمن على جدرانه وسقفه وأسوجة بستانه ٠ وكان هذا الكوخ قائما فى مرج من مروج وادى (ايستوورد) الجميلة بمشاهد دوحها وزهورها ، وغدرانها القصيرة المتأودة الاعطاف ٠ وكان هذا الكوخ يبعد عن كوخ أسرته هو بمسافة أميال ثلاثة لا تزيد ٠٠ وفى هذا المسكن الهادىء ، عش الاحلام الاول ، حيث فتاته الصغيرة « ميريام » ، أحس الفتى « لورنس » بحرية حقيقية ملكت عليه مشاعره ، حرية لاتتيحها الا هذه الحياة الطبيعية الساذجة التى يحياها المزارعون وعمال المناجم فى وادى (ايستوورد) دون ملل أو تكلف أو طموح الى ما وراءها ٠ لقد التقى هنا فى أكواخ المحلة ، وعلى ضفاف الغدران ، وفى ظلال الدوح المهتز لمداعبات الرياح ، بحياة ملؤها الخصب والجمال والشاعرية ، والفطرة الجذلانة الحرة التى لم يفسدها تصنع سكان المدن ونفاقهم وسخفهم !

وكانت غرفة المطبخ فى كوخ هذه الاسرة ــ أسرة مستر ومسز « ليفرز » ــ هى أحب مكان اليه ، حيث يلتهم مع ميريام

شطائر الزبد الساخنة ، ويحدق معها فى نيران الموقد وهى تصلى القدور المختلفة الاحجام بشواظ لهبها الذى لايهدأ ٠٠ لقد أحب هذه الاسرة من كل قلبه ، كما أحب المرج الذى يقوم فيه هذا الكوخ ، حيث تمتد المزرعة المحيطة به الى مدى غير بعيد ٠ انه يحس فى جو هذا البيت جمالا وسلاما يغمرانه بنشوة لم يحسها فى بيته الذى لايحبه الا لانه مقترن فى خياله بصورة أمه ، التى ظلت - حتى مع وجود ميريام - مركز الدائرة لحياته كلها

وكان يسهر مع أفراد هذه الاسرة فى الليالى التى تعول فيها ريح الخريف خارج الدار ، حيث يتجمعون الى مائدة العشاء التى يعلوها مصباح باهت الضوء ، يلتقى بشعاعاته المرتعشة مع وهج الجذوة المشتعلة داخل المدفأة ، فتحس أن المنظر كله قد غدا لوحة حية من لوحات الفنان « تيسيان » ! ٠٠ وفى الايام الجميلة الضاحية ، كان يحب أن يمضى شطرا من النهار - بعد جولة مع ميريام فى أرض الناحية يداعبان خلالها فراشات الحقول - فى غرفة الجلوس ببيتها ، حيث يملأ عينيه بمنظر رف الكتب وأصص الزهور ، وذلك البيانو العتيق ذى اللون الوردى المصقول ، الذى تمر عليه أنامل فتاته فتحرك أوتاره بألحان تلك الاغنيات القروية الساذجة العذبة ، التى تشيع على ألسنة الفلاحين وعمال المناجم وصبية الحقول ٠٠ وبين الفينة والفينة تلتفت ميريام اليه فتلتقى عيناها بعينيه فى



نظرة حلوة آسرة ، لاتلبث أن تعقبها بضحكة رنانة من ضحكاتها البريئة العذبة ، يخفق لها قلب الفتى المبهور !

لقد أحب « لورنس » من أجلها كل مشهد من مشاهد هذه البقعة : أحب المروج التى تزهو بحللها الخضر النضيرة ٠٠ والتلال المهشمة الرؤوس ، الممزقة الحنايا بأغوار وفجوات ٠٠ وأحب أسراب الطيور التى تزقزق لافراخها أو تنوح على أحبابها فى الوطن البعيد ٠٠ أحب كل رفاقه من فتيان الجيرة وفتياتها كأنهم من خاصة أهله الذين يبادلونه حبا بحب ، أحب كل هذه الاشياء التى خلدها من بعد فى قصصه وأشعاره ، وخواطره ، التى أرسلها خلال رحلاته فى ربوع ايطاليا وأمريكا والمكسيك حافلة بالتأملات والصرخات ، والنجاوى العميقة ، التى تكشف دائما عن روح لورنس ومزاجه معا — (وقد أخرج لورنس قبيل وفاة أمه ، كتابه « الطاووس الابيض » ، وهو « قصيدة ٠» هذا الحب الذى جمع الى تعاسته ومرارة تجربته ، ألوانا من نقائض لورانس النفسية ، التى ظلت تتكشف على مر الايام لقرائه وأصدقائه على السواء ٠٠)

أعراض الحب الاول !

◆ **وكانت** « ميريام » فى مثل سنه ، أو تصغره بعام واحد ، عندما التقى بها ٠٠ وقد أقبلت هى بصباها وغرارة نفسها ، وحلاوة أنوثتها ، تحرك فيه كوامن الفتى المراهق ، المشبوب الخيال ، الذى يلتقى لاول مرة فى حياته بفتاة تستطيع أن تلهب وحيه وتغذى أحلامه ٠ وجعلت تطرى مواهبه ، فقد أحست أنها أمام شخص « شاعرى » موهوب ! وعلى مر الايام بدأت تحس بأن عاطفة جارفة تغزو أعماقها وتفتق براعم قلبها الطفل ، فعرفت بسليقة الانثى ، ان هذه هى عاطفة الحب ، وأحست أنها تكن لفتاها هوى عميقا لا رياء فيه ٠ ولم يكن هو قد أحبها بعد ذلك الحب الذى يحسه شاب ناضج العاطفة نحو فتاته ، بل كان يطوى جوانحه على مجرد الاعجاب الحسى بها ، وبالجو العائلى

الهادىء البسيط الذى تعيش فيه .. ذلك أنه لم يكن قادرا نفسيا ، أو حتى عاطفيا ، على أن يحبها ذلك اللون من الحب « الطبيعى » ، المألوف بين شاب وفتاة . فقد كانت هناك أمه التى أقامت من نفسها « وصية » على روحه وعقله ، ومشاعره — كأنه مازال طفلها الرضيع المدلل — لتختص هى وحدها بكل حبه واهتمامه .. ولكن ما أن شعر بأنه « قادر » على أن يحب ميريام كما ينبغى أن يحب شاب ناضج العاطفة فتاته ، وما أن أحس بأنه استرد « حريته » كرجل ، حتى بادر الى اشعارها ، وهو سعيد ، بأنه غدا رجلا ، وأنه يستطيع أن يبادلها حبا بحب .. فان أمه كانت قد ماتت ، وتحطم بموتها قيده الى الابد !

المشكلة الجنسية بين المحبين

• **والحق** أن تاريخ هذه الفترة من حياته تاريخ حافل بمرارته ، وبأشجانه التى تكاد تقطر دما . ففى قصة « أبناء وعشاق » يقص علينا لورنس أن ميريام ، بطبيعتها الصبيانية ، لم تفهمه ! وقد حاول فيما بعد — فى أخريات حياته — أن يحكى قصة هذا الحب ، من وجهة نظره هو ، فجرت على هذا النحو :

« ان كل مافى الامر أننى ألفيت نفسى أسير قدما فى طريق هذا الحب ، وكأن غلالة من دخان تحيط بى ! وكانت هى تعبدنى ، ولكن المأساة ظلت كامنة وراء سحر العاطفة كما تكمن أفعى فى طيات العشب الطرى الاخضر ! **لقد كانت مشكلة « العلاقة الجنسية » هى مأساتنا كلينا . لم تكن لها تجربة جنسية بطبيعة الحال ، ولم تكن لى ، فلم تظفر منى أو أظفر منها بمتعة من هذه المتع الحسية التى يجب أن نقدمها قربانا على مذبح « حبنا » المتبادل . وكنت أجد جسمى يزداد على مر الايام نحولا ، وعقلى يجن أكثر من ذى قبل . وأخيرا حدثت نفسى بأنه لا مفر من أن نكون « عاشقين » ، بكل معنى الكلمة . وتكلمت معها ، ملمحا ، لاعرض عليها هذا الامر . وهيأت هى لى ، بصمتها واستسلامها ، فرصة لحديث أكثر صراحة . وكنت أحس معها كأن مشاعرى الهائجة**

تغلى فى مرجل ٠ ومع ذلك لم يظهر منها أنها تريد أكثر من أن أظهر لها حبى بأحاديث وضـمات وقبل ٠٠ ولا شيء أكثر من هذا ! لقد كانت تعبدنى وتحب أحاديثى وقبلاتى ، وتحس بحب جارف نحوى فى ظل هـذه الملاطفات العذبة ، ولكنهـا لم تكن ترضى أن أنغمس معها فى « الناحية الاخرى » لهذه العلاقة التى تربط بيننا ! وكنت أنا على العكس أهيم هياما باختراق الحواجز التى تحول بينى وبين هذه الناحية الاخرى ! ومن هنا اختلفنا٠ وكنت أنا قاسيا عليها ، حين أزمعت أمرى على هجرها الى غير عودة ، بعد أن يئست منها ! »

لكن لورنس لم يكن صادقا كل الصدق ولا صريحـا كل الصراحة فيما رواه من قصة هذا الحب ، على هذا النحو المؤثر المنمق ٠٠ لكنه فى قصة أخرى ـ هى قصة « عشـيق اللادى تشاترلى » ـ كان أكثر صراحة ، حين كشف جانبا من أسرار علاقته بميريام ، وما اكتنفها من مشاعر وخوالج وانطباعات ٠ أما فى قصته « فانتازيا » فقد كان صادقا وصريحا الى أبعد حد ننتظره من فنان « واقعى » النظرة الى الناس والاشياء والقيم ٠٠ فقد عرفنا فى هذه القصة الاخيرة حقيقة «مأساته» بحذافيرها : وهذه المأساة هى أن لورنس لم يكن ـ أثناء حياة أمه ـ قادرا على أن يحب حبا جنسيا ناضجا ! كمـا انه لم يكن قادرا على أن يعطى أى أنثى من بنات حواء ذلك الحب العاطفى العميق ، الذى بدونه يكون الاتصـال الجنسى مجرد لون من ألوان الضراوة والاغتصاب ، لا بالنسبة للمرأة فحسب ، بل كذلك بالنسبة للرجل ، وعلى الاخص اذا كان رجـلا من طـراز لورنس ، فى حساسيته ، ورقته العاطفيـة ، وشـاعرية خياله ٠٠ الى حد المرض !

آراؤه فى مطالب الجنس

◆ **ومن عجب** أن لورنس ظل طيلة أيام حياته يحاول اقنـاع نفسه ، واقناع غيره من الناس ، بأن كل رغبة جنسية تحمـل

فى أطوائها مبرراتها وشرعيتها ، وان الناحيةالجنسيةالشهوانية، والناحية الروحية الوجدانية ، منطقتان منفصلتان فى كل انسان ٠ ومع ذلك فلم يكن لورنس ــ فى الواقع ــ يؤمن بما يقول ، أو بما يبشر به ، بل كان الذى يؤمن به شيئا آخر ، على نقيض ما دعا اليه أو لوح به فى كتاباته وأقواله ، وأشعاره ٠ أما هذا الشىء الآخر فهو اعتقاده بأن كل رجل طبيعى ، صحيح المزاج والجسم ــ ولورنس لم يكن كذلك ــ وكل امرأة طبيعية ، صحيحة المزاج والجسم ، يتلاقى فى كل منهما الجانبان الروحى والجنسى ، ليتحدا معا ، ولا ينفصل كل منهما عن الآخر ليصارعه ويهزمه ٠ ولقدأعلن هذه «الحقيقة» فى قصته « فانتازيا » ، فهو فيها يؤمن بامكان التجاوب بين هاتين الناحيتين فى الشخصية الانسانية السليمة ، وبسهولة تلاقيهما على غرض واحد ، وهذا التجاوب أو التلاقى ، أو قل الاتحاد الكامل ، كان مستحيلا بالنسبة اليه هو ، الا اذا بعث جسمه ومزاجه بعثا آخر ، وتجسدا فى « صورة بشرية » أخرى !!

فمأساة لورنس مع ميريام ، هى فى الواقع مأساة « البداية الاولى » لتعرفه على الحقائق الجنسية التى تسيطر على أفراد الجنس الانسانى سيطرتها على أفراد الكائنات الاخرى التى تحيا على هذه الارض معنا ٠ وقد ظلت هذه المأساة تلازم خياله وعقله كأنها الشبح الرهيب المريع ، ما بقى من أيام حياته ، ولكنه أخفى هذا الامر بأسلوب الفن الروائى الملفوف ، فى قصة «أبناء وعشاق » ، اذ لم يكن قادرا على مواجهة الحقيقة التى كان يعيش فيها مواجهة كاملة واعية ٠ ومن هنا كانت هذه القصة لاتخلو من ضعف وتناقض يمسان بناءها الفنى فى بعض جوانبه ، وان لم يحل ذلك دون أن ينفذ ، خلال أحداثها المنمقة ، شعاع من الحقيقة ، الحقيقة المستترة التى يعرفها لورنس وحده كما تعرفها أمه وحدها ٠ فهو حين يتحدث عنها ــ وعن نفسه ــ فى هذه القصة ، يقول : « كانت تحمله فى حنان ، وتبثه فى كل

لحظة حبها وشغفها ، وترعاه بكل جارحة تنبض فى جسمها ٠ وقد انقلب هذا الحب فى نفسها ، فغدا ضربا من الغيرة المجنونة العاصفة ، غيرة فقد هو معها حريته وسلطانه على عواطفه ، فلم يكن ـ مع هذا اللون العجيب من الحب الذى تكنه له أمه وتشعره به فى كل لحظة ـ حرا ، أو قادرا على أن يحيا حياته كما يريد ، فى ظل حب آخر يبثه لامرأة أخرى ، غير أمه ! »

ولكن لورنس ، مع ذلك ، لم ينح على نفســه باللائمة حين أخفقت قصة حبه مع ميريام ، بل حملها وحدها اللوم كله ٠ فقد وصفها بشر ماتوصف به امرأة تريد أن تكون خالصة لرجلها الذى تحبه ٠ قال عنها انها كانت معه « باردة العاطفة ، ثلجية الاحساس ، تفر متعمدة من كل ماقد يؤدى بها الى الاستجابة الجنسية معه ـ على أكمل ما يفهمه الرجل السوى الكامل ، من هذه الكلمة ! » ـ وقد يكون فى هذا الوصف بعض الحقيقة ، لا كل الحقيقة ٠ أما الحقيقة بأكملها ، فانهــا تحمل لورنس هو الآخر ، جانبا ملحوظا من اللوم ، بدليل أنه حين تعرف ، فيما بعد ، الى امرأة نارية العاطفة شهوانية الحواس ، كان اخفاقه معها فى هذه الناحية الحساسة ـ الناحية الجنسية ـ مروعا الى حد أذل كبرياءه ٠٠ وأثار هواجسه !

صراع بين الام ٠٠ والحبيبة !

◆ **ومن** هنا ، لم يكن ثمة مفر أمام لورنس من أن يحمل أى شخص ، عداه ، تبعة هذا الاخفــاق المؤلم ، ففى ذلك لون من التعويض ، وخاصة حين يحس أنه يفر فرارا من الحقيقة التى تلاحقه بشبحها الرهيب كلما خلا الى نفسه ! ٠٠ واذا نحن عرفنا أن قصة « أبناء وعشاق » كتبها لورنس عقب وفاة أمه ، حين أصبح يحس أن القيد الخفى الذى ظل يقيــد رجولته ويخنق أنفاس شبابه زمنا ، قد تحطم الى الابد ، وأنه ـ كما ظن ـ غدا قادرا على مزاولة تجاربه الخاصة فى ميدان الاستمتاع الحسى الذى

يليق بشاب مثله فى سن العاطفة٠ اذا عرفنا ذلك أدركنا مدى الالم والاسى اللذين سمما نفسه وأثارا سخطه على النساء كافة، حين اكتشف أول عجز له فى هذه الناحية ٠ ٠ وأدركنا انه كان لابد أن ينحى ـ فى فورة غضبه وسخطه ويأسه ـ باللائمة أشد اللائمة على شخص ما ٠ ولم يكن أمامه فى هذه اللحظة سوى ميريام المسكينة البريئة يهوى عليها بصواعق ثورته العقلية والعاطفية معا ٠ ثم هناك أمه التى لم ينس لها أنها كانت تستغل تأثيرها ، كأم ، على عواطفه ومشاعره ، لتمنعه من أن يهب أى فتاة ذلك الحب المشبوب المتوهج الذى يستغرق كل حواسه ٠٠ الحب الذى كانت أمه ، أيام حياتها ، تعده من حقها وحدها ، لاتشاركها فيه أنثى من بنات حواء !

لقد كان الصراع فى هذه القصة صراعا لا تكافؤ بين أطرافه ٠٠ صراعا بين ميريام وبين أمه ، فهو صراع بين أنثى مجربة خبيرة ، قوية السلطان ، غيورة الى حد الهوس ، وبين فتاة عذراء الروح ، ساذجة ، قليلة التجربة ، خجولة الى أبعد حد يتصوره عاشق ولهان ، يهفو الى اقتطاف الثمار الشهية من جسدها الناضج الريان ٠٠

اذن ، على أى نحو كانت علاقته بميريام ؟

كانت العلاقة بينهما علاقة روحية خالصة ، علاقة قمينة أن تثير فى كل منهما « اهتمامات » الذهن العليا ، وتكشف عن كنوز الروح فحسب ٠ ولكن هل أسعده هذا اللون من الحب « العذرى » وأرضاه ؟٠٠ ان ميريام كانت تسعى بخيال العذراء الحالمة ، وراء حب عظيم نبيل ، حب « مثالى » ، أما لورنس ، فان السعادة فى الحب ـ الحب المثالى ـ لم تكن من نصيبه طوال حياته التى عاشها ٠ فلقد كان يحس أنه ، من الناحية العاطفية والنفسية ، مبلبل مأزوم ، ومن ثم كان ينشد عند ميريام ترفيها « جثمانيا » صريحا ، لعله ينتهى بأزمته النفسية الى خير حل ! أما هى ، فكانت تدهش لحاله وتعجب من أمره ٠ كانت تحاول

أن تفهمه ، وأن تجعله فى ذات الوقت يفهمها ليرقى الى الافق السامق الذى تطل منه روحها الملائكية الحلوة. لقد كانت تنظر اليه فى خلال تلك الفترات العصيبة ، التى تعترك فيها روحه مع حواسه الثائرة ، فتحس أن عينيه الغبراوين قد غامتا بكدرة لافحة تنطق بعذابه الصامت ، فتأخذها شفقة عليه . **ولم تجد آخر الامر بدا من أن تستسلم له لتذيقه المتعة الجنسية التى طالما تمناها ، وكاد تلهفه عليها يبتليه بضرب من « السوداء » الحالمة ، وحين تهيأ له كل شىء ، لم يجد نفسه .. فقد خانته رجولته ؟!**

لقد كان كلاهما ، كما وصف هو ذلك أصدق وصف فى قصته « عشيق اللادى تشاترلى » ، موزع النفس بين رغبة ورغبة ، وعاطفة وعاطفة . فميريام « الملائكية » تناضل من أجل اخضاع جسدها لمطالب روحها الوامقة ، فى حين كان هو يناضل من أجل اخضاع روحه لمطالب جسده الوامق ! وكلاهما قد أساء الى نفسه ، والى صاحبه . ذلك أن « حب » ميريام منى باخفاق مريع ، حين عرفت أن مثلها العليا فى الحب لابد من أن تمرغ فى وحل الغرائز الجسدية الدنيا ، ارضاء للحبيب ! أما حبه هو ، فقد منى أيضا باخفاق أنكى وأمر ، حين عرف أن المحاولة التى حاول أن يجرب بها رجولته ـ فى النطاق الذى أراد تجربتها فيه ـ كانت مأساة ولا كل مأساة ، لها وله !؟

المأساة تتكرر !

◆ **وظل** شبح الحرمان من جسد المرأة يضنيه ويعذب حواسه وأحلامه .. فحين عرف لورنس « كلارا داوس » ، وهى امرأة متزوجة ذات خبرة ونضج كان فى مقدورها أن تمنحه مالم تستطع ميريام ، بسذاجتها وقلة تجربتها ، أن تمنحه اياه ، تكررت « المأساة » ، ولم يستطع أن يظفر بالترفيه الحسى الكامل الذى نشد !



ومع الايام زاد اشتعال حسه، واضطرمت ثورة الحيوان الذى ما زال كامنا حبيسا فى أعماقه ، وتلونت « المشكلة » عنده بلون آخر : انها لم تعد مشكلة امرأة محبة ، على استعداد لان تمنح وتهب ، ورجل عاشق يتلهف على الاخذ والنهل ، بل هى مشكلة البحث الدائم وراء الترفيه الوهمى أو الحقيقى عن جسد هذا الرجل العاشق ، بأى أسلوب وبأية صورة .. وقد تعطى المرأة لمثل هذا العاشق ما يريد ، لكنها تعطى مضطرة ، لا عن حب أو وله ، ولكن استجابة منها لداعى الاشفاق والرثاء فحسب !! وهذا ماكان من أمر لورنس مع سائر من عرف من النساء . وهنا تبدو لنا نقيضة من نقائض هذا الجنس الانسانى الذى ننتسب اليه ، فثمة نقطة معينة ما أن تبلغها أرق الفضائل الانسانية وأندرها ، حتى تنقلب ، رأسا على عقب ، الى رذائل موبقة الى أبعد حد !

ولعل من العوامل التى زادت من حدة المأساة فى حياة لورنس، أنه كان الى آخر يوم من أيام حياته يمقت « فضائله » التى لقنها تلقينا آليا منذ نعومة أظفاره ، وان اضطر اضطرارا ، فى محيط السلوك الاجتماعى ، أن يرعاها ولو على سبيل المداراة . أما فى قرارة وعيه الباطن ، وفى خياله على السواء ، فقد كان يكفر بها كفرانا مبينا حتى لينضح كفره على كثير من أفكاره وعباراته . ولكنه ـ ويا للعجب ـ حين يغشى مجتمعات الناس ، فانه يبدو « لورنس آخر » غير لورنس الروائى الذى عرفوه وخبروه من خلال مشاهد قصصه « الصريحة » المثيرة !؟

- ٤ -

• وماتت أمه ، وهو فى السادسة والعشرين من عمره ، فما الذى يذكره لها؟ بماذا ودعها ٠٠ وماذا كانت أفكاره وخواطره فى تلك الفترة ؟ هل كان يحبها حقا ، حبا أفقده أثمن الاشياء : حريته واستقلاله كرجل ؟ وكيف عاشت هى فى خياله بعد موتها الذى سلبه منها وسلبها منه ؟!

ان الواقع المر الذى عاشه لورنس بعد وفاتها يكشف لنا حقيقة مشاعره ، دون أن يحوجنا الامر الى تفسير أو ايضاح ننتظرهما منه ٠ لقد كانت مشاعره مشاعر رجل تحرر فجأة من قيده ، فالموت وحده ـ موتها ـ حطم وثاقه ليطلق من القمقم « انسانا » آخر ، غير ذلك الذى عرفه ـ هو نفسه ـ فى طفولته ، وصباه ومطلع شبابه ٠٠ ولكن هل خرج بنفسه وبقلبه « سليمين » ؟ نعم ، ولا ! ٠٠ فقد خرج بهما سالمين لقرض الشعر ومواصلة الكتابة فحسب ، لكنهما لم يكونا سليمين كقلب ونفس لرجل يريد أن يحيا الحياة على مألوف ما يحيا الناس حياتهم ٠٠ فثمة رواسب كئيبة ومريرة ، من ذكريات النشأة الاولى ، جعلت تظلل بالسواد هذه النفس الشاعرة ، وتغلف بالضباب الحالك هذا القلب الحساس ٠ ولم تلبث هذه الرواسب والظلال أن انعكست على خواطره التى أرسلها فى شعر يلهث من فرط عذابه وحيرته ، ترنم وعيه الباطن به فى اعقاب الشهر الذى رحلت فيه امه ٠٠ لكنه فى الوقت الذى يخص فيه ذكراها باللوعة والاعزاز ، لايستطيع أن ينسى ، على الايام ، أن أمومتها كانت من نوع شاذ رهيب ، استنزفه واستهلك من عمره خير سنواته طرا ! ان شذوذ هذه « الامومة » قد جنى عليه ، اذ ابتلاه بشذوذ الطباع وغرابة الاطوار وسوداوية المزاج حتى مات !

انه فى بداية الامر يبكيها أحر بكاء ، ويسمعها ـ من وراء القبر ـ صدى فجيعته فيها ، وولولة قلبه الذى ناح عليها بهذه الابيات :

هاهنا ٠٠ تحت هذا الثرى ، ترقد « حبيبتى »

ووجهها المعبر مازال شاخصا الى ٠٠ ينادينى !

وشفتاها ، يا الهى ! مازالتا متشبثتين بتلك القبلة الطويلة ، الاخيرة ، التى أنهت على أثرها حياتها ، هذه الحياة التى ارتبطت أبدا بحياتى ٠٠

٠٠ لكنه حين يخلو الى نفسه قليلا ، ليتأمل على ضوء الواقع حياته ، ويحصى حساب الغنم والخسارة فيها ، يرتد من فوره الى الحقيقة المرة ، فيتذكر مأساته مع ميريام ، ومع غير ميريام ، بل مأساته هو مع نفسه ، فيندفع ساخطا ثائرا ، عاتيا فى سخطه وثورته ، ليحطم كل شىء كان عاجزا من قبل عن تحطيمه ، مادام يعتقد أنه مصدر شقوة له ٠٠ فلنستمع اليه وهو يرفع قبضته ، مهددا ،

فى وجه ذكراها التى تذكره بكل هذه المرارات ، فينسى أنها أمه ولا يعود يذكر الا أنها كانت سجانه وجلاده ! - ولكنه ، مع ذلك ، لايجرؤ أن يوجه اليها هذه الاشعار الساخطة ، لتصفعها صفعة قاسية فى مرقدها الهادىء ، الا بأسلوب ملفوف : فهو يوجهها الى سيدة أخرى أحبها ، ولكنها أحبت أكثر منه أطفالها ، وعاشت بقلب موزع بين أبنائها وبينه هو ، فخرج من حبه لها ، شأنه أبدا ، بصفقة المغبون ، الذى ينطوى على نفسه ، فى صومعة شعره وقصصه ، ليلعق جراحه المسمومة وحده !.. اسمعه يقول لها بلسان شعره - حين أبكاها ، على أحد بنيها ، داع للبكاء - هذه الابيات الحادة الموجعة ، كأنها وخز الحراب :

ونظرت الى عينيك القانيتين ، الفائضتين بأسى مريع دميم !

فحرت ، كيف أدرك أن هذه الدموع الحرار السواجم انما تتلاءلأ بحبات من الملح حادة المذاق ، تأكل فى اللحم وتفريه ..

انه لحمى أنا ، فهى ليست دموعا ، ولكنها ملح أبيض أجاج ، لذاع كلهب ، انه يجعل البشاعة كلها تطل من عينيك هاتين !

أيتها الزوجة ، التى لم تكن لى زوجة ، بل هى مجرد « أم »
لقد تعلمت كيف ألعنك ، وألعن الى الابد أمومتك ..
أنت «ياتمثال» الملح العالق كاللعنة بلحمى
لقد لعنت « الامومة » كلها .. من أجلك وحدك ؟!

آراؤه فى المرأة !

• ومع ذلك ، فهناك من يشك فى أن هذه الاشعار اللذاعة كملح اجاج ، التى أطلقها من وراء وعيه المحموم ، فى فورة سخطه وغضبه ، قد أراد أن يخص بها أمه بالذات ، لينفس عنه بعض مايلعج نفسه وقلبه وعقله جميعا ، حين كان يذكر سحرها عليه ، ومدى جنايتها على رجولته ، وتأثيرها المتغلغل فى مزاجه العاطفى والجنسى . فالواقع أنه يخص بها المرأة عموما : أما ، وزوجة ، وعشيقة !.. المرأة فى أعلى ذرى روحانيتها وتصوفها ، وفى أحط دركات نزواتها وشهواتها . المرأة كملاك طاهر علوى ، ثم كشيطان مريد رجيم .. ؟!

.. وكان أخص مايسخط لورنس منها ، ويثير لعنته عليها ، كانسان وفنان ، هو تلك الانانية الاصيلة التى تتمشى فى طباعها واحساساتها ، وان كانت تضفى عليها ، بضعفها ودهائها ، ثوبا براقا من الجمال والرقة والبراءة ، وهى شباكها الخالدة حين تجتذب اليها الرجل لتحطمه وتضحى به على مذبح روحها وجسدها .. ثم تلقى به رميما وفتاتا ؟!!... فالمرأة تجتذب اليها الرجل ، حين تثيره بفتنة جسدها ورائحة أنوثتها ، لا لتسكب فى سمعه وجوارحه رحيق الحب ، وتشبع - فى جسده الظامىء - حواسه المتحرقة الى الاندماج فى صميم

كيانها الساحر .. ولكنها تفعل ذلك لكى ترضى فيها غريزة الامومة فحسب . ان الاستجابة الجنسية عندها ، لاتعدو أن تكون مرحلة « موقوتة » سريعة الزوال والانطفاء ، لاتمكث فترة تكفى لتأصيل جذور عميقة للعشق الروحى والنفسىوالجسدى جميعا ، تخص به الحبيب الذىأيقظ امومتها وحرك كوامنها .. بعكس ماهو عليه الحال عند الرجل ، الذى يفهم من الاستجابة الجنسية شيئا آخر أبقى أثرا وأرسخ معنى وأعمق جذورا . انه يفهم من معنى الاستجابة أن كيانا برمته ينصب بكل مافيه من وهج الجنس ، فى كيان آخر ليمحى فيه ويزول ، ولكنه محو أو زوال لا يفنيه أو يعصف به ، بل يضيف اليه وينميه !

ان المرأة عند لورنس أنانية بطبعها ، فى حين أن الرجل خلق للايثار بطبعه ، لانه يعيش لمعان أعمق وأبعد مدى من تلك التى تعيش لها المرأة ! انه يعيش ، بسبيل من هذه الاستجابة الجنسية ذاتها ، ليحقق أو يؤكد كيانه ، لا عن طريق تكرار نوعه بالانجاب الآلى ، الذى تنقطع عنده كل غاية له أو هدف أو حكمة نحب من أجلها وجودنا .. بل عن طريق « الحب » ، الحب كفكرة علوية سماوية ، وكحقيقة انسانية أرضية ، بل كغريزة كونية .. الحب بكلا جانبيه : الروحى والجسدى .. الحب الخالق ، الذى يلهم الفن والحق والخير والحسن ، ويقدح فى الارواح والاجساد ، وفى العقول والغرائز ، تلك الشرارة الابدية التى تهيئنا لتذوق كل معنى جميل وخالد فى هذه الحياة !

ان « النوع » عند لورنس هو « كيف » لا « كم » ، والغريزة النوعية مزاج فنى قبل أن تكون ضرورة قاهرة ، تعدم فيه ارادة الانسان ، أو ان شئنا الدقة ، « انسانية » الفنان !! .. وهكذا تنطفىء جذوة الحب - بهذا المعنى العميق الجليل - عند المرأة ، بمجرد أن تنجب وترضى فى ذاتها غريزة الأمومة ! فعندئذ يستوى كل شىء لديها ، ويبهت كل لون ، وينطفىء كل حنين الى أى « كشف » عاطفى جديد ، اذ يكفيها أن تنطوى على ذاتها ، فى نطاقهذه الصورة المكررة منها ، صورة أطفالها ، هؤلاء الاطفال الذين أطفأوا بمجيئهم صورة العاشق والحبيب فى شخص زوجها ، ليستبدلوا بها صورة الشخص « العادى » ، الذى أدى « وظيفته » ولم يعد يحرك فيها ، كأنثى ، نابضة واحدة تنبض فى قلبها أو جسدها بـ « العشق » المضطرم من جديد !

عندئذ يستحيل كل الحب فى قلب الرجل الى كره مرير ، بل الى حقد قاتل ، وقد ينظر الى أولاده ، اذا ماكان مفرط الحساسية ، نظرة شاذة غريبة ، اذ يخيل اليه فى غمرة ألمه وسخطه أنهم « لصوص » صغار ، سلبوه بوجودهم وجوده هو .. فلقد أعطوه لقب الوالد ، وحرموه فى الوقت ذاته من لقب « العشيق » ؟!

القصة التى أثارت انجلترا عليه !

• وفى ظل هذه الافكار الثائرة والمشاعر الصريحة ، أخرج لورنس قصته « قوس قزح » ، التى روع بما جاء فيها « طمأنينة » العقلية الانجليزية وبرودها ! . وكانت هذه العقلية لاتزال محافظة ، تؤثر على خطة التحدى والمناجزة أسلوبا « مهذبا » معتدلا ، يتحاشى التعرض لمسائل الجنس على نحو جرىء صريح ، فى القصص أو الاشعار أو التمثيليات . فعندما ظهرت هذه القصة عام ١٩١٥ ، والحرب العالمية الاولى على أشدها ، لم يكن الانقلاب العقلى والنفسى الذى حملته هذه الحرب للعقلية الاوروبية والانجليزية قد بدت آثاره بعد ، فلم يكن عجبا أن يثور ممثلو هذه العقلية وحماة تقاليدها ثورة عنيفةعلى لورنس ، هذا الذى جاء ليمثل لهم الشيطان فى صورة انسان ، ويعبث عبثا فاضحا بقداسة « قوالبهم » التقليدية التى صبوا فيها أفكارهم وعواطفهم .. فكان أن أثاروا عليه سلطات الامن والقضاء كأنه واحد من المجرمين !.. وبالفعل حوكم لورنس محاكمة بوليسية خلال ذلك العام (١٩١٥) ، وشغلت قضيته الصحف والرأى العام ، كما لم تشغلهما أحداث الحرب الكبرى نفسها ؟!

وغدت انجلترا تمثل فى نظره سجنا رهيبا خانقا .. سجنا يسممه ويسلبه ، لو ظل يحيا فيه ، كل سمات الفنان الاصيل ، الذى يعيش للحقيقة وحدها .. الحقيقة كما جربها هو وذاقها ، وعاش بكل عقله وعواطفه وجسده فيها ! .. ففكر فى أن يهرب من هذا السجن ليتنفس جوا جديدا أنقى ، وأكثر طلاقة .. جوا يؤكد ايمانه بحرية فكره التى عاش يقدسها تقديسه لكل ماكشفه وجاء به من « حقائق » وأفكار للناس ، من كل صنف وجنس وثقافة .. انه فى هذا الجو الجديد سيحيا لهذه الحقائق والافكار ، والقيم .. سيحيا لها وحدها ، وسيكشف للناس عن مناطق جديدة ، مجهولة ، من علم النفس المسربل بالظلمات ، وسيجرب من أجلهم متعا وهاجة ومنهكة ، ولن يهمه اذا كانت استجابته (لهذه المتع) على نحو قوى صحيح ، أو على نحو عاجز متهافت ، فلسوف يصور ادق تصوير وأصدقه ، فى الحالين معا ، كل ماينفعل به وجدانه الباطن ، وكل ماينقدح فى قلبه وذهنه وخياله من حب ونفور ، وعشق ويأس ، ودفء وبرودة ، وتحرر واستعباد ، وفرح وأسى ، وأمل ويأس ،واقبال وادبار !! .. انه ان كتب بأسلوب يتوهج بالشاعرية ، فلسوف يطوعه فى الوقت ذاته لتلك المرونة الوضيئة التى تعكس لقرائه وللناس نفاذ بصيرته ، وقدرته الفذة على تحليل النفس البشرية أدق تحليل وأغربه معا ، بصورة خارقة لم يعهدها الناس فى كاتب من قبل !

اذن فالى أين يذهب ؟!

لم يفكر طويلا .. فهذه ايطاليا الجميلة - بشمسها السافرة الدافئة كغانية حالمة ، مستسلمة لسكرة حلم لا تفيق منه - كانت وما تزال قبلة الفنانين والادباء ، ومهوى أفئدتهم منذ عصر النهضة . انه يريد أن ينفث فى جوها المشرق الحانى كل سمومه التى جرعه اياها ، كرها ، جو الجزيرة الانجليزية البارد المكفهر ! ان عواطفه ، ومشاعره ، وأشجانه ، فى حاجة الى دفء يزيد من ضرامها ، ليزيد فى الوقت ذاته من عمقها ولماحيتها النافذة الى البواطن والحقائق ، الى أقصى قرار ..

ان « الطبيعة » مصدر أصيل من مصادر الهامه ، وهو حين يصف انفعالاته ، بشتى صورها ومشاهدها ، يجعلنا نحس أننا انتقلنا معه الى ذات المشهد الذى تأثر هو به ، لنشاركه الاحساس به والانفعال بكل جزئياته ، كأن المشهد انتقل بحركة مسحورة ، وفى ومضة « كهربية » خاطفة ، الى حيث نقيم أو نجلس ، مهما يكن من ضيق المكان الذى حولنا أو كآبته !!

وايطاليا هى هذه « الطبيعة » .. وهذه « الطبيعة » هى ايطاليا !

رحلته الى ايطاليا .. وسخريته من الانجليز !

• وأراد أن يخلص لحياة الوحى والالهام ، متفردا ، لاشريك له فيها قد ينغص عليه استمتاعه بهذه « الوحدة » الموحية الملهمة ، فكان أن تراضيا ، هو وزوجه ، على أن ترحل وحدها الى ألمانيا التى تتفق ومزاجها .. ويرحل هو ، وحده ، الى ايطاليا التى عشقها قبل أن يراها !

وكانت أوروبا قد استقبلت عام ١٩١٩ وما بعده ، بعد سنوات الحرب العصيبة الرهيبة ، استقبال النهم الذى حرم طويلا من كل ما كان يشبع نهمه .. فكنت تلقى على الوجوه ، وجوه الرجال والنساء ، شبابا وكهولا وشيبا ، تلك اللهفة المشبوبة الضارية ، لهفتهم على النهل من كل شىء والاستمتاع بكل شىء ، فى سورة مجنونة ، كأنما هم فى سورتهم هذه يريدون أن ينسوا مالا يزال عالقا بأذهانهم ، أو راسبا فى قلوبهم ، من مآسى تلك المجزرة المريعة ، التى استطالت أربعة أعوام وعصفت أمام أعينهم بحرمة الحياة البشرية وقداستها

ووطأت قدما لورنس أرض الفن والجمال . وأحس وهو تحت سمائها وفوق أرضها ، أرض التاريخ والذكريات ، أن هذه البلاد - من أقصاها الى أقصاها - تصور لخياله معبدا عظيما جليلا ، متعدد الهياكل والمحاريب ! معبدا لعبادة الله ، لا كفكرة « غامضة » باهتة مجردة ، بل الله مصورا ومتجليا فى كل ماهو جميل ومشرق وفاتن ، فى كل شىء ينبض فوق هذه الارض التى تسبح له بحرارة الحسن ، ووميض الفتنة ، وجلال العشق ، وكأن الكون كله « عشق محض » !

اسمعه يقول : « ان الايطالى رجل جذاب ، جميل ، مرن التفكير والحواس ، لانه يعبد الله فى صورة « اللحم المجسد » ، هذا اللحم الذى خلق الناس منه ٠ اننا ، نحن الانجليز ، نحسده ٠٠ ونحس أننا ، بجواره ، باهتون تافهون ٠ ومن عجب أننا نحس ، رغم ذلك ، أننا أعلى منه وأكثر تفوقا ، ونراه كما لو كان فى أعيننا طفلا ، وأننا بجواره نمثل شابا مكتمل النضج ، راشد العقل ! فهل نحن كذلك ؟ هل نحن حقا أعلى منه وأكثر تفوقا ؟ لقد ذهبنا فى سبيل بحثنا عن وجه الله ، عن الحقيقة الالهية مصدر القوة الخالقة ، مذهبا تجاوزنا معه ذواتنا وحقائقنا الارضية ، اذ مجدنا صورة « الانسان الآلهى » وأحطناها بهالة من القداسة ، نسينا معها ذلك الانسان الحقيقى ، الانسان الارضى ، الذى يسكن فى كيان كل منا ٠ كان هدفنـــا من وراء ذلك أن نبلغ ، بعد طول الدأب والجهد ، انسانية كاملة ، انسانية تستوفى نصيبها من الوعى الكامل العادل ، لا بذاتها ، بل بما وراء ذاتها !! ولقد حصلنا على هذه « الانسانية » بالضغط والاخضاع والخنق ، وأخيرا بهدم ذواتنـــا ٠ وهكذا سرنا قدما فى طريق فتحناه أمام نشاطنا المحموم فى العلوم الروحيـــة والمعارف الآلية والرياضية ، ونظريات الاصلاح الاجتماعى « السطحى » ، دون أن نفتح طريقا آخر ، معه ، لدراسة ذواتنا على حقيقتها ٠ فكان أن أرهقنا أنفسنا فى هذه المحـــاولة ، ايما ارهـــاق ، وتلفتنا لنحصى ماكسبنـــا ؟٠٠ لقد حصلنا على كنوز عظيمة ، لكننا أحسسنا فى الوقت ذاته بعجزنا عن استخدامها لاسعادنا وخيرنا ، فعدنا نتساءل : أى نفع لهذه الكنوز اذن ؟! انها مجرد اشياء تافهة « سوقية » ! ٠ وهنا يهتف من وراء أعماقنا صوت حبيس ، يهيب بنا : هيا نرجع عن هذه المحاولة ، ونرتد عن هذا الطريق ٠ هيا نستمتع بـ « لحمنا » كما يستمتع به الايطالى الذى نحسده ونتعالى عليه فى الوقت نفســـه ! ان الايطالى عابد للجمال مقدس للعشق ، لانه مقدس لذاته غير متنكر لهـــا فى محاولات عقيمة مصطنعة ٠ لكننا نحن الانجليز ـ واأسفاه ـ حين نحاول ذلك ، نصطدم بأسلوبنا التقليدى فى الحياة ، بل بدستورنا نفســـه ، الذى يحول بيننا وبين أن نحيا على غرار مايحيا الايطاليون ! انى أقول أن أسلوبنا لن يبعث فى أعماقنا « الانسان الآلهى » المنشود ، ولن يكشـــف لنا عن وجه الحقيقة الالهية ، لاننا كشعب منحدر من جنس شمالى ، لانؤمن بذلك ! ٠٠ ومن ثم فانه كتب علينا أن نستهلك على الدوام أنفسنا ، بصبها فى « قوالب » الابوة الجامدة لنحيا مستعبدين لأولادنا ما عشنا ، حاسبين بذلك أننا نحيا للمستقبل بوصفه الصورة الرمزية الممثلة فى أبنائنا ، ونحن فى الواقع انما نقضى على أنفسنا ، وكأنما نتلهى بالقضاء عليها ، وبتدمير كل حقيقتنا الجسدية » !

الجسد والروح .. فى فلسفة لورنس !

• وعاش لورنس يجد فى التنقل والترحال من مكان الى مكان ، ومن قارة الى أخرى ، ذلك المتنفس الطبيعى الذى يود أن يلتقى ، عن طريقه ، بنفسه التى أضاعتها انجلترا ! لقد سممته طفلا ويافعا ورجلا ، وحاولت أن تقتل بسمها الزعاف نفسه ، هذه النفس الحائرة المعذبة ، التى ظلت ميدانا عاصفا يصطرع فيه الخير والشر ، المثالية والواقعية ، الروحية والجسدية ، الانسانية الالهية والانسانية الارضية ! وكانت نساء الدنيا من ايطاليات ، وفرنسيات ، وكورسيكيات ، وأغريقيات ، وأمريكيات ، ومكسيكيات ، يمثلن له نماذج طريفة من الجنس الآخر ، كل نموذج منها له « أنوثته » ، ومذاقه الخاص ! ان المرأة أينما ذهب ، تمده بوحى رائع لاينضب ، هو وحى التجربة التى يعيشها بنفسه، ويذوقها بعقله وحسه ، لينقل عنها وحدها حين يكتب أو ينظم ، أو يقص القصص التى كشفت للناس عن نزعاته التحليلية العميقة ، التى تتسم رغم عمق قرارها بتشاؤمها وقلقها ، وسخطها المرير .. على المرأة ، وعلى الرجل .. كما عرفهما فى عصره !

والآن ، ترى ماهو مذهب لورنس ، بعد هذه الطوفة العابرة بحياته وأدبه؟

انه يتلخص فى هذه النظرية : ان الروح الحقيقية ، روح الانسان الكامل ، تحاول أن تكون على وفاق مع الجسد ، لكننا نحن الذين نخنق هذه المحاولة ونميتها بأسلوبنا فى الحياة . ان كل انسان منا يعيش حاملا فى كيانه المهلهل « شقيه » المتنازعين المتخاصمين : شق يعيش فى أقصى اليمين وشق آخر يعيش فى أقصى اليسار . وكل منا يذهب يزعم لنفسه أنه يحيا لمثله الاعلى .. يعيش من أجل اعلاء الانسان الالهى على الانسان الارضى ، داخل كيانه .. لكنه بذلك يجعل عوامل الصراع بينهما دائبة الافناء لهذا الكيان ! .. ولقد عاش لورنس نفسه مثلا فذا لهذه المأساة . انه يقول : « ان الانسان « الروحى » يمقت الانسان الحسى فى ذاتنا . والمؤلم الفاجع فى الامر ، أن محاولة تحقيق كل من هذين الانسانين تحقيقا كاملا ، ليعيشا فى كياننا ، جنبا الى جنب فى سلام ، مطلب مستحيل ! ذلك أن تحقيق أحدهما ، انما هو الغاء للآخر ، وخاصة بذلك الاسلوب الجامد المدمر ، الذى نفرضه اليوم على حياتنا ووجودنا ، فنعيش فى هذا « التوزع » وهذا الانقسام الرهيب كل أيام حياتنا الشقية ! »

وفى العدد القادم ، تقرأ الجزء الثانى والأخير من هذا التحليل الرائع لحياة ومأساة الكاتب الفذ « د . ه . لورنس » ، ولآرائه التى أحدثت دويا هائلا حين نشرها على الناس !

حوافز الحياة



النفس والجنس .. والمجتمع ..

عزيزى القارىء ..

فى هذا الباب قدمت لك فى الأعداد الماضية من كتابى ، الكتب الآتية على التوالى : « كيف تصارح أولادك وبناتك بالحقائق الجنسية » ثم « طريق السعادة الزوجية » و « مركب النقص » و «حواء الجديدة» و « كيف تقهر الخجل » و « كيف تقهر القلق وتستمتع بالحياة »

ثم قدمت لك بعد ذلك من « فنون الحياة » التى شرحها المفكر العالمى « أندريه موروا » : فن الحب ، فن الزواج ، فن الحياة العائلية ، فن الصداقة ، فن العمل ، فن الزعامة ، فن التفكير ، وأخيرا فن الاستمتاع بالشيخوخة ..

ثم قرأت معى فى هذا الباب فصول كتاب « غزو السعادة » لبرتراند رسل .. فكتاب فرويد المشهور « التحليل النفسى »

ثم « الجنس الآخر » ، و « عش حياة ايجابية » ، و « أبواب الحب المغلقة » ، و « فن الحب » ، للشاعر الرومانى أوفيد .. ثم « الانتصار على الخوف » ، للاخصائى المعروف « جيمس بندر » .. و «عش بحكمة تعش سليما» للاخصائى الالمانى « برنارد ديتمار » ثم : « كيف تتجنب متاعب الاعصاب المرهقة » لويلفريد نورثفيلد .. و«كيف تفسر أحلامك » لهربرت هيسبرو .. و « كن متفائلا » لفيكتور بوشيه .. و « تاريخ الغزل » للكاتب الامريكى ا . س . تيرنر

واليوم،أقدملك كتابا يعلمك « كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة » ؟!


HOW TO LIVE
365 Days A Year
by
JOHN A.
SCHINDLER
كيف تعيش
٣٦٥ يوماً فى السنة؟
للطبيب النفسانى الأمريكى الدكتور (جون شندلر)

في سبيل السعادة ٠٠

◆ في مقدمة ألوان الفشل التى منى بها الجنس البشرى ، فشل أبنائه في الوصول الى سعادة وطيدة في هذه الدنيا ٠٠ فلقد عاش في الدنيا ـ منذ خلق آدم وحواء ـ بلايين البلايين من البشر ، ولم يك يشغل بال كل واحد منهم سوى كلمة واحدة ، وفكرة واحدة:«السعادة»!

وفي هذا الكتاب ، يبين لنا طبيب أمريكى ذائع الصيت في ولايات الغرب الاوسط من أمريكا ، كيف نستطيع أن نعيش بغير مرض ، ولا سأم ، ولا خوف ، ولا شعور بالتعب والارهاق وتوتر الاعصاب ٠٠ وهو في هذا يبنى نصائحه على أسس من تجاربه وخبرته ، وماصادفه في حياته العملية كطبيب

فحاول أن تنتفع بتجارب غيرك !

كيف قضيت أيامك الـ ٣٦٥ الماضية ؟

◆ **لكى** تفقه ما أرمى اليه ، سل نفسك : « كيف عشت أيامك ال ٣٦٥ الماضية ؟ » ٠٠ كم من الوقت قضيته خلالها في شغل بالمتاعب والصعاب والهواجس ؟ ٠٠ من المحتمـــل أن لا تكون ايامك الـ ٣٦٥ الماضية مختلفة عن مثيلاتها لدى أى امرىء سواك ، **فمعظم الناس ـ فى هذه الايام ـ يعانون انزعاجا وقلقا ٠٠ ومنهم من تبلغ بهم الهموم الى الحد الذى يختل عنده تفكيرهم ٠٠ وفيهم من يرتضى الخيبة والانطواء ٠٠ وانك لتجد أكثرهم يشكون من انهم « ليسوا على مايرام » ، فهم يحسون بتعب ، وألم ، وامتعاض ، وتعاسة ! ٠٠ ذلك لأن لديهم عشرات من المسائل التى تثير قلقهم ، وتجعلهم ينساقون للهواجس ، والمخاوف ، والانفعالات** ٠٠ ومن هنا تجدهم قد قضوا أيامهم الـ ٣٦٥ الماضية بعيدين كل البعد عن الحياة الطيبة السعيدة ، يتخبطون على مر الايام فى متاعبهم ، ولا يفتأون يتوقعون المتاعب الجديدة فيقلقون لها قبل وقوعها ٠٠ وهذا هو الفشل المؤلم الذى تردى فيه ملايين الملايين من الناس منذ بدء الخليقة ، فقد

أغفلوا أهم ماينبغى أن نتعلمه : كيف نوجه أنفسنا لكى نستمتع بالحياة ؟

ان الحياة البشرية ـ حياتك ـ لا ينبغى أن تمر كما رأينا ٠٠ ومن ثم يعنى هذا الكتاب بتعليم الناس كيف يغيرون أسلوبهم فى الحياة عما جروا عليه فى الـ ٣٦٥ يوما الماضية ، حتى يستطيعوا أن يسعدوا بأيامهم الـ ٣٦٥ القادمة ٠٠ وبكل أيامهم !

انفعالاتك تنتج معظم أمراضك البدنية ٠٠

كثرة الاضطراب فى الحياة = مرضا ناشئا عن الانفعالات

قلة الاضطراب = انعدام المرض الناشىء عن الانفعالات

◆ **الواقع** ان معظم المرضى الذين يعانون من المرض الناشىء عن الانفعالات ، ليست لديهم اضطرابات حقيقية تذكر ٠٠وانما العامل الاكبر فى خلق هذا المرض هو انهم لم يتعلموا كيف يتجنبون الانفعالات الضارة فى المواقف العادية البسيطة التى تصادف المرء فى حياته اليومية ٠٠ وهذا العامل هو السبب فى ٩٠ فى المائة من حالات المرض المترتب على الانفعال !

وأقصد بالمواقف العادية التى تصادفنا فى حياتنا اليومية ، أن نعيش وأن نكسب عيشنا ، ونخوض مشكلات الايراد والمصروف ، وتنظيم الاسرة ، والتغلب على أى شقاق طارىء ٠٠ الخ ٠٠ وما أظننا بحاجة الى القول ان كل امرىء عرضة لان يصاب ـ فى وقت من الاوقات ـ بمرض مبعثه الانفعالات ٠ **ولو انك عرضت نفسك على طبيب حين تكون فى مثل هذه الحال، فان الطبيب ـ فى الغالب ـ لاينبئك بما تعانى ، لأنه يدرك ان المريض لا يفيد شيئا فى العادة اذا قال له : « ليس بك أى مرض ، وانما تعبك جاء نتيجة انفعالاتك » ٠٠ أو اذا قال له : « ان أعصابك هى سر وعكتك » ٠٠ بل ان المريض قد يغضب من الطبيب الذى يصارحه بهذا ، ويلجأ الى طبيب آخر !**

.. ومن ثم فلا بد للطبيب الذى يصر على مصارحة المريض بأن وعكته انبعثت من انفعالاته ، من أن يعقب على ذلك بشرح يبين كيف ان الانفعالات تخلق مرضا ، وكيف ان هذا المرض يتخذ أعراضا بدنية ، وكيف يستطيع المريض أن « يوجه » انفعالاته ليتفادى المرض !.. ومثل هذا الشرح علاج نفسى لا يحسنه الا طبيب نفسى ، والاطباء النفسيون قلة ضئيلة بالنسبة للمرضى المصابين بأمراض الانفعالات .. ومن ثم فان ٩٩ فى المائة من هؤلاء المرضى يتلقون من اطبائهم مايمكن أن نسميه « العلاج البديل » ، وهو يتألف من تقديم « تشخيص بديل » للمرض يرى الطبيب أنه يسهل على المريض أن يفهم منه سبب مرضه ، ويقرنه بتقديم علاج ظاهرى لهذا السبب .. وهذا أيضا لون من العلاج النفسى ، ولكنه لون ضار ، وأسوأ اضراره انه مع الزمن يزيد من سوء حال المريض ،ويجعل مرضه الناشىء عن الانفعالات مزمنا وحادا ..

المرض الناشىء عن الانفعالات مرض بدنى !

◆ **وأصعب** مافى أمر هؤلاء المرضى ، انهم بانفعالاتهم يوحون لانفسهم بأعراض أمراض بدنية وليست نفسية .. وفيما يلى قائمة بنماذج من الاعراض المرضية التى يسببها الانفعال ، وأمام كل منها نسبة حدوثه نتيجة انفعالات :

مظهر الشكوى	النسبة المئوية
آلام فى القفا (ظهر الرقبة)	٧٥
غصة فى الحلق	٩٠
آلام تشبه أعراض القرحة المعوية	٥٠
أعراض كأعراض اختلال المرارة	٥٠
غازات فى المعدة	٩٩ر٤٤
دوار و «دوخة»	٨٠
صداع	٨٠
امساك	٧٠
شعور بتعب يثقل الجسم	٩٠

ويظن الكثيرون ممن لا يفهمون طبيعة مرضهم ، أنهم لذكائهم محصنون ضد المرض الناشىء عن الانفعالات !٠٠ والواقع ان مرض الانفعال يزداد استفحالا كلما ازدادت مسئولية الانسان، وحدة نشاطه الذهنى ، ومقدرته العقلية ٠٠ ولو أن « الذكاء » كان « ذكاء » حقا ، بكل ما فى هذه الكلمة من معنى ، لتضمن المقدرة على تكييف الانفعالات والسيطرة عليها ٠ ولكن الحاصل هو أن أولئك الذين نعتبرهم « أذكياء » هم عادة أقل الناس مقدرة على توجيه انفعالاتهم فى دروب الحياة اليومية المتداخلة المتشابكة ٠٠

وقد خبرت فى الجزء الذى أعيش فيه من بلادى ، **ان أقل الناس عرضة للمرض الناشىء عن الانفعالات هن الزوجات الريفيات اللائى تتألف أسرة الواحدة منهن من تسعة أشخاص أو عشرة ، والتى تساهم فى العمل بالمزرعة الى جانب مهمتها فى تدبير شئون البيت** ٠ فهذا الصنف من النساء يجدن من كثرة العمل ما يشغلهن عن « التفكير » ٠٠ وهن ينهمكن فى رعاية غيرهن ، حتى لا يجدن الوقت لكى يفكرن فى أنفسهن !

الانفعالات « الطيبة » هى خير دواء !

◆ **وكل** الانفعالات ـ اللهم الا واحدا أو أثنين ـ تدخل من حيث التغيرات التى تحدثها فى الجسم فى واحد من قسمين كبيرين :

القسم الاول : يضم الانفعالات التى تؤدى الى تنشيط مختلف أعضاء الجسم فوق الطاقة العادية من النشاط ، وذلك عن طريق الجهاز العصبى لاى عضو أو أى عضل ٠٠ ومضاعفة تنشيط غدة أو أكثر من الغدد الصماء ٠٠ وهذا التنشيط الزائد عن الطاقة يحدث فينا الشعور بالتوعك ٠٠ ومن هذه الانفعالات : الغضب ، والانزعاج ، والخوف ، والقلق ، والحزن ، وعدم الرضى ٠٠

أما القسم الثانى : فيضم الانفعالات التى تحدث ايعازات تفاؤلية معتدلة ، لا هى بالمسرفة ، ولا هى بالضعيفة ٠٠ ومنها الامل ، والفرح ، والتشجع ، والعطف ، والحنان ، والرضى ٠٠

وقد شغل الاطباء – مذ عرفوا الآثار المرضية للانفعالات منذ سنوات – بالانفعالات السيئة ، وأهملوا تأثير الانفعالات الطيبة ٠٠ **فى حين أن هذه الاخيرة هى أكبر قوة تساهم فى توفير الصحة الطيبة ، ولا تعادلها – من الادوية – سوى العقاقير المعروفة باسم « الانتيبيوتكس » كالبنسلين والسلفا ، وسوى العقار المعروف باسم « الاكث » والكورتيزون** ٠٠ بل ان هذه كلها لا تكاد تضاهى الانفعالات الطيبة فى آثارها ، لان فائدة بعضها محدودة ، كما ان لبعضها رد فعل ضار ٠ وليس من سبيل الى توفير التوازن التفاؤلى بين الهرمونات فى جسمك ، الا اذا وفرت له المثيرات التى تنشأ عن الفريق الطيب من الانفعالات ٠٠ اذ لا يمكن لاى طبيب أن يتجاهل مفعول هذه الانفعالات الطيبة ، لانه يرى أمثلة منها فى عمله العادى كل يوم !

وأذكر – على سبيل المثال – ان جراحا فى مصحتنا أجرى عملية جراحية دقيقة ، وموفقة ، أنقذ بها حياة مريض من تورم خبيث ٠٠ ولكنه بعد ثلاثة أيام أبدى لى خوفه من أن المريض يوشك أن يموت – وكانت كل الملاحظات الطبية المسجلة فى التقارير الخاصة بهذا المريض توحى بهذا فعلا – ومن ثم رأيت أن أتفقد حاله ، فذهبت اليه ، واذا به مكتمل الوعى والادراك ، حتى اذا سألته عن حاله ، اغتصب من آلامه ابتسامة ، وقال وفى عينيه وميض التحمس والعزم : « على خير ما يرام ٠٠ لسوف أبرح المصحة بعد أيام ! »

وظل المريض على هذا العزم وهذه الرغبة ، فلم يلبث أن شفى ٠٠ ولو أنه استسلم للقنوط من جراء الظواهر الطبية التى أعقبت العملية الجراحية ، لمات ٠٠

الانفعالات الاساسية .. والانفعالات السطحية

◆ **بقيت** نقطة هامة أخرى لابد من الالمام بها ان شئنا أن ندرك مفعول الانفعالات فينا : تلك هى ان كلا منا يضم فى كل الاوقات درجتين مختلفتين من الانفعالات .. أو ان شئت فقل ان بكل منا طبقتين من الانفعالات : طبقة خارجيـــة يراها كل الناس ، وطبقة داخلية عميقة لا يراها الا من يحسن التنقيب عما وراء المظاهر .. ونستطيع أن نسمى الطبقة الداخليـــة بالانفعـــالات « الاساسية » ، وأن نسمى الطبقة الخـــارجية بالانفعالات « السطحية » .. **فلو افترضنا أنك ارتكبت فى هذا الصباح ذنبا أو جريمة ، وأنك لست مجرما بطبعك ولا سبق لك أن اعتدت الاجرام ، فان الخوف يعروك ، كما يداخلك شعور بالذنب .. وأنت فوق هذا وذاك تتوقع أن يلقى البـــوليس القبض عليك . ومن ثم فانك تظل طيلة الساعات ــ وربمـــا طيـــلة الايام ــ التالية ، وفى نفسك انفعـــال « أساسى » من الخوف ، والقلق ، والانزعاج ، والندم** .. ولابد لهذا الانفعال من مظهر ، ولابد لهذا المظهر من أن يحـدث تغييرا جسميا .. فكل دقيقة تمر وأنت فى قلقك وترقبـــك ، تزيد من توتر عضلاتك ، ومن مضاعفة تنشيط الغدد الصماء .. وهذه هى المظاهر التى تجعلك تشعر بأنك متوعك !

ولقد تمر عليك لحظات خلال هذه الساعات ، ينصرف فيهـــا بالك الى موضوع آخر ، كما ان الانفعالات السطحية قد تقـــوم بلعبة خادعة ، اذ أن بعضها قد يكون فى مظهره مرحا ، أو سارا ، رغم ان الانفعالات « الاساسية » تظل ماضية فى احداث أعراضها .. **فهناك لحظات تبدو فيها لسواك سعيدا ، فى حين أنك تعلم ان الامر فى دخيلة نفسك على النقيض ، لانك تحس بالاعراض المؤلمة .. وقد تشعر بألم فى معدتك حتى وأنت تضحك لنكتة سمعتها !**

ذلك لأن الانفعال « الاساسى » يستمر فى دوره وراء « الكواليس » ، فى حين تتتابع الانفعالات « السطحية » على المسرح فى فترات متعاقبة ٠٠ والانفعال « الاساسى » ماض لا يكف ، ومن ثم فان أثره فى احداث المرض يكون أقوى !

النضوج « النفسى » !

◆ لم يفقه علماء النفس هذا النوع من « النضوج » بأجلى معناه الا من عهد قريب ، فهو القدرة على مقابلة مواقف الحياة بتصرفات أكثر جدوى ونفعا من تلك التى تصدر عن الطفل او الصبى ٠ ولهذا النضوج تسمية أخرى ، هى « الاستقرار العاطفى » أو الاتزان فى الانفعال ٠٠ أما التوتر العاطفى ، أو التوتر الانفعالى ، فهو مايصدر عن الطفل اذا ماواجه موقفا ينطوى على خطر ٠٠ والشخص « الناضج » هو الذى يواجه مثل هذا الموقف فى « اتزان انفعالى » أو « استقرار عاطفى » !

وقد تبين علماء النفس أن الاشخاص المكتملى النضوج جد قليلين ، اذ أن الشخص مهما بلغ من النضوج ، يظل يحتفظ فى شخصيته بناحية يتصرف فيها تصرف الاطفال ٠٠ وترجع قلة عدد الناضجين فينا الى عدم وجود جهد تعليمى أو تربوى منظم لمساعدتنا وارشادنا الى النضوج ، وانما الامر متروك للظروف والحظ !

٧ صفات تحقق النضوج النفسى

تحمل المسؤولية

◆ أولا : الاستقلال فى تحمل المسئولية هو نواة النضوج الاولى ، فلابد من تنمية القدرة فى الشخص على تحمل المسئولية مستقلا عن الاب والام وغيرهما من الحماة ٠٠ سيما وان بعض الآباء ينمون فى أبنائهم عادة الاعتماد عليهم بدلا من الاستقلال عنهم ، فلا يلبث هؤلاء الابناء أن يعانون الصعاب ٠٠ وكم من زوجة هرعت الى أمها وقد حيرتها مسئوليات الزواج !٠٠ وكم من ابن غاظه أن يشعر بأنه لا يكاد يستغنى عن أمه ، فجنح ـ لكى يثبت لنفسه أنه أقوى ـ الى ألوان من الجور تجعله أشبه بـ « البلطجى » ! ٠٠ ومن الناس من يمضون فى الحياة معتمدين على آبائهم وأقاربهم وأصدقائهم ، فاذا فقدوا هؤلاء ، بحثوا عن العون فى الاقبال على الخمر ، وظلوا طيلة حياتهم يعانون المرض المنبعث من الانفعالات

الاعطاء ٠٠ أكثر من الاخذ !

◆ ثانيا : النضوج معناه الاتجاه الى سياسة الاعطاء لا الاخذ ، فمن ابرز

صفات الطفولة الحاجة الى تلقى الرغبات والمشتهيات .. فاذا ما كبر المرء وقد تأصلت فيه هذه العادة ، ولم يعد يتلقى او يأخذ ما يشتهى من سواه ، ظل يرتقب أن يتلقى من الغير كل رغباته ، الامر الذى يقوده فى النهاية الى الشعور بالخيبة والانطواء !

التخلى عن الانانية !

◆ ثالثا : النضوج معناه التخلى عن الانانية والتزاحم ، فالشخص الذى لا يفتأ يقارن نفسه بسواه فى غيرة ، يغدو تعيسا وينمى فى نفسه الحسد ، والكبرياء الضار ، والبغضاء - البغضاء للناس ، التى تدعو الناس الى أن يبغضوه بدورهم ! - ذلك أن للمنافسة أثرها فى الحياة ، ولكنها اذا اشتدت واستفحلت واقترنت بالغيرة الرعناء ، أدت الى خيبة الغرض الذى تهدف اليه !.. ومن العوامل التى تسبب قدرا كبيرا من المرض الناشىء عن الانفعالات - فى ميدانى التجارة والصناعة فى عصرنا هذا - تلك المنافسة التى تحتدم بين اولئك المكافحين الذين يجاهدون للوصول الى القمة ، فتجد مديرى الفروع المحلية فى شركة من الشركات الكبرى ، يكثرون من اللجوء للعلاج الطبى ، لأن كلا منهم ينهك أعصابه لكى يرى مبيعاته فوق مبيعات زملائه ، وفوق مبيعات انداده التابعين لشركات أخرى منافسة !.. ويحدث هذا أيضا فى المصارف والشركات الصناعية، وبالتالى ، نجد أن الساعين لارتقاء السلم فى أعمالهم يعانون من التوتر والصراع، وكثيرا ما يصابون بقرح معوية .. فى حين ان الذين يمنون بالفشل منهم يصابون بخيبة وقنوط وانطواء ، مما يؤدى الى شعورهم بالتعب والخور يثقلان أعضاءهم ، وبنوبات الصداع الطويلة..

السلوك الجنسى الناضج !

◆ رابعا : النضوج فى الناحية الجنسية .. فالسلوك الجنسى يكون مشوبا بطابع « الطفولة » طالما كان مجرد اشباع تناسلى قائم على حب النفس دون ادراك للواقع الذى يتمثل فى أن الناحية الجنسية ليست سوى جزء من فن واسع يتعلق بالتزاوج والمعاشرة . والسلوك الجنسى - ككل شىء يخص شخصين معا - لا يستكمل نضوجه الا حين يقترن باللطف ، والعطف ، والتعاون المشترك .



ويرجع انتشار نقص النضوج الجنسى - الى حد كبير - الى الموانع والحواجز

التى تعوق الاتجاهات العلمية للتربية الجنسية . فان المدارس ، والاسرات ، والكنائس ، لا تتيح للفرد دراسة منظمة لممارسة المسائل الجنسية ، فى سياق حياته العادية . وانما يترك معظم التعليم فى هذه الناحية الى مصادر مشوهة، أو محوطة بالشبهات ، ومن ثم نجد أن الذين يصلون الى درجة النضوج الجنسى قلة ضئيلة ، مع الاسف !

السمو على البغضاء

◆ خامسا : النضوج معناه السمو على العدوان والتباغض فى الحياة العادية . فمن الناس من يرون أن الغضب ، والكراهية ، والقسوة ، والتشاجر ، من مظاهر القوة .. فى حين ان العكس هو الصحيح ، فهى مظاهر للضعف ، وشواهد على الخوف ، والفشل .. والوان لنقص النضوج .

ان الاطفال يعيشون فى عالم يكونون فيه ضعافا - نسبيا - فهم يشعرون بالهيبة ، والاعتماد على الغير ، وعدم الطمأنينة .. حتى اذا عجزوا عن تحقيق رغباتهم ، انقلبت الخيبة الى غضب ، وحب للشجار ، وقسوة اذا استطاعوا القسوة ! وكثير من الناس يتقدمون فى السن ، ويبلغون مرحلة النضوج الجسمى ، دون أن يتغلبوا على هذه الطباع العدائية .. فيظلون قساة مشاكسين ، لانهم لا يفتأون يشعرون بالضعف ، والاعتماد على الغير ، وعدم الطمأنينة .. اذ لم يتعلموا كيف يكونون أقوياء ، فان القوى وحده هو الذى يستطيع ان يكون رفيقا ، رءوفا ..

الواقعية .. وعدم الاغراق فى الخيال !

◆ سادسا : النضوج يقترن بالتمييز بين الحقيقة والخيال . فمن صفات الطفل انه يتقبل الخيال أو الوهم كحقيقة واقعة ، دون أن يحاول أن يفرق بينهما .. على انه اذا نما وكبر وهو على هذه الصفة ، لا يلبث أن يصطدم بكثير من المتاعب والاضطرابات التى تخلق فى نفسه تعاسة وانفعالات ضارة .. وان المرء ليذهل اذا تبين نسبة الشائع من هذا اللون من الوان نقص النضوج ، واذا استعرض ما يترتب عليه من أضرار .. فلقد يعمد سياسى أنانى ، غير أمين ، الى خلق صورة خيالية عن نفسه ، تظهره كقطب لا غنى للبلاد عنه اذا شاءت أن تتجنب الاستبداد .. ومن ثم يقبل الكثيرون من الناخبين الناقصى النضوج على انتخابه ، وقد تقبلوا الخيال على أنه حقيقة فأخلصوا لها !

تكييف النفس تبعا للظروف

◆ سابعا : المرونة والقدرة على تكييف النفس هما أهم عناصر النضوج .. فعند ما تقسو الظروف ، وتهتز الارض تحت أقدامنا ، لا يقينا شر الانفعال الباعث

للمرض والخالق للشعور بالشقاء ، سوى القدرة على التكيف تبعا للظروف ، واجتيازها بشجاعة وجلد ..

و « درجات » النضوج ليست سوى الوان من السلوك والتصرف لا تنبعث فى الناس بالطبيعة والفطرة .. وعليها يتوقف ما اذا كنا نعيش فى سعادة او شقاء ، فى صحة أو اعتلال .. وفى وسع كل انسان ان يفيد من سؤال نفسه : « الى اى مدى نضجت ؟ .. وفى أى النواحى لم استكمل بعد نضوجى ؟ .. وكيف استكمله ؟ » .. وكثير من الناس لا يعز عليهم استكمال النضوج بعد سن الثلاثين او الاربعين أو الخمسين .. بل بعد الستين ! . فمن المؤكد ان أى انسان يستطيع أن يعمد الى معالجة اى نقص فى نفسه فورا ، لو شاء ، ومهما كان متقدما فى السن !

كن عمليا .. وابدأ الآن !

◆ ولكى تبدأ ، لابد لك من فكرة رئيسية تحتفظ بها دواما فى ذهنك وأمام عينك . تلك هى : « سأجعل تفكيرى وتصرفى هادئين وبهيجين ، الآن .. وفورا ! » .. وتشبث بهذه الفكرة نشيطة ، حية ، عاملة ، مهما حدث ، ومهما جد من مواقف .. ثم بادر الى أن تستبدل بالانفعال المرهق غير السليم ـ المشتمل على الخوف ، والاستياء ، والقلق والقنوط ـ انفعالا صحيحا سليما ، قوامه الشجاعة والعزم والابتهاج

ولسوف تجد فى بادىء الامر انك تنزلق الى الانزعاج او القلق والاضطراب ، قبل ان تتذكر ان تقول لنفسك : « سأجعل تفكيرى وتصرفى هادئين وبهيجين الآن .. وفورا » .. ولكن عليك أن تكف بمجرد تذكر هذا العزم ، عن التفكير المزعج الذى يثير الانفعال المرهق ، وأن تعمد الى تفكير هادىء لا يؤدى الا الى انفعالات سليمة طيبة .. وفى وسع كل انسان أن يبتكر طريقته فى هذا الصدد: فمن مرضاى من اعتاد فى المواقف الحرجة البسيطة أن يبادر الى ارسال صفير منغوم من بين شفتيه ، يبعث فى نفسه الابتهاج .. وكثير من الناس يعمدون الى الصلاة أو الدعاء حتى يتمكنوا من أن يسوقوا تفكيرهم وانفعالهم فى تيار قرير ، واذا كنت تجتاز فترة سهلة فى الحياة ، فدع نفسك تستمرىء السعادة ، لان الحياة بهيجة ما دمت تسمح لها بأن تبدى بهجتها ..

بيد أن المواقف الصعبة فى الحياة لا يسهل علاجها بنفس اليسر الذى تعالج به المواقف الحرجة البسيطة : فلو افترضنا ان زوجتك مرضت ، ولم يكن بوسعك أن تساعدها ، فى حين أن أطفالك أصبحوا يعيشون حياة مرتبكة ، فانك لا تلبث أن تنصرف عن عملك لعلاج الموقف .. ولا تلبث أن تمد يدك للاقتراض ثم يلاحقك الدائنون .. مثل هذا الموقف لا يسهل عليك فيه التحول عن التفكير المضطرب الى التفكير الهادىء .. بيد ان ثمة خطوات أربعا تساعدك على التحول :

٤ خطوات لابد منها

◆ اولا : ثابر على الظهور بمظهر المبتهج ما أمكن .. فان قبسا من المرح - مهما ضؤل - يبدد ظلمات المواقف الحرجة

◆ ثانيا : كف عن شغل ذهنك باستمرار بالتفكير فى سوء الحظ ، ولا تدع نفسك فريسة سهلة للقلق ، والانزعاج ، و « الهستريا » .. وقبل كل شىء ، لا تتجه الى الرثاء لنفسك قط !

◆ ثالثا : ارسم خططك بحيث تقلب دائما كل هزيمة الى نصر ، واذكر أن خير النصر هو أن تظل محتفظا برباطة جأشك ، فاذ ذاك تحظى باعجاب الجميـــع ، وبالسعادة فى الوقت نفسه !

◆ رابعا : ارفع هذه الالوية دائما أمام عينيك :

الرزانة ورباطة الجأش : « لنحتفظ بهدوئنا ! »
التسليم بالواقع : « لنتقبل هذه الصدمة بثبات ! »
الشجاعة : « أستطيع أن أقوم بهذا وبأكثر منه !»
العزيمة والتصميم : « سأقلب هذه الهزيمة الى نصر ! »
الابتهاج : « قد تحنى العاصفة ظهرى ولكنها لن تقصمه ! »
اللطف : « سأظل أحتفظ بحسن النية والطوية للناس ! »

١٢ نصيحـــة لمواجهة الحياة

◆ واذا شئت أن تحرز تقدما كبيرا نحو « النضوج » و «الاستقرار العاطفى»، فعليك ببضع تصرفات تلتزمها نحو النواحى الهامة فى الحياة .. وهى النواحى التى يغلب على الناس أن يقابلوها بتصرفات تنم عن عدم نضوج :

◆ ١ ـ تبسط فى الحياة دائما : درب نفسك على اكتساب المقدرة على أن تجد فى الاشياء العادية متعة .. فاذا ساءك شىء فى الحياة ، فلا تجعل الاستياء يلازمك على الدوام ..

◆ ٢ ـ تجنب ترقب المتاعب : فمن أتعس الناس فئة لا يمكن أن تتخلى عن التفكير في أن ثمة نقصا أو خللا فى كيانها . وكم من أفراد أوتوا أجســاما صحيحة سليمة ، ولكنهم ذوو انفعالات معتلة ، توحى اليهم بأنهم ليسوا كما ينبغى . وكثيرا ما ينمى فيهم هذه الحال أن يجدوا من الاطباء من يتهاونون فيقدمون تعليلا « طبيا » ـ وليس نفسيا ـ لهذا الشعور بالتوعك والاعتلال . ومن ثم يجب قبل كل شىء أن تستوثق بأنك صحيح الجسد معافى ، وذلك بأن تعرض نفسك كل عام على طبيب أمين يفحصك فحصا شاملا . فاذا ما أكد لك انك سليم ، وجب أن تطمئن فيما بين فترتى الفحص الى أنك بخـــير .. فاذا انتـــابك ريب فى



صحتك ، فألجأ الى نفس الطبيب ، حتى اذا تبينت أن لا أساس لمخاوفك ، فكف ن التفكير فيها ٠

◆ ٣ - تعلم كيف تحب العمل :
ان العمل ضرورة من ضرورات العيش ، ولكن فى وسعك أن تجعله متعة ، فلا تسىء الى نفسك بالنفور منه ٠ بل ان الاستمتاع به كفيل بأن يبعث فى نفسك السرور والشعور بأنك تنتج شيئا نافعا للمجتمع ، ومن ثم تظل طيـلة وقت العمل شاعرا بانفعالات سارة ٠

◆ ٤ - اتخذ لنفسك هواية طيبة :
فان ممارسة عمل ممتع ، مثير للاهتمام ، فى أوقات فراغك ، ضرورى للشعور بالسعادة فى معيشتك ٠٠ اذ أن الحاجة الى خبرة جديدة ، والى جهد انشائى ابتكارى ، من أهم حاجات النفس البشرية ، ومن الميسور اشباعها بالانصراف الى هواية ٠

◆ ٥ - تعلم القناعة : فمن المؤكد أن الاستياء وعدم القناعة لا يجديان شيئا فى المواقف التى لا سبيل الى تغييرها ٠ وليس من العسير معالجة هـذا الشعور ، بل اذكر أمرين فيما يتعلق بالرضى وعدم الرضى :

◆ (ا) : ان الاسهل - والادعى للسرور - أن تجد عناصر الرضى ، بدلا من أن تبحث عن عوامل السخط فى الحياة اليومية ٠ والحكيم من يعرف أن الحياة لا تخلو - فى طبيعتها - من خيبة اثر خيبة ، ولكنها من الناحية الاخرى ، حافلة بدواعى القناعة والرضى ٠ فلا داعى لان نبالى بالصدمات ، وننسى المسرات٠ بل ان المتاعب من صنعك أنت ، فتجنبها ٠

◆ (ب) : من أساليب التخلص من السخط وعدم القناعة ، أن تكف عن الاشتهاء والتمنى لما فوق طاقتك ٠ فان اشتهاء ما لا سبيل اليه كفيل بأن يقلب الرغبة الى انفعال وتوتر ، كما يخلق فى النفس « عادة الاشتهاء » ٠٠ فكلما نلت أمنية فوق مستطاعك ، تحولت الى أمنية أخرى ٠٠

◆ ٦ - أحب الناس واشترك فى المجتمع الانسانى : ففى هذه الدنيـا التى يعيش فيها الناس متجاورين ، مختلطين ، نجد أن من أفدح الاضرار التى تودى بالاستقرار العاطفى ، أن ننمى فى نفوسنا كراهية لعنصر او لشخص ٠٠ فان من أشد دواعى العجب فى الحياة ان نرى كيف يشعر كثير من الناس

بالكراهية لسواهم ، بل ـ أحيانا ـ لكل فرد !٠٠ فترى البعض لا يتلطفون لاحد ، ولا يجاملون أحدا ، اذ أن نقص نضوجهم العاطفى يجعلهم فى معزل عن الناس ٠٠ ولكنهم رغم ذلك مضطرون لان يعيشوا فى دنيا الناس !٠٠ فلماذا لا يعيشون فى سلام ، فيريحون ويستريحون ؟

◆ ٧ ـ تعود أن تقول كل ما هو سار ومبهج : فليس فى الحياة لحظة لا تغدو أكثر نفعا اذا شابتها فكاهة مستملحة ، أو قول سار ٠ ومن ثم فكلما رضت نفسك على المرح والابتهاج ، استطعت أن تتجنب القنوط والاكتئاب ، والمرض الناشىء عن الانفعال ٠٠ فضلا عن أن الفكاهة تقربك الى نفوس الناس !

◆ ٨ ـ قابل الصدمات بأن تحول الهزيمة الى انتصار ٠ فكثير من الناس ينساقون الى المرض الانفعالى بسبب ضائقة أو نكبة ، اذ يبدو لهم كأنما تلاشى كل ما لديهم فى لحظة واحدة ، فيحسون بأن لا سبيل للمضى فى الحياة ! ومن ثم يضمون الى عبء النكبة كلا من القنوط والهم ٠ فاذا شعرت انك لا تستطيع أن تغير أمرا ، فخليق بك أن تتقبله وترضاه ، وأن تشرع فى التفكير فى خير سبيل ممكنة للمضى فى الحياة ، بدلا من أن تنساق لانفعالات مبعثها الاصلى هو الانانية ٠٠

أفليس حزن الزوج اذا فقد زوجته ـ أو الزوجة اذا فقدت زوجها ـ حزن على النفس قبل كل شىء ؟

احسم مشكلاتك

◆ ٩ ـ واجه مشكلاتك بالحسم والبت : فليس من المعقول ان تواجه المشكلات العديدة التى تصادفك فى حياتك ، بحلول صائبة باستمرار ٠٠ ولكنك اذا اتبعت المبادىء التى اشتمل عليها هذا الفصل ، تجنبت الاخطاء الفادحة ٠٠ فضلا عن أن من الخير أن تعتاد ان تفكر فى الحلول ـ ولو ارتكبت بعض الهفوات ـ بدلا من ان تقتصر على استعراض المشكلات مرارا وتكرارا دون أى حل ٠ فمع اعتياد التفكير وحسم الامور ، لا تلبث الهفوات أن تقل ، ولا يلبث اتجاهك الى درس المشكلات وتقديرها أن يزداد ٠

◆ ١٠ ـ اجعل من لحظتك الراهنة مناسبة ناجحة من حيث انفعالاتك : ذلك ان من واجبك ان تدبر للغد ، ولكن لاينبغى أن تتوسع فى ذلك وتسرف ، اذ من الحماقة أن نظل باستمرار نحمل هم المستقبل وماقد يأتى به ، فانالاكتئاب بشأن المستقبل لن يغير من واقعه ٠ وخير ضمان للمستقبل هو ان تستغل الحاضر خير استغلال ، وأن تحسن دواما استغلال لحظتك الراهنة

◆ ١١ ـ اشتغل دواما بتدبير بعض الامور : فمن الحاجات النفسية الاولية فى كل نفس ، الحاجة الى تجربة جديدة ، حتى لاتظل الحياة متواترة مملة ٠

ومن ثم فان ارتقاب تجربة جديدة كفيل بأن ينتشل المرء ويحفزه على العمل المثمر فى حاضره ..

◆ ١٢ - لاتدع المزعجات تتملكك : ففى كل لحظة يتعرض الانسان لهموم ومثيرات كفيلة بأن تتغلغل فى نفسه .. وخليق بك فى هذه الحال أن تعقد ابهامك وسبابتك فى شكل حلقة تحصر فيها متاعبك ومثيراتك فلا تدعها تتملكك .. ولو انك ثابرت على استعمال هذه « الحلقة السحرية » ، لاستطعت بعد فترة أن توفق الى حصر كل ما قد يصادفك من المزعجات مهما كانت !

٦ - حاجات غريزية يجب ارضاؤها !

◆ **للانسان** العادى ست حاجات - أو رغبات - غريزية ، يشعر فى قرارة نفسه ان لابد له منها ، فاذا لم يحقق احداها ، تولاه قلق ينبعث فى أعماقه ، ويشيع ظلالا كئيبة على كل دقيقة من نهاره أو ليله :

١ - وأولى هذه الحاجات الاساسية هى **الحاجة الى الحب** . ففى دخيلة كل امرىء حاجة الى أن يحظى - من فرد واحد على الاقل - بالحنان والتقدير .. لان ذلك يجعله يشعر لنفسه بأهمية وقيمة ، وبأن له مكانة بين الناس

٢ - أما الحاجة الثانية ، فهى **الحاجة الى الامان والطمأنينة** . وأنت لا تشعر بالأمان الا اذا : (أ) حصلت على دخل كاف للانفاق على اشباع ضرورات الحياة - الآن وفى السنوات المقبلة - (ب) وكان حقك في الحياة مكفولا ، فى حماية حكومة عادلة من النزوات الاستبدادية والطغيان .. (ج) وكنت مطمئنا - الى حد ما - الى انك لن تقع صريع وباء فتاك ، أو نكبة قاضية .. (د) وكان حولك أناس تعرف انهم سيساعدونك فى الملمات . ولما كانت الطمأنينة الكاملة مستحيلة ، فان القلق الذى يستشعره الكثيرون لا يلبث أن يقضى على الطمأنينة النسبية . ففى الدنيا آلاف من الاشياء التى تخلو من الامان ، ومع اننا نحصرها فى ركن قصى من تفكيرنا ، الا اننا لو انسقنا لها لكانت سببا فى

سلسلة من الانفعالات السيئة تظل تتكرر حتى تقودنا الى المرض

٣ ـ وثالثة الحاجات الاساسية هى **الحاجة الى الابتكار :** فالطفل الذى يبنى بالمكعبات أحد الاشكال ، والزوجة التى تعد ستائر جديدة لبيتها ، والمالى الذى يضع خطة شركة جديدة ، والفتاة التى تقرض الشعر ، والنجار الذى يشترك فى بناء دار .. كل هؤلاء يشعرون بالرضى لانهم يخلقون من المواد الاولية أشياء جديدة . ولن يشعر انسان بالسعادة العميقة الا اذا استطاع أن يقوم بعمل انشائى ، سواء فى فراغه أو جده . فان فى طبيعة كل امرىء رغبة فى أن يظهر بين بنى البشر ويبرز ، حتى يحس بأنه يؤدى فى الحياة دورا .

٤ ـ والحاجة الرابعة هى **الحاجة الى الشعور بتقدير الغير لجهود المرء :** فكل انسان يحتاج الى أن يكون فى نظر سواه ذا أهمية ، وأهلا للتقدير والاحترام . والزوجة عادة تقوم بأشق المهام ، ومع ذلك فمعظم الزوجات لايظفرن بكلمة تقدير . ومن ثم فمعظم التعب والملل الذى تعانيه فى عملها المنزلى انما ينبعث مباشرة من حاجتها الى ان تلقى شيئا من العرفان ..

٥ ـ أما الحاجة الاساسية الخامسة ، فهى **الحاجة الى تجارب وخبرة جديدة :** فان الانسان لايمكن أن يعيش فى حياة تسير على وتيرة واحدة دون أن يتعود التكرار الرتيب للانفعالات السيئة ، ودون أن يعانى المرض الذى يترتب عليها . ولكن أدعى الاعمال الى السأم يغدو محتملا اذا مافكرنا فى تجربة جديدة مرتقبة . واليوم الذى يبدأ دون ما أمل فى تغيير واحد، يكون من أسوأ الايام ، من الناحية الانفعالية . بل ان مجرد تغيير الطريق التى اعتدت أن تسلكها ، أو الاندماج في حديث مرح مع أحد الاشخاص ، هو فى ذاته تغيير وتجربة جديدة تخفف من وطأة التواتر الممل

٦ ـ وسادسة الحاجات الاساسية هى **الحاجة الى تقدير المرء**

لنفسه : فكل امرىء في حاجة الى أن يحسن الظن بنفسه ـ مهما كانت الاحداث منطوية على الخيبة أو الفشل ـ لكى يستمد الشجاعة على المضى قدما ٠٠ وكل امرىء قادر أن يجد فى نفسه ناحية تدعوه الى الرضاء عن نفسه ٠٠ ولكن فى الدنيا كثيرين ممن يفقدون كل تقدير لانفسهم ، فنرى الواحد منهم يعتبر نفسه فاشلا فى كل شىء ، ومن ثم تقعد به الهمة عن المحاولة ، ويحس بأن لا مكان له فى الحياة ، ولا مستقبل ٠ وهذه الفئة من البشر هى أتعس البشر جميعا !

كيف تحصل على حاجاتك الاساسية

◆ **استعرض** ماتوفر لديك ـ أو ما لايزال ناقص الاشباع ـ من حاجاتك النفسية الاساسية الست ، السالف ذكرها ، ثم سل نفسك : أترانى ، فى حياتى الخاصة ، أحظى بحب الغير ٠٠أم اننى وحيد منبوذ ؟ ٠٠ هل أنعم بالامان ، أم اننى فى خوف على أمورى المالية ، أو عملى ، أو مركزى الاجتماعى أو القانونى ؟٠٠ هل أبتكر وأجدد فى عملى وهواياتى ؟٠٠ هل أظفر بالتقدير من انسان آخر ؟٠٠ هل أرى احتمال الاقدام على تجارب جديدة ؟٠٠ هل أقدر نفسى واعتد بها ؟٠٠ الخ ٠٠ ولتكن صريحا للغاية فى اجاباتك :

١ ـ فاذا لم يكن فى حيـاتك من يحفل بك بوجه خاص ، فخير مايعوضك عن ذلك أن تمنح حبك لمن هم حولك ، وأن تفعل لهم ماتحب أن يفعلوه لك ٠ فمن دعائم النضوج النفسى أن تستطيع أن تعطى أكثر مما تأخذ ، ولسوف تجد متعةوارضاء فى حبك للغير واسداء الخير اليهم

٢ ـ اذا كنت تفتقـد الامان ، ففـكر فيما ينبغى أن تفعله ازاء هذه الحال ، وفكر فى قرارك مرارا ، فاذا وجدت ان لاسبيل الى مضاعفة طمأنينتك ، فاقنع نفسك بأن لا جدوى من أن تضيف الى حالك عبء الهم والقلق

٣ ـ اذا كان يعوزك الابتكار والتجـديد ، فانهمك فى عملك ، وحاول أن تفعل أى شىء تتمنى أن تفعله ولكنك تتوانى وترجئه ٠٠ أو اذهب الى أقرب مدرسة لتتعلم فيها فنا من الفنون الابتكارية

٤ ـ أما اذا كان ينقصك تقدير الغير ، فاقنع نفسك بأن لديك مايعوضك عنه ، وهو شعورك بأنك تعمل لخير غيرك من الناس ، ماوسعك ذلك ٠٠

٥ ـ واذا شعرت بأن تيار « الروتين » والحياة الرتيبة يوشك أن يجرفك ، فاقدم على تجربة جديدة ٠ وفكر باستمرار فى وضع الخطة لتجربة جديدة ٠٠ اشتر شيئا ، أو اعمل شيئا يستثير اهتمامك ، أو اختلط بسواك ، أو التحق بهيئة ما ، أو اذهب الى مكان ما ٠٠

٦ ـ واذا كان تقديرك لنفسك فى انخفاض وهبـوط ، فتذكر أن أكثر العظماء كانوا أفرادا بسطاء مغمورين مثلك ٠٠ ثم ابتسم للمستقبل !٠٠ واقرن السيطرة الواعية على أفكارك بالعمل فى سبيل ان تضع الرصانة ، والشجاعة ، والعزيمة ، والابتهاج ، مكان المشاعر والانفعالات المرهقة التى تتمثل فى الفشل ، والشعور بالخيبة ، والقنوط ٠٠ **فأنت ، وأنا ، مثل أولئك العظماء ، وفى وسعنا أن نبلغ مابلغوه ٠٠ لو شئنا !**

هوجو تولستوى

مطبوعات كتابى

تقدم لك فى أعدادها القادمة

مجموعة منتقاة من شوامخ الكتب العالمية ، لأشهر المؤلفين، مترجمة عن شتى اللغات ، بأقلام أقدر المترجمين ..

انها السلسلة العربية الوحيدة التى تضع بين يديك الترجمة « الأمينة » الكاملة لأعظم ما أنتجه الفكر الانسانى فى جميع العصور .. فى طبعات ثمينة الجوهر ، فاخرة المظهر ، زهيدة الثمن !

ديكنز روسو

الحياة قصة



روائع القصص العالمي

عزيزى القارىء ..

قرأت معى فى الاعداد الماضية قصص: ◆ أموك : لستيفان زفايج ◆ قلب عذراء : جون جالزورثى ◆ مرتفعات وذرنج : اميلى برونتى ◆ التلميذ : بول بورجيه ◆ أحدب نوتردام : فيكتور هوجو ◆ جريمة حب : بول بورجيه ◆ جين اير : شارلوت برونتى ◆ أيام بومباى الاخيرة : لورد ليتون ◆ مانون ليسكو : الاب بريفو ◆ حديقة الله : روبرت هتشنز ◆ عندما تحقد المرأة : جورج أونيه ◆ آسيا : ايفان تورجنيف ◆ كاس تمبرلين : سنكلير لويس ◆ الشيطان على الارض : برتراند رسل ◆ رسالة من مجهولة : ستيفان زفايج ◆ الحب الاول : تورجنيف ◆ تاييس : أناتول فرانس ◆ بلاد العميان : هـ ٠ ج٠ ويلز ◆ نادى الانتحار : روبرت لويس ستيفنسون ◆ كوخ العم توم : هاربيت بيتسر ستو ◆ الزوج والعشيق: سومرست موم ◆ البوهيمية : هنرى مرجيه ◆ فتاة لها ماض : بول بورجيه ◆ شيرى : كوليت ◆ الجريمة والعقاب : دستويفسكى ◆ لحن كرويتزر :تولستوى ◆ أميرة مصر : جورج ايبرز ◆ الامطار: سومرست موم ◆ افروديت : بيرلويس ◆ جيجى : كوليت ◆ الشيطان فى الجسد : ريموند راديجيه ◆ ليبوريللا : ستيفان زفايج ◆ كانديد : فولتير ◆ أشجان فرتر : جيته ◆ فرانشسكا : موباسان ◆

واليوم ، أقدم لك درة من روائع الأديب الرومانتيكي «الفريد دى فينى»



الفريد دى ڤينى

لوريت



قصة صراع بين العاطفة والواجب !

المؤلف

• ولد « الفريد دى فينى » فى (لوش) ، باقليم اللوار الفرنسى ، فى ٢٧ مارس عام ١٧٩٧ ، من أب وأجداد عسـكريين ٠٠ فلما بلغ السادسـة عشرة ، انضم بدوره الى الجيش ، حيث عاش ١٢ عاما فى الثكنات ٠ وفى تلك الأثناء أخرج ديوان شعره الأول فى سن ٢٥ ، ثم قصته النثرية الأولى فى سن ٢٩ ٠٠ وقد عاش زمنا فى انجلترا وأتقن الانجليزية ـ حتى لقد ترجم مسرحية « عطيل » ـ وفى سن ٣١ تزوج من انجليزية تدعى « ليديا بنبرى » ٠٠ وحين ظهر المذهب الرومانتيكى فى الأدب ، حوالى عام ١٨٣٠ ، كان « فينى » فى مقـدمة أقطابه ، فكتب للمسرح ، وكتب القصة الطويلة ٠٠ وقد أصدر قصته التالية الرائعة فى سنة ١٨٣٥ ٠ وبعد عشرة أعوام انتخب عضوا فى الأكاديمية الفرنسية ٠٠ وقد عاش أكثر حياته معتزلا فى « برج عاجى » ، حتى مات فى باريس فى ١٧ سبتمبر عام ١٨٦٣

١ ـ لقـاء على الطريق الكبير

• **كان** طويلا حزينا ، كاسف الرواء ، ذلك الطريق العجيب الذى تخيم عليه سكينة موحشة ـ طريق (أرتوا ، والفلاندر) ـ فهو يمتد فى خط مستقيم ، لا شجر فيه ولا أسوجة ، مخترقا أبسطة خضراء من ريف متشابه الصور !٠٠ ثم انه طريق تفرد بلون اديمه ، اذ تكسوه دائما طينة صفراء ، لايتبدل لها لون ، على مدار العام ٠٠ وقد كان اختراقى له ، أو بالأحرى دروجى على أديمه الزعفرانى ، فى يوم من أيام مارس عام ١٨١٥ ، حين صادفنى لقاء لم أنسه قط ، وماكان لى أن أنساه ماحييت !

كنت وحيدا ، ساهم الفكر ، أحس أنى مشدود كالرمح الى صهوة جوادى الأشهب ٠ أحتمى من قسوة الجو بمعطف أبيض لا بأس بجدته ، وتحت المعطف سترة عسكرية حمراء اللون ، وفوق رأسى قبعة من فراء أسود ٠ وكانت معى غدارتى محشوة بطلقاتها ، والى جانبى يتدلى قائم سيفى الكبير ٠ ولا زلت أذكر أن المطر كان يتساقط فى سيل متصل ، والحق أنه كان ينهمر منذ أربعة أيام وأربع ليال حالكة ، ضربة النجم ، ولكن خطانا،

فى سيرنا وسرانا ، ظلت تتلاحق دون توان أو تمهل · ومازلت أذكر أنى كنت ، وأنا أعبر هذا الطريق الحزين ، أغنى بملء صوتى « لحن جوكند » ، لعلى أبدد قليلا من وقع وحشته على مشاعرى ··

يالله ! لكم كنت اذ ذاك شابا تتدفق في حنايا جسمي حرارة الحياة ·· وكان قصر الملك فى تلك الحقبة ، أى فى أخريات عام ١٨١٤ ، حاشدا بالكهول والصبية · لم يكن ثمة شبان فى سن العاطفة ، كأنما أخذ الامبراطور كل شباب فرنسا من الرجال ليذيقهم طعم المنون فى معركة واحدة ، فلم يبق لفرنسا غير الكهول والصبية !

وكان رفاقى من الجنود يتقدموننى على الطريق ، فى ركاب الملك لويس الثامن عشر ، وكنت ألمح من خلال غبشة الشتاء معاطفهم البيضاء وهى تلمع كالثلج ، وستراتهم العسكرية الحمراء وهى تتوهج كالشرر · لقد كانت تتراءى لى كأنها الاطياف السابحة فى الافق البعيد ، تجاه الشمال ، فى حين كان فرسان « بونابرت » يراقبوننا مراقبة من يطاردنا فى فرارنا أو يلاحقنا فى الطريق الى « المجهول » ، خطوة خطوة ·· وهم فى خلال ذلك يلوحون من وقت لآخر بالاعلام المثلثة الالوان ، التى كانت تخفق فى الجانب الآخر من الافق كالأجنحة فوق مزاريقهم ··

وكان جوادى قد فقد احدى سنابكه ، فعاقه ذلك عن الاسراع ، رغم أنه كان يافعا قويا ، ولكنى حملته حملا على الركض لأستطيع اللحاق بفرقتى ، فما راعنى الا وقد انطلق فجأة ينهب الطريق فى خبب سريع · وكنت قد تحسست بيدى وشاحى ، وكان وشاحا أنيقا مطرزا بالذهب فى توشية بديعة ، وأنا فى خلال ذلك أنصت الى صليل الغمد الحديدى لقائم سيفى ، فأحس بالتيه وبالسعادة يغمران نفسى ··

وظل المطر ينهمر ، وأنا أغنى ، ولكن سرعان مالذت بالصمت

العميق ، اذ أضجرنى أنى لا أسمع سوى صوتى الذى ذكرنى بوحدتى فى هذا المكان الموحش ٠٠ ولم أعد أسمع سوى زفيف المطر ووقع أقدام جوادى وهو يخوض الاوحال فى عزم وجلد ٠٠ وفجأة انقطع الجزء الممهد من الطريق ، فتعثرت ، وكان على أن أترجل ، وما ان فعلت حتى كان حذائى الضخم قد انغمر بدوره فى طبقة كثيفة من الطين الأصفر ، فى حين امتلأ جوفه بماء الأمطار الهامية ٠ وحانت منى التفاتة الى شارات كتفى الذهبية ، الجديدة ، وهى كل متعتى وعزائى ، فساءنى أن رأيت حبات المطر قد انتثرت عليها ٠ ونكس جوادى رأسه ، ووجدتنى أفعل كالآلة مافعل ، اذ أطرقت بدورى مفكرا أسائل نفسى للمرة الاولى أين أذهب وأين أتجه ، بل أين أقف لاحتمى من هذا الوابل الهادر ؟!

كنت لا أدرى حتى تلك اللحظة شيئا من معالم الاقليم الذى اخترق أحشاءه ٠ غير أن هذا الامر لم يشغلنى طويلا ، اذ كنت على يقين من أن فرقتى حيثما كانت ، أو كان ميدان سعيها ، فان الواجب يملى على ، كجندى يعبد فضيلة الطاعة ، أن أكون ألزم لها من ظلها ٠٠ ولما كنت أحس اذ ذاك طمأنينة عميقة تغمر فؤادى ، فقد رددت الفضل فى اثارة هذا الاحساس فى نفسى الى تلك العاطفة التى جلت وتجل حقا عن الوصف ، أعنى عاطفة الواجب التى جعلتنى أبدىء وأعيد فى شرح مبادئها وأصولها لنفسى ٠٠ وها أنذا أرى عن كثب كيف يحمل العسكريون ، شيبا وشبانا ، فوق رؤوسهم الشقراء والبيضاء، أهوالا من المشاق المضنية ، لا يقدر على حملها سواهم ٠٠ فلقد رأيت كيف يغامرون ، فى شجاعة الفرسان المقدامين ، بكل ماقد يكون لهم من مستقبل فى الحياة أو حظ فى فسحة العمر يهيىء لهم مناعم العيشة السعيدة الراضية ، التى هى أمل كل كائن حى ٠٠

واذ تأملت نفسى مليا ، وقد ظفرت بحظى من هذه المعيشة

الراضية ، وخاصة اذا كان المرء قد وفى بكل دين من ديون الشرف كان يثقل عنقه ، أحسست بل أدركت أن التضحية بالنفس شيء أيسر وأعم ، بل أعمق مغزى ، مما نظن ! ٠٠ ثم مضيت أسائل نفسى : هل التضحية عاطفة تولد معنا ؟ وماهذا الذى يشعر به المرء أحيانا من حاجة الى الطاعة ، والى أن يسلم زمام ارادته الانسانية الى أيد غير أيديه ، كأنما يحس أن حمل هذه الارادة ، أو القوامة عليها ، ثقل يبهظه وعبء يعييه؟!

٠٠ على هذا النحو كنت أفكر ، وأنا أسير على هوى جوادى ، أستطلع الزمن حينا بالنظر الى عقارب ساعتى ، وأمد البصر أحيانا فى هذا الطريق الذى يمتد فى خط مستقيم ، خاليا من الرواء ، لا شجرة فيه ولا بيت ٠٠ ولا كوخ ! كنت أراه على مرمى البصر وكأنه شريط زعفرانى طويل طويل ، يقطع كحد السيف جانبى السهل حتى يبلغ الافق ٠٠ وكان هذا الخط الأصفر فوق تلك الرقعة الرمادية الشاسعة ، تضيع معالمه أحيانا ، فأحسبه قد تحلل وضاع فى الارض المائعة التربة التى تحيط به ٠٠

وفيما كنت أرنو منتبها الى امتداد هـذا الشريط العجيب الأصفر ، وقد علقت كل حواسى به ، **اذا بى ألمح في ضحوة النهار الشاحب ، وعلى بعد ربع فرسخ من مكانى ، نقطة صغيرة سوداء ، تتحرك ٠٠ ياالله ، انها تسير ٠٠ ان شيئا حيا سوف يؤنسنى اذن فى ظلمات هذه الوحشة التى تستهلك أعصابى ٠ لقد أحسست بالسرور يهدهد مشاعرى ويرقص قلبى بين ضلوعى ٠٠ وطفقت أحد النظر فى تلك النقطة السوداء ،لاأحول عنها عينى ، فرأيتها تسير مثلى ، فى اتجاه مدينة (ليل) ، وقد حدست من تعرج خط سيرها أنها تعانى مشقة ظاهرة ، من وعورة الطريق ٠٠**

وحثثت الخطى ، كيما اقطع الطريق لابلغ ذلك الشيء الغامض غموض السر والسحر ، فاذا بى أرى الطريق يستطيل أمامى

ويمتد أكثر من ذى قبل • وخفت أن يكون ذلك من قبيل وهم الحس الذى يتلاعب بوعى المرء كلما وجد نفسه وحيدا فى مكان موحش •• ولكنى طردت الوهم فى اصرار عن نفسى ، واعتدلت فوق صهوة جوادى ، ودفعته على أرض أصلب وأكثر تماسكا ، فاذا بى أتبين بعد قليل هذا الشىء الصغير ، وكأنه عربة سوداء •• وأيقنت وأنا أدانيها بجوادى الراكض ، أنها بالفعل عربة ••

وكنت اذ ذاك جائعا مبترد الأطراف ، فراودنى الأمل أن تكون هذه العربة بمثابة المقصف الذى أستطيع أن أستوفى عنده حق جسمى الذى أنهكه الضنى والجوع والعطش ، وكأنى بالجواد المسكين الذى امتطيه زورق نحيل فى خضم بحر لجى ، وقد دفعته بمجذافى « ساقى » جهد ما أستطيع ، حتى يبلغ بى هذه الجزيرة السعيدة التى غدت لى أملا مضيئا فى ظلمات ذلك البحر الذى يغوص فيه جوادى ، أعنى زورقى ، أحيانا الى بطنه !

•• حتى اذا كنت على بعد مائة خطوة من هدفى ، تبينت مركبة صغيرة من خشب أبيض ، يكسوها مشمع أسود ،فكأنها المهد الصغير الذى ركب على عجلتين قد غاصتا الى محوريهما•• وكان يجر هذه العربة بغل صغير أمسك بزمامه رجل يقوده ، وهو سائر على قدميه بجواره فى مشقة وجهد •• ودنوت من الرجل وأنا أسدد اليه نظرات فاحصة • كان فى نحو الخمسين من عمره ، أبيض الشارب ، قويا جسيما ، لكنه كان محدودب الظهر ، شأن ضباط المشاة الذين كانوا يحملون الحقيبة على ظهورهم ـ اذ كان هو الآخر يرتدى زيهم ، ويلمح الناظر على كتفيه شارات قائد الفرقة تكاد تبين من تحت معطف قصير قديم ، نصل لونه الازرق ـ أما وجهه فكان صارم القسمات ، وان بدا مع ذلك طيبا سمحا • أوه ، ما أكثر ما نلتقى بمثل هذا الوجه فى الجيش !

ونظر الرجل الى شزرا من تحت حاجبيه الأسودين الغزيرين، ثم التقط فى خفة بندقية من عربته حشـــاها وهو ينتقل الى الجانب الآخر من بغله الصغير ، كأنما ليتخذ منه درعا ! ولكنى ما ان رأيت شارته البيضاء حتى سرنى أن أريه كم سترتى الأحمر ، فاذا هو يعيد البندقية الى العربة ، قائلا : « آه ! ان الأمر اذن على غير ماظننت . لقد حسبتك من هؤلاء الأرانب الذين يجرون أبدا وراءنا ، هل لك فى جرعة من الشراب ؟»

قلت ، وأنا أقترب منه : « أوه ، لكم أكون مسرورا لذاك ، فما شربت شيئا منذ أربع وعشرين ساعة !»

وكانت تتدلى من رقبته ثمرة من ثمار جوز الهند ، أتاحت لها الصناعة الماهرة أن تتحول الى قنينة ذات رقبة من فضة ! وقال رفيق الطريق وهو يجرع منها : « فى صحة الملك ، لقد ضمنى الى ضباط « فرقة الشرف » ، فمن حقه على اذن أن أتبعه حتى الحدود . ولما كنت لا أعرف لى سبيلا الى الرزق سوى رتبتى فى الجيش ، فسأقود كتيبتى بعد ذلك ، فهذا هو واجبى الذى لن أحيد عنه .. »

وفيما كان يحدثنى بلهجة من يخاطب نفسه أكثر مما يخاطب غيره ، وكز دابته ليحثها على السير ، وهو يخبرنى أن ليس لنا من الوقت ما نضيعه فى التلكؤ . ومع أننى كنت أرى فى تلك اللحظة رأيه ، الا أننى تابعت طريقى متمهلا ، لأظل على قيد خطوات منه .. وكنت أنظر اليه طوال الوقت ، فألاحظ صمته الدائم ، وكذلك كنت بدورى ملتزما جانب الصمت ، فما كان من خلقى ذلك الطبع المتفشى بيننا ، نحن الفرنسيين ، من ثرثرة وخفة لسان ..

وقطعنا ربع فرسخ صامتين لانتحدث فى شىء ، حتى اذا وقف هو ليريح دابته المنهوكة من وعثاء الطريق - وكنت أرثى لحالها فى قرارة نفسى - وقفت أنا بدورى أحاول أن أفرغ حذائى من ماء المطر الذى امتلأ به . لقد غدا الحذاءان أشبه بمستودعين

ثقيلين من ماء عكر ، انغمرت فيهما قدماى ! ٠٠ وسمعته يهتف فى نبرة تهكم خفى : « هاهما نعلاك يصبحان جزءا من قدميك ، لقد التصقا بهما تماما !»

فرددت قائلا ، وأنا أرمقهما بنظرة ذكرتنى بكل أهوال الرحلة : « لا تعجب ! فقد أنفقت حتى الآن أربع ليال لم أخلعهما فيها !»

وعقب هو فى صوت مبحوح : « لا عليك ٠٠ انك لن تفكر فيهما حتى تمضى أيام ثمانية ٠٠ لله ماأقسى أن يكون المرء وحيدا، وعلى الأخص فى أحوال كهذه ! »

وأردف يقول فى نبرة راعشة : « **أتعرف ماذا لدى هنا فى هذه العربة ؟** »

وأجبت غير حافل : « لا ٠٠ »

فقال هو فى صوت له عمق هذه الوحشة التى تسود المكان حولنا : « **انها ٠٠ امرأة !** »

وانفرجت شفتاى عن لفظة « آه » ، فى غير كثير من الدهشة! ثم تابعت سيرى هادئا ، وتابع هو خطاى ٠٠ وبعد قليل سمعته يقول : « ان هذه العربة لم تكلفنى كثيرا ، لا ولا البغل أيضا ٠٠ انهما كل ما يلزمنى فى رحلتى ، وان طال الطريق وغمض المصير !»

وهنا عرضت عليه جوادى ليركبه ، ان أدركه التعب ٠ ولما كنت أتحدث اليه فى لهجة لا أثر للسخرية فيها ، لهجة كلها بساطة ووقار ، فقد رأيت أساريره المتجهمة تنبسط فجأة ، وكأنما عاد الى سجيته ، ودانانى ، ثم ربت على ركبتى وهو يقول : « أجل ، انك لغلام طيب ٠٠ وان كنت من لابسى السترة الحمراء ! »

وعندئذ أحسست ، من لهجته المريرة ، بمدى الحسد الذى كانت تستهدف له فرقنا الحمراء الاربع ، من سائر صفوف الجيش ، بسبب ما تتمتع به من امتيازات خاصة !٠٠ وفجأة

هتف صاحبى : « اننى لن أقبل ماعرضته على من ركوب جوادك، فأنا لا أحسن الركوب ، اذ لم يكن ذلك من مهنتى فى يوم من الايام ! »

وكادت الدهشة تعقد لسانى قبل أن أقول : « ولكن كبار الضباط أمثالك ، محتاجون الى ذلك مضطرون اليه ٠٠»

فهتف هو فى صبر نافد : « هيهات ! فان ذلك لا يكون الا مرة واحدة فى السنة ، حينما أتفقد الجيش ، وعلى حصان مأجور ٠٠ لقد أمضيت حياتى كلها بحارا ثم تحولت الى سلاح المشاة ٠ فأنا لا أعرف الفروسية اذن ، ولا أطمع يوما أن أكون من أبطالها ٠٠ »

وخطا نحو عشرين خطوة ، وهو يخالسنى النظر حينا بعد حين ، فى رنوات متسائلة ، كأنما كان يتوقع منى استفسارا ، حتى اذا لم يظفر منى بكلمة ، قال وأنا أسمع زفير تنهده : « **أراك لا تحب الاستطلاع ، وقد كنت أقدر أن حديثى لابد يدهشك !**»

- ليس من طبعى أن أدهش الا قليلا جدا !

- **أوه ، لسوف نرى ان كنت كذلك حقا ، حينما أقص عليك كيف هجرت البحر ٠٠ الى الابد !**

قلت ، وقد تفتحت كل مشاعرى فى انتظار المجهول : « فلم لا تحاول ذلك ٠٠ توا ؟ انه لأخلق أن يبعث فيك دفئا لذيذا ، كما أنه خليق أن ينسينى بدورى ما ينفذ من حبات هذا المطر المجنون الى لحم ظهرى ، قبل انحدارها المحتوم الى اخمص قدمى ٠٠»

وتأهب القائد الطيب ، بعد قليل ، وفى وقار ، لأن يبدأ الحديث ٠٠ وهنا لانت قسمات وجهه ، فقد أشرقت عليها موجة من سرور ساذج ، ثم تحسس رأسه ليصلح من وضع قبعته المكسوة بقماش مشمع ، وأحدث بكتفيه تلك الهزة التى لا يستطيع أن يتمثلها الا من خدم فى سلاح المشاة ٠ انها تلك الهزة التقليدية التى يأتيها الجندى بتحريك كتفيه ، عندما يريد أن

يرفع ما على ظهره من حمل ، ليخفف من عبئه لحظة من الزمن . وتلك عادة أصيلة فى الجندى ، تتحول مع مرور الوقت الى رجفة ، اذا ما أصبح ضابطا ..

وبعد أن ارتجف الرجل رجفته تلك ، عاد فرشف نفسا عميقا من غليونه ، وانثنى يشحذ همة بغله الصغير بركلة فى بطنه ، ثم بدأ حديثه العجيب :

٢ ـ قصة الختم الاحمر

• «ستعلم يا بنى ، قبل كل شىء ، أنى ولدت فى مدينة (برست) ، وانى بدأت حياتى غلاما ممن يستخدمهم الجيش لقاء منحة لا تعدو نصف حصة الفرد العادى من طعام ، ونصف مرتب الجندى من أجر .. وسبب اشتغالى فى الجيش أن والدى كان جنديا فى فرق الحرس ، ولما كنت أحب البحر وأكلف به ، الى الحد الذى ملك على كل حواسى وأفكارى ، فقد وجدت نفسى ذات ليلة جميلة من يوم عطلة لى ، بمدينة (برست) ، أندفع دون وعى الى الاختباء فى قاع سفينة تجارية راحلة الى الهند . وبطبيعة الحال لم ينتبه أحد الى الا بعد أن أصبحت السفينة فى عرض البحر ، قد أوغلت فيه ! ولم يطل التفكير بقائد السفينة ، فقد آثر أن يجعل منى بحارا ، ولو ألقى بى الى أحضان الماء فى كل يوم ـ فهكذا يجب أن يعد البحار ! ـ ولما اندلعت الثورة ، كنت قد مهدت لنفسى السبيل ، بعد جهد جهيد ، لأغدو قائدا لسفينة تجارية صغيرة ، لا بأس بها ، كانت قد سلخت من عمرها خمسة عشر عاما وهى تمخر عباب البحر ، شرقا وغربا . ولما كان الاسطول الملكى السابق قد أقفر فجأة من الضباط ، فقد استخدمنا فيه ، نحن قباطنة السفن التجارية ، فكان لى مع سفن القراصنة شأن ربما استطعت أن أقصه عليك فيما بعد !

.. وهكذا أقبلت على عملى الجديد ، تحدونى عزيمة ضارية ، وهمة خارقة ، فلم يمض طويل وقت حتى منحت امارة بارجة تدعى : « المارا »

وفى الثامن والعشرين من شهر « فريكتيدور » سنة ١٧٩٧ ، تلقيت امرا بالابحار الى (كاين) ، وكان على أن أحمل ستين جنديا ، وأن أنقل منفيا واحدا بقى من ثلاثة وتسعين شخصا حكم عليهم بالنفى المؤبد عن الوطن ، وكانوا قد نقلوا من قبل على سفينة أخرى . ولقد أمرت ان أعامل ذلك المنفى بلطف مقترن بالتحفظ ، وكانت الرسالة الاولى لحكومة الادارة تنطوى فى داخلها على أخرى قد بصمت بالشمع الاحمر بصمات ثلاثا ، لاحظت ان البصمة الوسطى

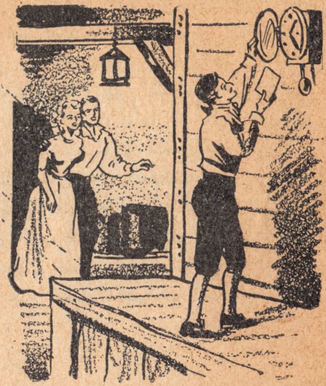
منها كبيرة الحجم قليلا . وكان محظورا على ان افتح هذه الرسالة حتى ابلغ خط العرض الاول شمالا ، فيما بين السابع والعشرين والثامن والعشرين من خطوط الطول ، أى حين نوشك أن نعبر خط الاستواء ..

والحق انه كان لهذه الرسالة مظهر فريد عجيب : فهى مستطيلة ، محكمة القفل الى حد لم أستطع معه قراءة شىء من خلال أركانها أو من خلال الغلاف . وأنا لست ممن يعتنقون الخرافات أو يستسلمون للتشاؤم والطيرة ، ومع ذلك فقد أوجست فى نفسى خيفة من تلك الرسالة ، فحفظتها تحت زجاجة ساعة انجليزية عتيقة من الساعات ذات الحجم المتوسط ، قد علقت فوق سريرى ، ذلك السرير الذى بدا فى مظهره البسيط سرير بحار حقا - وأنت أدرى كيف تكون هذه الاسرة - أوه ، معذرة ، لست أدرى تماما ما أقول ، فأنت وايم الحق لا تكاد تبلغ من العمر ستة عشر عاما ، فلم تتح لك رؤية مثل هذه الاسرة بعد .. »

★ ★ ★

◆ واستطرد محدثى بعد لحظة يقول وهو يرمقنى بلحظه النافذ : « .. ومع هذه البساطة ، أستطيع أن أؤكد لك أن مخدع أية ملكة من الملكات مهما تكن فخامته ، لا يضارع عندى غرفة البحار فى نظامها وتنسيقها ! وما أريد بهذا القول مجرد المفاخرة ، فالحق أن لكل شىء داخل قمرة البحار موضعا خاصا به ، أو هو مثبت فى موضعه حتى لا يهتز أو يتحرك .. ولتجر السفينة بعد ذلك ما شاء لها هواها أن تجرى ، أو تتهادى فوق صفحة اليم ، فلن يخل تأرجحها فوق أمواج العباب بنظام شىء فيها ، ومن ثم لن يضطرب فى قمراتها شىء !.. أما الاثاث فقد سوى وفاقا لشكل السفينة ، أوه .. أعنى وفاقا للغرفة التى ستكون للبحار ، طوال العمر ، مثوى ومسكنا ! .. وهكذا كان سريرى صندوقا ، ان أفتحه فهو مضجعى حيث أنام ، وان أقفله فهو أريكتى حيث أجلس لأستمتع بأنفاس عميقة عبقة من طباق غليونى .. بل ربما كان الصندوق فى بعض الاحيان بمثابة مائدتى أيضا ، أجلس اليها أنا وزميل وصديق ، وقد اقتعدنا برميلين صغيرين كانا بالغرفة . وكان اديم الارض فى غرفتى مصقولا بفضل رقعة المشمع اللاصقة بها ، هذه الرقعة التى كان ينعكس لها بريق ورونق ، كأنه بريق الجوهرة أو رونق المرآة ! »

وخيمت فترة صمت فوقنا ، ولما لم يسمع منى محدثى نأمة صوت سوى تردد أنفاسى التى تكشف عن مدى شوقى لمتابعة ما يقول ، استأنف حديثه قائلا : « أجل ، كانت غرفة جميلة ، وكان لسفينتى فى قرارة نفسى قيمتها أيضا ، هذا الى انها كانت تنطوى بين جوانبها على بعض أسباب الرفاهية



والمتعة الراقية . وهكذا بدات رحلتنا هذه المرة وكل المقدمات تدل على انها ستكون جميلة ورائعة ، لولا .. ولكن فيم التسرع ؟! .. لقد أتتنا من ناحية الشمال رياح طيبة مواتية ، وفى ذات يوم من أيام الرحلة ، بينما كنت منهمكا فى وضع الرسالة التى حدثتك عنها تحت زجاج ساعتى العتيقة ، اذ دخل على صاحبى الذى حكم عليه بالنفى ، ويده فى يد غادة صغيرة السن ، حسناء الطلعة ،لها عينان تشعان ببراءة الطفولة . وقد قدرت أنها لا تعدو السابعة عشرة من عمرها بحال . أما هو فقد أخبرنى أنه يناهز التاسعة عشرة .. وكان فتى وسيما جميلا ، ومع ان صفحة وجهه قد كساها شحوب طفيف ، فان بشرته كانت ذات بياض ساطع يندر ان يرى فى بشرة الرجال .. غير انه كان رغم ذلك رجلا حقا . نعم ، كان رجلا يفوق فى سلوكه وحكمة تصرفه ما كان للاقدمين من سلوك أو تصرف ازاء ما يهز النفس من أحداث . ولسوف ترى ذلك من خلال قصتى ، وتحكم كما حكمت ...

« وكان يتأبط فى تلك اللحظة ذراع حسنائه فى حنو بالغ ، وهى تبدو طروبا مرحة كأنها الطفلة الغريرة .. يا لله ! كانا أشبه بيمامتين تبعث رؤيتهما بالسرور والهناءة الى كل نفس . ولما كنت قد سرتنى رؤيتهما على هذا الوضع الفاتن الذى ينبض له كل قلب ، فقد بدأتهما بالحديث ، قائلا : « حسنا يا ولدى ، أتأتيان لزيارة ربانكما العجوز ؟ هذا جميل منكما وايم الله . انى سأمضى بكما فى البحر الى بعد قريب ، ولكن ذلك سيتيح لنا ، مع ذلك ، وقتا طيبا نتعارف فيه ونتحدث كثيرا . لكم يسوؤنى الا أستقبل سيدتى وأنا بملابسى الرسمية ، ولكن معذرة ، فقد شغلتنى محاولة تثبيت هذه الرسالة الكبيرة السخيفة داخل زجاج ساعتى .. فان شئتما تفضلتما مشكورين بمعاونتى قليلا فى هذه المهمة .. »

« كانا فى الواقع طفلين صغيرين حبيبين ، ومع ذلك .. فقد كانا زوجين ! وقد رايت الزوج يمسك بالمطرقة ، فى حين امسكت الزوجة الصغيرة بالمسامير ، وراحا يناولانى كل ما اطلب من ادوات . وبين لحظة واخرى ، كنت اسمع تغريد الزوجة ، وهى تهتف : « .. الى اليمين ..

لا بل الى اليسار قليلا ايها الربان .. » ثم تنثنى ضاحكة فى نغم موسيقى حلو ، كلما اهتزت الساعة فوق الحائط بفعل تمايل السفينة وتأرجحها على صفحة اليم الرجراج . يا لله !. ان صوتها ما يزال يرن فى أذنى ، وهى تقول : « الى اليمين .. لا بل الى اليسار ، أيها القبطان ! » .. كانت تسخر منى ، ووجدتنى أقول لها فى تهديد لا أقصد من ورائه الا مجرد المعابثة : « آه ، اننى سأحمل زوجك ، يا شيطانتى الصغيرة ، على تأنيبك ! » .. وراعنى أن رأيتها تتعلق كالغريق برقبته ، وتعانقه معانقة الطفل لأبيه وأمه ، حين يريد الاحتماء بهما . أوه ، كم كانا لطيفين رقيقين .. وهكذا تم تعارفنا على أحسن ما يكون التعارف بين الخلان ..

« والحق ، كانت رحلتنا جميلة ، وكان جو البحر ملائما وفق ما نريد ونشتهى . ولما لم أكن أحمل فى سفينتى أناسا الا من ذوى البشرة السوداء (أى الزنوج) ، فقد كنت أدعو صديقى هذين الى مائدتى فى كل يوم ، اذ كان ذلك يشرح صدرى ويبعث الى نفسى السرور والبهجة . فاذا انتهينا من طعامنا المؤلف عادة من الخبز والسمك وبعض اللحم المقدد ، طفق الفتى ينظر الى زوجه فى حنان وشغف ، وطفقت الفتاة ترمق زوجها بنظرات والهة عاشقة، كأن كلا منهما لم يكن قد رأى صاحبه من قبل ! عندئذ لم أكن أتمالك نفسى من موجة غامرة من الضحك العريض ازاء هذا الذى أشهده من حال هذين « الطفلين » .. واذا هما يضحكان بدورهما معى ، بل لو قدر لك أن ترانا لضحكت بدورك ، وحسبتنا جماعة من البله ، تتضاحك ولا تدرى سببا لضحكها !! .. وما كان أبعث للبهجة الى نفسى من أن أراهما يتحابان على هذا النحو الجميل الرقيق . كانا ، على كل حال ، خير رفيقين لى فى وحدتى، كما كانا راضيين بكل ما يمنحان من طعام وشراب . وقد كنا كذلك جميعا ، لا يمنح الفرد أكثر من حصته . ولكنى كنت أضيف إلى مائدتى، اذا دعوتهما، شيئا من نبيذ السويد ، وحسبى منه كأس صغيرة أشربها نخب كأسيهما الصغيرتين ، وكانا ينامان معا فى مضجع معلق ، يطويهما معا فى عوالم الاحلام السعيدة .. كانا سعيدين سعادة لا توصف ، تفيض جوانحهما بكل حيوية الحياة ! وكنت أنا أعتنق مذهبك ، أعنى لا أسأل عن شىء ، ولا استطلع شيئا . وما لى ومعرفة اسميهما أو الاحاطة بشؤونهما ، أنا عابر الماء ؟! ان كل ما كنت مكلفا به ، هو أن أحملهما الى الجانب الآخر من البحر ، ولكننى أحسست أنى أحمل معى فى الفلك طائرين جميلين من طيور الفراديس !

* * *

« . وانتهى الأمر . بعد انقضاء شهر واحد ، الى ان نزلا من نفسى منزلة

الابناء .. فكانا فى ضحوة النهار ، او ساعة الاصيل ، او سهرة المســاء ، يأتيان الى حين أدعوهما فيجلسان الى جانبى . وكان الشاب يكتب على مائدتى، أى على سريرى ، ويعاونني فى عملى اذا طلبت منه ذلك . وأشهد وايم الحق أنه كان يتقنه اتقانى اياه ، مما كان يدهشنى كثيرا .. اما الزوجة ، فكانت تجلس فوق برميل ، وتنهمك فى الحياكة .. وكنت أقول لهما ، وهما فى جلستهما تلك : « أو تعلمان يا ولدى أننا هكذا نؤلف صورة صــغيرة لاسرة سعيدة ؟ .. أنا لا أريد استجوابكما ، ولكن ربما لم يكن لديكما من المال ما يكفيكما شر الحاجة . وانكما لأجمل وأرق من أن تحرثا بالفؤوس أديم الارض السوداء ، كما يفعل كل المبعدين الى (كاين) . انها لبــلد خبيث ، ومثلى ـ وما أشبهنى بجلد ذئب قديم دبغته الشمس ـ يحيا هناك حياة الاشراف والسادة . فان كنتما ، كمـــا يبدو لى ، وان لم أرغب فى استجوابكما ، تحفظان لى مودة ، فسأترك منذ اليوم راضيا سفينتى هذه التى أبلاها طول الضرب فى آفاق البحار ، كى أقيم معكما هناك ، ان راقكما ذلك .. فليس لى من أسرة الا كلب وفى ، وما أشد ما يبعث ذلك الى نفسى من ضيق وسأم .. ستكونان أنتما لى مجتمعا صغيرا ، وسأقدم لكما قسطا كبيرا من المساعدة ، فلقد جمعت من حطام الدنيا ما يكفى ثلاثتنا ويعيننا على قطع رحلة الحياة . وما سوف أخلفه لكما ، حينما تغمض عيناى يد الموت كمــا يقولون ، يعد ثروة لا بأس بها !

« لبثا مشدوهين يتبادلان النظرات ، وعلى وجههما علائم من يتشكك فى انى جاد فى كل ما أقول ! وراعنى أن أرى الصغيرة تخف فجأة ، على عادتها ، فتلقى بنفسها الى صدر زوجها ، ثم تجلس على ركبتيه ، وهى مشبوبة الوجه بحمرة قانية كأنها وهج النيران ، ثم تنشج ببكاء مكتوم .. واذا هو يهصرها بين ذراعيه فى عنف ، واذا أنا أرى فى عينيه هو الآخر عبرات تترقرق .. ثم مد الى يده ، وقد اشتد امتقاعه عما كان عليه . وكانت هى تحــدثه بصوت منخفض وشعرها الاشقر الجميل ينسدل على كتفيها ، وقد انحلت غدائره كما ينحل الحبل المجدول على حين فجأة ، لفرط ما أصــابها من اضطراب ، كأنها السمكة أخرجت الى البر !.. آه لو قدر لك يا صاح أن ترى ذلك الشعر الحريرى ، لقد كان ثروة من ذهب نادر الوهج .. واتصــل حديثهما فى صوت خفيض ، وسمعتها تنشج نشيجا مكتوما ، والفتى يقبل منها الجبين بين حين وآخر .. حتى نفد صبرى ، ولم املك آخر الامر غير ان اهتف بهما : « أيلائمكما ذلك الاقتراح اذن ؟ » .

فقال الزوج بصوت متهدج النبرة : « ولكن .. ولكن .. فقلت انهمــا

القبطان لطيب القلب والسريرة الى أقصى حد ٠٠ اوه ، اعنى فكر قليلا ، فقد لا تستطيع العيش مع منفيين و ٠٠ »

ثم غض طرفه الى الارض ، وهو لا يكاد يتماسك من جيشان مشاعره ، فقلت له : « أنا لا أعلم ما هى جريرتك ، حتى يكون جزاؤك النفى ٠ ولسوف تحدثنى بذلك فى يوم قريب أو بعيد ٠٠ أو ربما آثرت الكتمان ، ومع ذلك فما أرى من امارات وجهك النبيل الوديع ما يوحى بأن لك ضميرا مثقلا بالذنوب ٠ وأنا على يقين من أنى قد أتيت فى حياتى من الذنوب التى تثقل الضمير أكثر مما أتيت أنت ! هيا أيها البريئان المسكينان ٠ انكما ستظلان فى حراستى - أنا ابيكما من الآن - ما عشتما ، لن أدع لكما مهربا ، فلا تتوقعاه ٠٠ بل انه لأيسر لى منه أن أقطع عنقيكما كما تذبح الحمامتان (واستضحكت) ٠٠ ومتى خلعت هذه الشارات عن كتفى ، فلن أعرف وايم الحق أميرا ولا صعلوكا ! » .

وأجابنى الفتى وهو يهز رأسه فى أسى ، هذا الرأس الاسمر الذى خالطته رغم يفاعته شعرات بيض - كما هو حال رؤوس الشبان فى عهدنا هذا الملىء بالاحداث : « ان الذى اعتقده أيها القائد الربان أن من الخطر أن تلوح علينا علائم السعادة لاننا متحابان ٠٠ ومع ذلك فان لحظات رهيبة تمر بى حينما أفكر فى المستقبل ، فما أدرى ماذا تخبئه الاقدار من مصير للوريت !؟ »

وضم الى صدره من جديد رأس زوجه الصغيرة ، وهو يقول لها فى صوت مبحوح هدجه الانفعال : « معذرة يا عصفورتى ٠٠ هذا كل ما كان على أن اقوله لسيدى الربان ٠ أما كنت يا طفلتى تقولين ذلك بعينه ؟ »

أما أنا ، فلم أتمالك أن اخذت غليونى ونهضت ، فقد بدأت أحس أن عينى تدمعان قليلا ، ولم يكن ذلك بالذى يليق بى ٠٠ وقلت لهما فى انفعال : « هيا ٠٠ هيا ، فستظهر لى الأيام ما بكما ٠٠ واذا كان التبغ يؤذى سيدتى فما ينبغى لها البقاء ٠٠ »

فنهضت ووجهها كأنه النار المشبوبة من احتقانه ، ولم تستطع هذه الدموع الواكفة التى بللت وجناتها أن تطفىء من هذا اللهيب ٠ ثم قالت لى وهى تنظر الى ساعتى : « ومع ذلك فأنتم لا تفكرون فى شىء آخر ٠٠ انكم نسيتم أمر الرسالة ! »

وهنا أحسست شيئا غامضا يحدث دويا فى كل جنبات نفسى ، واصابنى ما يشبه الدوار عند سماعى قولها ٠٠ ولم أملك أن هتفت : « يا لله ! انى لم أكن أفكر فيها ٠٠ آه ، ما اجمله من شىء ! فان كنا قد تخطينا درجة العرض الاولى شمالا ، فما بقى لى الا أن ألقى بنفسى الى الماء !٠٠ او يحق ان

يسعدنى الحظ بأن تذكرنى هذه الصغيرة بأمر هذه الرسالة البغيضة ؟! »

وأسرعت الى خريطتى البحرية استطلعها ، حتى اذا عرفت أنه لا يزال باقيا لنا أسبوع على الاقل ، أحسست أنه قـد سرى عن رأسى قليلا ، أما قلبى فما زال مثقلا بأشجانه الغامضة ـ أشجان ما دريت لها سببا ولا علة ! ـ وقلت كأنى أحدث نفسى : « ان حكومة الادارة لا تمزح فى أمر الطاعة ! هيا بنا ٠٠ انى الآن لعلى علم بمجرى الامور ٠ لقد كر الوقت فى سرعة فائقة ، حتى انسانيها تماما ! »

أجل يا سيدى ٠ لقد وقفنا ثلاثتنا مشرئبين ننظر الى تلك الرسالة ، كما لو كنا نتوقع منها حديثـا ستقصه علينا ! وما أشد ما راعنى حينما انسلت الشمس من النافذة لتسطع على زجاج الساعة فتنير بشعاعها « ختم » الرسالة الاحمر الكبير ، وتبرز الختمين الآخرين ، الصغيرين ، كأنهما جميعا قسمات وجه بشرى يتوهج وسط لهب النيران ٠ ووجدتنى أندفع لأقول ممازحا : « أما يقول الناظر الى هذه الرسالة أنها أشبه بوجه مسحور تندلع من رأسه عيناه الحمراوان ؟! »

وقالت الزوجة : « بل تأمله قليلا ، انه يشبه بقعا من دم ! » ٠٠ بينما هتف الزوج وهو يتأبط ذراعها : « حسبك ٠٠ حسبك يا لور ، فما أصبت كبد الحقيقة ٠ انه ليشبه بطاقة دعوة الى حفل زفاف ! والآن تعالى معى يا حبيبتى لتصيبى قسطا من الراحة ٠٠ تعالى ، فلعمرى لماذا يقلقك هذا الكتاب ٠٠ أعنى هذه الرسالة ؟! »

وانطلقا يصعدان معا الى ظهر السفينة ، كأنهما الهاربان من قضاء راصد ٠٠ ولبثت انا وحيدا مع الرسالة ، وما زلت أذكر اننى كنت اتلفت اليها أحيانا وأنا أدخن غليونى ، فيخيل الى كأن عينى ارتبطتا بعينى شبح مسحور ، تشعان وهجا ناريا هائلا ٠٠ بل هما على التحقيق عينا أفعى تقـدحان شررا مريعا ٠٠ يا لله ٠٠ أو هما جزء من وجه شبح مسحور ٠٠ انه وجه كبير شاحب ، وقد ارتسم فى وسط جبهته الختم الثالث ، الذى اتسع بدوره حتى فاق عينيه ٠٠ بل لقد انفغر حتى شابه فم ذئب !٠

ونال ذلك من هدوء نفسى ، وحملنى حملا على أن آخذ معطفى لأعلقـه فوق السرير كى يحجب عن عينى منظر الساعة ، فأنا لا أريد أن أقرأ الزمن ولا أن أرى الشبح الرهيب المسحور ، الذى تمثل فى هذه الرسـالة ذات الاختام الثلاثة الحمراء !

★ ★ ★

◆ ثم مضيت الى ظهر السفينة ، آتيا على بقية ما فى غليونى من انفاس ٠

ولبثت هناك حتى جن الليل ٠٠ وكنا قد أشرفنا على جزر (الرأس الاخضر) ، وكانت السفينة تدفعها الرياح فتنساب على صفحة الماء الراعشة بسرعة عشر عقد ، فلا يكاد يعوقها شيء ٠ وكانت هذه الليلة بالذات من أجمل ما شهدت من ليال طوال حياتى ، فلقد ارتفع القمر فى الافق وبدا كبير القرص كأنه شمس فضية الضياء رطيبة الشعاع ، وقد ارتشف البحر كل أشعته ، فغدا أبيض ناصعا كأنه الصفحة من الثلج ترصعها ماسات صغار وضاءة ٠٠

نظرت الى ذلك كله وأنا جالس على مقعدى أدخن غليونى ، والضابط الذى تحت امرتى صامت لا ينبس ببنت شفة ، والبحارة بدورهم صامتون ، كانما طواهم المشهد فى كل جلاله وبهائه ٠ انهم ينظرون مثلى الى ظل السفينة المنعكس على صفحة الماء ، وكأنه الفضة الذائبة ٠ لقد كنت راضيا قرير النفس ، لا أسمع سوى هدير الموج الذى يلطم فى نغم موسيقى رتيب جوانب السفينة، فأنا أمرؤ يحب السكون كما يحب النظام ٠ وكنت قد أمرت الجميع أن لا يحدثوا أصواتا ولا يوقدوا نارا ، ومع ذلك فقد لمحت اذ ذاك خطا أحمر ضئيلا ، يكاد يكون تحت قدمى ! ٠٠ وكان ذلك كافيا لكى يثير غضبى الجامح، ولكن مهلا ، ان النور ينبثق من قمرة صغيرى المنفيين ، فلأستوثق مما يأتيان ، قبل أن يستبد بى الغضب ويملك على كل تصرفى ٠ ولم يكن بد من أن أنحنى حتى أستطيع النظر من خلال النافذة الى الغرفة الصغيرة ٠ وأطللت مستطلعا ٠٠ فلله ما أروع ما شهدت !

كانت الزوجة « الطفلة » راكعة تصلى ، والى جانبها قنديل صغير موقد ، يرسل ضوءا شاحبا يتراقص على الجدران كأنه الاشباح ، ولاحظت أنها فى قميص نومها ، اذ رأيت من مكانى جمال كتفيها العاريتين ، كما رأيت شعرها الطويل الاشقر وقد بدا أشعث مضطربا ٠٠ ودار بخلدى أن أتراجع ، ولكنى قلت لنفسى : « ويحك ، انك لجندى عجوز ، فأى ضير فى ذلك ؟ » وهكذا ظللت فى موقفى ذاك انظر وأرقب ما يجرى فى القمرة التى تحتى ٠٠ كان زوجها جالسا على صندوق صغير يرنو اليها وهى تصلى ، وقد جعل رأسه على راحتيه ، ثم رفعت هى رأسها كأنما ترفعه الى السماء ، فاذا بى أرى عينيها النجلاوين الزرقاوين مخضلتين بالدموع ٠ وفيما كانت تصلى ، كان هو يلمس بأنامله أطراف شعرها الطويل ، فيلثمها فى صمت وحنو ، حتى اذا انتهت من صلاتها ، رسمت الصليب على صدرها وهى تبتسم فى وداعة وسعادة، كأنها ذاهبة الى الفردوس ٠ ورأيته هو الآخر يرسم الصليب مثلها ، فى شيء من الخجل ، فليس من المألوف أن يفعل الرجل مثل هذا ، وعلى غرار الحركة التى تأتيها النساء !

وانتصبت الفتاة واقفة ، فعانقته ، وحملها هو الى مضجعها المعلق ، حيث

القاها عليه فى رفق دون ان يهمس بكلمة واحدة ، بل ظل صامتا لا يتحدث ، وكأنه يرقد طفلا فى أرجوحته ، بعد أن داعب الكرى جفنيه ٠ وكان الحر شديدا خانقا ، فسرها أن تتأرجح ، مع اهتزاز السفينة ٠٠ وبدت لى كأنها تأهبت للنوم ، وكانت ساقاها البضتان متقاطعتين ، مرتفعتين الى مستوى رأسها ، وقد اكتسى جسدها كله بقميصها الابيض الطويل ٠٠ ماذا يا الهى ! أكان هذا كله وهما ؟ لا ، بل هو حقيقة الحقيقة ، انها حقيقة الحب فى أروع مشاهدها طرا ٠٠

وقالت له وهى نصف ناعسة : « أواه ، ألم يهتد النوم الى جفنيك بعد ؟ أما تعرف أننا فى هزيع متأخر من الليل ؟! » ٠٠ لكن الفتى ظل صامتا ، وهو ما زال معتمدا رأسه بين يديه ، فبعث منظره الى نفس « لور » الملائكية شيئا من القلق ، جعلها تطل برأسها الى خارج الفراش ، كأنها الطائر يطل فى حركة مستوفزة من عشه ٠ وجعلت تنظر اليه وفمها مفتوح ، ولكنه لا يستطيع الحديث ٠٠

واخيرا قال لها : « عزيزتى لور ، انى لا استطيع دفع ما يأخذ بكظمى من لاعج الحزن ، ولاما يملأ نفسى من هم لا أدرى له سببا ! اننى أحس بوطأة هذا الحزن تثقل على كلما اقترب بنا الفلك من شواطىء امريكا ، ولا أدرى لماذا أعتقد ان اسعد أيام حياتنا هى هذه الاويقات الهنيئة التى نختلسها من الزمن خلال هذه الرحلة ! »

وسمعتها تقول له فى صوت امتزج فيه الفرح بالاسى : « وانى لأشعر ايضا بما تشعر ، وما أريد من أجل ذلك أن تنتهى هذه الرحلة أبدا ! »

ونظر هو اليها ، وقد ضغط بيد على أخرى فى ثورة مكبوتة عاتية لا استطيع لها وصفا ، وقال : « ولكنك يا ملاكى تبكين دائما وأنت تصلين الى الله ٠ وان ذلك ليحزننى حزنا شديدا ، فأنا أعرف فيمن تفكرين ٠ وأكبر الظن أنك آسفة نادمة على ما فعلت ٠ »

فقالت تجيبه فى لهجة حزينة تقطر ألما وتأنيبا : « أنادمة أنا ؟! أأندم لانى تبعتك ياصديقى ؟ أم تراك تظن أن حبى لك قد تضاءل ، لانى صرت زوجتك منذ قليل ؟ ألست زوجتك التى ستشاركك السراء والضراء ؟ ألا يعرف المرء واجبه وهو فى السابعة عشرة ؟ ألم تقل أمى وأخوتى انه ينبغى على أن اتبعك الى (غيانا) ؟ ألم يقلن انى لم افعل ما يثير الدهشة ؟ انى لا أعجب الا لتأثرك لما صنعت ، وما صنعت غير ما أملاه على قلبى ، وهو أمر طبيعى ٠ فما أدرى الآن كيف تساورك عقيدة توقع فى وهمك أننى آسفة على ما فعلت ، نادمة على شىء ما ٠٠ اننى سأظل معك أعاونك ما حييت ، أو اموت معك ، اذا قدر لك الموت ! »

قالت ذلك يا صاحبى فى صوت ملائكى رائع العذوبة رائع التاثير ، استمد كل انغامه السماوية من حرارة الصدق المنبعث من كل كلمة همست بها ٠ وتمتمت فى نفسى وقد تملكنى انفعال غامر هزنى هزا عنيفا : « يا لك من زوجة صغيرة كريمة ! »

وظل الفتى يتنهد وهو يقرع الارض بقدميه ، يقبل تارة يدها الرقيقة ، وتارة أخرى يطبع على ذراعها البضة حمم شفتيه ٠ وأخيرا صاح فى صوت يمزقه الألم : « آه يا لوويت ! أواه يا معبودتى الصغيرة ! كلما فكرت أنه لو قدر لزواجنا أن نؤجله أياما أربعة ، لما قبض الا على أنا ، ولما رحل أحد سواى ٠٠ أرانى لا أستطيع أن أغتفر لنفسى هذا الجرم أبدا ! »

هنالك مدت الصغيرة ، خارج الفراش ، ذراعيها الساطعتين ، وراحت تداعب من حبيبها الجبين ، وتنثنى فتدغدغ بأناملها العنابية شعره وعينيه ، ثم تاخذ برأسه كأنها تريد أن تحمله لتخفيه فى صدرها ٠ وابتسمت كأنها الطفل ، وطفقت تحدثه عن طائفة مما يتعلق بالمرأة من صغار الامور ، لم اسمع بمثلها من قبل ، وهى فى خلال ذلك تحاول ان تغلق بأناملها فمه ، حتى تتحدث وحدها ٠٠ ثم قالت تعابثه ، وقد جعلت من جدائل شعرها لعينيه منديلا : « ألست تفضل أن تصحبك زوجة تحبك ؟ فانى لراضية بالذهاب الى (كاين) ٠٠ سوف أرى قوما متوحشين ، وأشجارا كأشجار « بول » و « فرجينى » ٠٠ أليس كذلك ؟ سيزرع كل منّا شجرته ، ولسوف ترى أينا سيكون البستانى الامهر ٠٠ وسوف نبنى لنا كوخا صغيرا يضمنا ، ثم اننى سأعمل ، ان شئت ، بياض نهارى وسواد ليلى ٠٠ اننى صبورة ذات جلد ، قادرة على مشاق العمل ٠٠ أنظر الى ذراعى ٠٠ اننى أكاد أرفعك ! أوه ٠٠ أتضحك ؟ لا تسخر منى ارجوك ، فلسوف تثبت لك الايام ذلك ٠٠ ثم انى الى ذلك أجيد التطريز ٠٠ »

ورمقته فى حنان ووله ، وهى تستتل فى نبراتها الطفلة : « ألا توجد مدينة هناك تحتاج الى مطرزات ؟٠٠ ثم اننى لن أضن باعطاء دروس فى الرسم والموسيقى ان أراد القوم ٠٠ واذا كانوا يعرفون القراءة ، فستكتب أنت لهم ! »

٠٠ وانى لأذكر أنها ما كادت تبلغ ، من حديثها ذاك ، هذا الحد ، حتى ارسل الفتى صرخة هائلة ، وقد لفحه على حين فجأة لافح من اليأس والقنوط ٠٠ وصاح كمجنون : « أأكتب ؟ أأحرر ؟! » ٠٠ ثم أمسك يمناه بيسراه وجعل يهز قبضتيه هزا عنيفا ، وهو فى خلال ذلك يهتف : « آه ٠٠ الكتابة ! لست أدرى لم تعلمتها ٠٠ انها لمهنة البلهاء ! لقد كنت أومن يوما بحرية الرأى عندهم ، فأين كان عقلى وقتئذ ؟!٠٠ ولم يكن من أثر ذلك الا اننى نشرت خمس أو ست فكرات من تلك الافكار الهزيلة الضئيلة ، ليقرأها من يرضى

عنها او يلقى بها فى نار المدفاة من كانوا عليها ساخطين ، ثم لا يكون لنا منها بعد ذلك شىء من هذا الاضطهاد والنكال اللذين نذوقهما ألوانا !.. أواه يالور .. يا ملاكى الجميل ، لقدأمسيت لى زوجا منذ أيام معدودات ، فما أدرى ماذا جنيت ؟.. اننى أرجوك ، وألحف فى الرجاء ، أن تشرحى لى كيف رضيت ان تسمحى لنفسك الطيبة بمرافقتى ؟! ترى أتعرفين أين أنت الآن ، وأين تذهبين أيتها الصغيرة المسكينة ؟.. ستكونين ياطفلتى على بعد ألف وستمائة فرسخ من أمك وأخواتك .. كل ذلك من أجلى .. من أجلى أنا أتيت كل هذا ؟! »

وأخفت هى رأسها لحظة فى ثنايا الفراش ، ورأيتها من مكانى المرتفع وهى تبكى .. أما زوجها فلم ير وجهها لمكانه المنخفض منها ، حتى اذا أسفرت بعد قليل عن وجهها ، رأيتها تبتسم ابتسامة تحاول أن تبعث بها السرور والمرح الى نفسه .. ثم استضحكت ، وهى تقول : « اننا فى الواقع لسنا غنيين .. انفض حافظتى بنظرة عابرة ، لترى انى لا أملك دينارا واحدا ! فماذا تملك أنت ؟!»

وأنشأ الفتى بدوره يضحك ضحكا هو أشبه بضحك الاطفال«الهستيريين»، ثم هتف : « أحسب أنه بقى لى درهم واحد .. أوه ، لقد نسيت أننى أعطيته لذلك الغلام الذى حمل حقيبتك .. »

فقالت وهى تطقطق بأصابعها البضة ، كأنها صاجات الرقص : « ويحك ، وأى ضير فى ذلك ؟ ان أشد مايكون مرح المرء وهو معدم ! ألا تعلم أن معى الخاتمين الماسيين اللذين أعطتنيهما أمى ؟ ان الماس مضمون القيمة فى كل بلد ، ثمين بالنسبة لكل شىء .. أليس كذلك ؟ فمتى شئت بعناهما . ثم أنا أعتقد أن الربان الطيب لم يحدثنا الا ببعض مايضمره لنا من نوايا طيبة ، وأنه ليعلم علم اليقين مافى الرسالة .. فما من شك فى أنها توصية بنا الى حاكم (كاين) !»

فتمتم الفتى وهو شارد العينين : « ربما .. من يدرى ؟»

واستطردت الزوجة الصغيرة تقول ، كأنما تواسى نفسها وتواسيه : « ان لك من أخلاقك الطيبة ما يحملنى على أن أعتقد أن الحكومة لم تبعدك الا الى أمد قريب ، وما أقدمت على ذلك الا لانها لا تريدك ، فحسب .. »

★ ★ ★

◆ ولقد أحسنت وأيم الحق الى روحى ونفسى ، حين نعتتنى بالربان الطيب، فما كان أشد تأثرى لهذه الكلمة ، حتى لقد عرفت فى نفسى – لاول مرة – عاطفة الحنان ، وسرنى ماذهبت اليه « لوريت » من تخمين وحدس ، ربما صدقا على الرسالة المختومة .. ثم طفق الزوجان يتعانقان من جديد ، وهنا قرعت

ظهر السفينة بقدمى كى ينتهيا من حديثهما ، وصحت بهما : « الا تعلمان ياصديقى الصغيرين أننى أصدرت أمرا باطفاء كل نار بالسفينة ؟ اطفئا مصباحكما ان تكرمتما » ٠٠ فأطفآ المصباح وأنا أسمعهما يضحكان ويثرثران كأنهما تلميذان فى عنبر نوم بمدرسة داخلية ! ورجعت أنا أتمشى وحيدا على ظهر الفلك أجتر أنفاس غليونى الذى زممت عليه شفتى ٠٠

كانت النجوم فى أفلاكها البعيدة ، كأنها الاقمار الصغيرة ، وكنت أنظر اليها وأنا أملأ صدرى من هواء الليل المنعش ، ذى العبق الذكى ٠٠ ومضيت أحدث نفسى فى أمر هذين الصغيرين الطيبين ، فأنعشنى خاطر هجس بذهنى: لم لا يكونان أصابا كبد الحق بظنهما فى الرسالة ؟ ألا يحتمل أن يكون أحد المديرين الخمسة (زعماء حكومة الادارة) قد عدل عن رأيه فأوصانى بهما ؟٠٠ على أنى لم أحسن التعليل لمثل هذا التصرف ، لو صح ، فان للحكومة من شؤون السياسة وخفايا أوضاعها مالم أستطع له فهما ٠ ولكنى اقتنعت مع ذلك بوجاهة ذلك الخاطر ، وسرنى أنه أرضى ذهنى الحائر ، وان كنت لم أدر لهذا السرور الذى استفاض فى جوانحى فجأة ، من سبب !!

واتخذت سمتى الى غرفتى ، وما أن دخلتها حتى تعلقت أنظارى بالرسالة ، تلك التى تراءت لى من تحت معطفى القديم ٠٠ فاذا هى تطالعنى بوجه آخر ، واذا هى تبدو كأنها تضحك ، وتبدو أختامها الحمراء فى لون الورد !٠٠ وعندئذ لم يداخلنى شك فى حسن ماتضمر ، فحييتها بايماءة صغيرة ، ولكننى مع هذا كله تركت معطفى عليها ، اذ كنت ما أزال أضيق بها ، وان لم أدر لضيقى سببا !

★ ★ ★

◆ ومضت بضعة أيام كنا خلالها فرحين لا نفكر فى النظر الى الرسالة ، ولكنا ما كدنا نبلغ خط العرض الاول ، حتى لزمنا الصمت ٠٠ ياالله ، كان صمتا ثقيلا ٠٠ رهيبا لم تطقه أعصابنا !

واستيقظت فى صباح يوم جميل ضاحى السماء ، وقد عرتنى الدهشة اذ لم أسمع فى السفينة حركة ما ، وقد كنت فى الواقع لا أنام الا بعين واحدة كما يقولون ٠٠ فلما لم أحس باضطراب السفينة ، فتحت عينى كلتيهما ، فاذا بنا قد دخلنا فى منطقة هادئة ساكنة الهواء ، واذا نحن عند خط العرض الشمالى وخط الطول السابع والعشرين ٠ ورفعت ناظرى الى ظهر السفينة ، فاذا البحر صقيل الصفحة ، منبسط الرقعة كأنه القدر الهائلة قد امتلأت حتى حافتها بالزيت ٠٠ واذا الاشرعة المنشورة جميعا منكسة قد التصقت بسارياتها كأنها « البالونات » الفارغة ٠ وقلت لنفسى فى قلق وأنا أنظر الى حيث الرسالة : « هاقد حان وقت تلاوتها ! » ٠٠ ولكننى انتظرت الى المساء حتى تغرب الشمس ، ولم يكن بد من انتظار هذا الميعاد ٠

وفتحت الساعة ، وجذبت الرسالة المختومة فى لهفة ، اجل ياعزيزى ٠٠ اجل ، كل ما ساقوله لك حق ٠٠ لقد ظلت فى يدى زهاء ربع الساعة وانا لا اجرؤ على قراءتها ، حتى قلت لنفسى :« انه لامر جلل ! » ٠٠ ثم كسرت الختمين بابهامى ، اما الختم الاكبر فقد سحقته ترابا ٠٠

وما كدت أقرأ حتى فركت عينى مكذبا نفسى ٠٠ وأعدت قراءة الرسالة كلها ، ثم قراتها مرة ثالثة ، ثم رحت أقرأها مبتدئا بالسطر الاخير منتهيا الى السطر الاول ، وأنا لا أصدق ماتحتوى ٠٠ وناءت ساقاى بحملى فتهالكت جالسا فوق برميل ، وبى احساس بقشعريرة تسرى فى أديم وجهى ،وأسرعت ادلك وجنتى بقليل من شراب الروم ، ثم وضعت فى راحتى منه شيئا ٠٠ لقد رثيت لنفسى واشفقت عليها مما دهانى ، ولكن ذلك لم يكد يستغرق لحظة ، اذ فررت من الغرفة فرارا ٠٠ كنت احس بالاختناق ، فخرجت أتنسم الهواء !

وما كان اجمل لوريت فى ذلك اليوم ، حتى ماجرؤت وماطاوعتنى نفسى ان أقترب منها ! كانت ترتدى ثوبا ابيض بسيطا ، وهى عارية الذراعين حتى جيدها ٠ اما شعرها الذهبى الطويل فكان متهدلا على كتفيها كما عهدته دائما٠ وكانت تلهو بغمس ثوب لها فى البحر ، قد ربطته الى خيط ، وهى تتضاحك محاولة تحريك نباتات البحر التى تطفو على المياه كأنها عناقيد العنب ٠ وصاحت بزوجها : « ألا تعال انظر الى العنب ! هيا أسرع بالله » ٠ وانحنى هو عليها ، ولكنه لم ير الماء ، فلقد كان ينظر اليها وعيناه الحالمتان تلمعان ببريق الحنان الذى فاضت به كل جوانحه ٠٠

واشرت الى الفتى أن يقبل ، فان لى معه حديثا سأفضى به اليه فى مؤخر السفينة ٠ وهنا التفتت هى الى ، وما أدرى أى وجه كنت أحمل ، فقد تركت الخيط فانفلت منها ، وأمسكت بذراع صاحبها بعنف وهى تهتف فى جزع : « أواه ٠٠ لا تذهب ! فما أشد امتقاع وجهه ! »

وما كان ذلك غريبا ، فقد كانت هناك أسباب لهذا الامتقاع الذى كسا كل وجهى ٠٠ ومع ذلك فقد اقبل على الفتى عند مؤخر السفينة ، فى حين ظلت هى تنظر الينا وهى مستندة الى السارية الكبرى ٠٠ ثم طفقنا نذرع السفينة طولا وعرضا ، صامتين ٠ وكنت ادخن سيجارا وجدته مرا فمججته ورميت به فى الماء ! اما الفتى فكان يتبعنى بعينيه ، فاخذت بذراعه ، وقد كنت أحس اذ ذاك اننى اختنق – اقسم لك بشرفى ياصاح أننى كنت فى تلك اللحظة أختنق !– وقلت للفتى أخيرا : « ياهذا ! أنبئنى ٠٠ بالله انبئنى ٠٠ اقصص على أيها الصديق الصغير طرفا من قصتك ٠ ترى ما الذى كان من أمرك مع هؤلاء « المديرين » من المحامين غلاظ الأكباد ٠٠ الخمسة الذين يحكمون هناك فى باريس ، وكأنهم خمس قطع من ملوك الشطرنج ، فانى اراهم يريدون النيل منك فى كثير من القحة والغطرسة ٠٠ هذا عجيب وربى ! ٠

هز الفتى المسكين كتفيه وهو حاسر الراس ، ثم قال فى نغم ماكان احلاه : « رباه ! لم يكن الامر أيها الربان شيئا كبيرا ، انها ستة أبيات من الشعرهجوت بها حكومة الادارة ٠٠ ذلك كل شيء !»

فقلت : « هذا محال ! »

قال : « آه يارب ، ولم تكن الابيات مع ذلك من رصين الشعر ٠ ولقداعتقلونى فى الخامس عشر من (فريكتيدور) ، ثم حوكمت فى السادس عشر منه ، وصدر الحكم بالاعدام أول الامر ثم خفف الى النفى المؤبد !»

- ياله من أمر رهيب مريع ! ان هؤلاء المديرين عصبة لا تؤمن الا بالتشكك والارتياب فى كل شيء ، ذلك أن هذه الرسالة التى تعرف أمرها ، تأ٠٠٠ تأمرنى ٠٠ رحماك ياربى ! انها تأمرنى أمرا صارما بأن أرميك بالرصاص شأن المجرمين من الخونة !»

لم يقل الفتى شيئا ، وانما ابتسم ابتسامة شاحبة حاول أن يظهر بها من ضبط النفس مايجمل بشاب فى التاسعة عشرة من عمره ٠ ولم يفعل سوى انه نظر الى زوجته الصغيرة ، ثم مسح جبينه حيث كانت تتساقط قطرات من العرق ، وكان على جبينى أنا قطرات مثلها ، وفى عينى قطرات أخر ٠٠ ثم استأنفت حديثى قائلا : « يبدو أن هؤلاء المواطنين لم يرضوا بانجاز أمرك فوق الارض ، أى أرض ، فقد حسبوا أن البحر كفيل بأن يطوى أهول الأسرار فى أعماقه ! على أن الامر بالنسبة الى ، ينطوى على حزن هائل وخطب جسيم ٠ فمهما تكن كريما طيبا فاننى لن أستطيع تملصا وا أسفاه ، فها هو ذا أمر الاعدام كامل الشروط ، وموقع عليه ، بل ومختوم بخاتمه القرمزى الرهيب ٠٠ لا ينقصه شيء ! »

فحيانى فى أدب ، ووجهه يتخضب بالاحمرار ، ثم قال فى صوته ذى النبرة الحلوة المألوفة : « لست أطلب شيئا أيها القائد ، بل انه ليسوؤنى ان جعلتك تقصر فى واجباتك دون أن أدرى ٠٠ ولكنى أود أن أتحدث الى لور ، هذه التى أرجو أن تحميها ، لو قدر لها أن تعيش من بعدى ، وهو ما لا أعتقد أن يكون ٠٠ »

قلت : « اهذا كل شيء ؟ انه العدل يا بنى ٠٠ واذا لم يسؤك فسأحملها الى اسرتها فى أوبتى الى فرنسا ، ولن أتركها حتى تزهد رؤيتى ، وأكبر ظنى أنها لن تنجو من تلك الضربة القاصمة ٠٠ فيالها من زوجة صغيرة مسكينة ، هدتها ضربات الدهر وهى بعد فى سنى الاحلام ! »

وأمسك الفتى بكلتا يدى يهزهما ويقول فى لهجة كلها بسالة : « قائدى الشجاع ! انك لتقاسى أكثر منى فيما بقى عليك أن تعمله ! انى لأحس ذلك جيدا ٠ ولكن ماعسى أن نستطيعه ازاء حكم الاقدار ؟ سأعتمد عليك أيضا فى

تولى حمايتها ، وفى مساعدتها على الحصول على ماقد يؤول اليها من تركة أمها العجوز ، بل سأعتمد عليك فى أكثر من هذا ٠٠ فى أن تكفل لها الراحة والطمأنينة ، وتضمن لها حياة الطهر والشرف ٠٠ أليس كذلك ؟ وأيضا فيما يكون من العناية بصحتها دائما ٠٠ »

ثم واصل حديثه ، وقد انخفض صوته ، قائلا : « انصت الى ، فانى أود أن أخبرك أنها رقيقة الى حد بعيد ، وكثيرا مايتأثر قلبها حتى ليغشى عليها مرات عديدة فى اليوم ٠ أواه يا الهى ! انها لا تزال طفلة ، فينبغى لها أن تتدثر فى عنـاية غيرها دائمـا ٠ أواه ٠٠ انك ستكون لها أبا وأما ٠٠ سـتكون لها مثلما كنت لها ، ما استطعت واستطاع قلبك الرحيم ياسيدى القائد !٠٠ وهى ان احتفظت بخاتميها اللذين أعطتها اياهما أمها ، كان ذلك من دواعى غبطتى وهنائى ، فى الحياة ومابعد الحياة ٠ أما اذا انتهت بها الحاجة الى أن تبيعهما ، فلا بأس فى ذلك ٠٠ أواه ، كم انت مسكينة يالوريت ! لشدماأرثى لك ٠٠ أنظر ياسيدى القائد ٠٠ كم هى جميلة حالمة الروح ! »

وهكذا أنشأ الحنان يفيض فى نفسه فيضانا ضاق جلدى به ، فتكلفت تقطيب حاجبى ، وقد كنت أحدثه متكلفا المرح ، حتى لايدب الى نفسى الخور ، ولكنى لم أستطع ضبط نفسى ، فقلت له : « حسبك هذا ، فان مابقى من ذيول الحديث يفهم بالبداهة ، بين رجلين فاضلين ٠٠ والآن ، هلم نتحدث اليها ٠٠أسرع!»
وشددت على يده كما يشد الصديق على يد الصديق ٠ فلما لم ينصرف عنى ، وظل ينظر الى فى أسلوب غريب ، قلت له : « اذا كانت عندى نصيحة ما أزال أدخرها لك ، فهى ألا تخبرها بما سوف يكون ، وسنسوى كل شيء من غير أن تشعر هى ، ومن غير أن تشعر أنت ٠ فدع اذن الامر لى ، وماعليك الا أن تعتصم بالهدوء !»

ـ آه ، لقد اختلف الامر اذن ، فانى لم أكن منتبها لما تعنى ٠٠ حقا انه لخير لى ولها ٠٠ فان الوداع ٠٠ ان الوداع لمما يخور له عزم المرء أيا كان جلده !
ـ أجل ٠٠ أجل ياصديقى ، ولكن لا تكن طفلا ٠ لخير لك ألا تعانقها ، ما استطعت ، والا فقدت ثبات نفسك !

وشددت على يده مرة أخرى ، وتركته ينصرف ٠ لقد كان ذلك عنيفا على نفسه ٠ بل ما كان أقساه حقا على كل منا !

ولقد أثبت لى أنه يرعى السر حقا ، فقد راحا يتجولان ، وتأبط كل منهما ذراع صاحبه زهاء ربع الساعة ٠ ثم عادا الى الماء يمسكان بالخيط والثـوب !
وأقبل الليل حثيثا مسرعا ، فكانت اللحظة التى قررت اتمام المهمة فيها ٠ ومازالت هذه اللحظة شديدة الوقع على كأنها لحظة من يوم الهول الاكبر ٠٠

بل لسوف انوء بها حياتى كلها ، كأنها الاغلال الابدية التى يعجز الدهر عن تحطيمها ماعشت !»

★★★

◆ وهنا رايت الضابط الشيخ يهتز من فرعه الى قدمه ، وكأنما تندت عيناه بالدمع ، بل لقد ذاب بياضهما ذوبا فى سيل من دموعه الصامتة . ولم أشأ أن أتكلم حتى لا أشتت عليه أفكاره ، ثم عاد الى حديثه وهو يصك بجمع يديه صدره .. ورن صوته المبحوح فى السكون المخيم حولنا وهو يقول : « ان تلك اللحظة - وأعترف لك بذلك - مازلت لا أستطيع لها فهما ولا ادراكا ، فقد أحسست فيها بالثورة تأخذ بناصيتى ، على أننى ماكنت أعلم فى الوقت نفسه سر ذلك الشعور الذى كان يرغمنى على الطاعة ، ويدفعنى دفعا الى الاقدام دون ما وعى ! .. ومن ثم دعوت الضباط الى ، وقلت لأحدهم : « هلم فأنزل زورقا الى البحر ، مادمنا قد أصبحنا جلادين منذ اليوم !.. وعليك أن تنزل هذه المرأة اليه .. أمعن بها فى عرض البحر .. أسامع أنت ؟ وثابر على التوغل بالزورق حتى تسمع طلقات النار ، وعندئذ عليك أن تعود ! »

ولا بد أن شيئا فى الفضاء كان يدفعنى الى كل تصرف أقدمت عليه . ونظرت الى الفتى من بعيد .. كان مرآه رهيبا وهو يركع أمام لوريت فيقبل ركبتيها ، وينثنى فيلثم أقدامها ! .. ولك أن تتصور كم كنت شقيا ساعتئذ ، حتى لقد صحت كما يصيح مجنون : « افصلوهما .. اننا جميعا لمجرمون .. لأهجرن البحر بعد هذا اليوم المنحوس .. انى لا أخاف هؤلاء المحامين جميعا من ثرائرة السياسة وجلاديها ، فمن مبلغ هؤلاء الوحوش فى باريس كل هذا الذى أقول ؟! وماذا عسى أن يفعلوا بى ؟.. آه ما كان أبلغ ريبتى فيهم ! بل ماكان أشد تحرقى الى أن أمسك بهم فأطلق الرصاص عليهم .. أولئك الخمسة جميعا .. اولئك اللصوص ! وما كنت عن قتلهم محجما ، فقد كنت لا أقدر الحياة الا كما أقدر قيمة الماء الذى يهطل الآن .. أجل لست أقدرها أبدا ، حياة كحياتى .. آه .. أجل ، حياة بائسة تافهة ، ليتها انقضت وولت !»

وجعل صوت الضابط يهن رويدا رويدا ، فاذا صوته كأقواله ، مضطرب لا يكاد يبين . وسار يعض شفتيه ، وهو عابس مقطب الجبين والحاجبين ، فى ذهول وحشى رهيب . وكان بين لحظة وأخرى يختلج من رجفة عصبية تملكت جسده ، فينهال على بغله الصغير بغمد سيفه ضربا كأنه يريد أن يقتله !.. ولكن الذى أدهشنى هو أنى رأيت بشرة وجهه المصفرة ، تكتسى فجأة بحمرة داكنة .. وكان يتحدى الريح ويتحدى المطر ، فيفتح لهما رداءه فى عنف ، ويعرض لهما صدره !.. وواصلنا سيرنا فى صمت أشد عمقا .. وقدرت أنه

لن يتحـدث من تلقاء نفسه ، فلم يكن بد من ان اشرع فى سؤاله . قلت له كأنه قد اتم قصته : « افهم جليا أن المرء اذا انتهى الى مثل هذه المغامرة القاسية ، نظر الى مهنته فى هلع ورعب !»

فاذا به يجيبنى بغتة : « ماذا تقول ؟ أهى المهنة ؟ امجنون أنت ؟! ليس بالمهنة بأس ، غير أنه ماكان لقائد سفينة أن يجبر يوما على أن يكون جلادا . ما كان ذلك ليكون الا اذا حلت حكومات من اللصـوص والمرتشين والقتلة ، يستغل رجالها ما اعتاده مسكين مثلى من طاعة ، عمياء لا تعرف النكوص يوما .. طاعة ذليلة تجعل منه آلة انسانية تعسة ، على الرغم من كل مشاعر الرحمة والطيبة النابض بها قلبه ! »

ثم أخرج من جيبه منديلا أحمر وضعه على وجهه ، وأنشأ يبكى كأنه الطفل .. فتوقفت لحظة كأنى أصلح من سرجى ، حتى سبقتنى العربة ، فواصلت سيرى أقفو خطاها زمنا ، اذ قدرت مايكون من خجله اذا أبصرت دمعه الهامى فى وضوح !

.. ولقد صدق حدسى ، فاذا هو بعد زهاء ربع الساعة يأتى الى وراء ركبه البائس يسألنى اذا كنت أحمل مـوسى فى متـاعى ؟ .. فأجبته فى بساطة ان لحيتى لم تخضر بعد بالشعر النابت ، فلا حاجة بى الى الموسى ! ولم يعقب هو بشىء ، بل ظل لائذا بصمته الرهيب فترة ، ثم قطعه وقد بدا عليه أنه يريد أن يواصل حديثه .. وسررت اذ رأيته يعود الى قصته ، فقد قال بغتة : « انك لم تر فى حياتك سفينة ما .. أليس كذلك ؟!»

قلت : « بلى ، اللهم الا ما رأيت فى أحد معارض باريس ، ومع ذلك فانى لم أفد منها علما بحريا كبيرا أعتد به ».. فأجابنى بأنى لا أعرف اذن جزءا معينا من السفينة سماه لى ، قلت « مافى ذلك شك »

قال : « انه مكان فسيح على ظهر السفينة يبرز من مقدمها فى الموضع الذى يربط فيه حبل المرساة » .. ثم أضاف قائلا فى صوت منخفض : « فاذا كان اعدام رجل فهو يجرى هناك غالبا »

قلت : « أجل ، حتى يسقط الى البحر من مكانه ذاك مباشرة ! »

ولم يجب ، وانما شرع يصف كل مايمكن أن تحمل السفينة من زوارق ، ومواضعها من السفينة ، ثم ينتقل فى غير مناسبة أو ترتيب لافكاره الى ما كان يقص على ، متكلفا هذه الاستهانة التى يكسبها طول الخدمة العسكرية . فانه ينبغى للضـابط أن يظهر لمن كانوا دونه مرتبة استهانته بالخطر واستصغاره لشأن البشر ، واحتقاره للحياة ، واستخفافه بالموت .. بل واحتقاره لوجوده هو ذاته ! وان هذا كله ليخفى فى أغلب الاحيان شعورا رقيقا تحت ستر صفيق .. فان قسوة رجل الحرب لأشبه ما تكون بقناع من حديد على وجه نبيل ، او

بغياهب السجن الحجرى المظلم وفى قاعه ربيب الملك !



ثم استطرد محدثى قائلا : « ويتسع الزورق من هذه لستة أشخاص ، القوا بأنفسهم اليه مع لور ، لم يتيحوا لها من الزمن ماتستطيع فيه اطلاق استغاثة أو الهمس بكلمة ٠٠ آه ، ان هذا أمر لا يستطيع الرجل الكريم أن يسلو أو يتعزى عنه اذا كان هو سببه ومصدره ، ومهما يقل المرء فلن يعرف لحدث مثل هذا نسيانا ! ياله من جو ، لقد أغرق المطر معطفى ! ٠٠ ترى أى شيطان دفعنى الى أن أقص عليك هذا ! ـ فانى لا أستطيع عنه صمتا حتى أبلغ نهايته ـ لقد كنت أحدثك ، فيما أعتقد ، عن هذه الصغيرة لوريت ٠٠ يا لهـا من امرأة مسكينة ! ٠٠ وكم فى الدنيا من حمقى أغبياء ، فلقد بلغ من غباء مساعدى أن قاد زورقه أمام مقدم السفينة ـ واذن من الحق أن نقول بعد هـذه الحادثة ، ان المرء لن يستطيع رد القضاء ببعد النظر ! ـ أما أنا فقد كنت أعتمد على الليل فى اخفاء فعلتى ، وماطاف بذهنى ما ينبعث من ومض اثنتى عشرة بندقية تطلق فى لحظة واحدة ٠٠ فلقد رأت لور من الزورق زوجها يهوى الى اليم صريعا ! ٠٠ والله يعلم كيف وقع الذى حدثتك به ، أما أنا فلست أعلم شيئا ، غير انهم رأوه وسمعوه كما أراك وأسمعك ٠٠ فما أن انطلقت النـار حتى رفعت «لوريت» يدها على رأسها كأن رصاصة أصابت جبينها ! وظلت جالسة فى الزورق لم يغم عليها ، ولا صرخت أو نطقت ٠٠ حتى أعيدت الى السفينة حين أريد لها الرجوع ، وكما أريد لها الرجوع ٠٠ وعندئذ قصدت اليها فحدثتها طويلا ، وبأرق ما أستطيع من حديث ، فبدت لى كأنها تنصت الى ، ولكنها كانت تحدق فى وجهى وهى تعرك جبينها ٠٠ وان على جبينها لحمرة وان فى وجهها لشحوبا ٠ ولقد هزت الرجفة أعضاءها جميعا ، كأنما كان بها من الناس خوف عظيم !٠٠ واتصل على هذا المنوال حالها ، وما زالت المسكينة بلهاء ، أو ذاهلة ـ أو مجنونة ، ان شئت ـ وما استطاع أحد أن يظفر منها بحديث ، اللهم الا أن تطلب أن ينزع من رأسها ما أصابه !

« وأصبحت منذ تلك اللحظة أعدلها أسى وحزنا ، وأحسست شيئا فى نفسى يهمس الى : « كن نصب عينيها ماحييت واحمها » ٠ وقد فعلت ، فلما أن عدت

الى فرنسا طلبت أن أنقل بمرتبتي الى جيوش البر ، اذ أصبحت انظر الى البحر بعين كلها البغض ، بعد أن سفكت فيه دما بريئا !٠٠ وبحثت عن أسرة لوريت ، فاذا أمها قد ماتت ٠ أما أخواتها اللائى حملت اليهن المسكينة وهى تهذى هذيان الجنون ، فقد اعرضن عنهاوزهدن فيها ، ونصحننى أن أودعها مستشفى (شارنتون) ٠٠ فاوليتهن ظهرى وأبقيتها معى !٠٠ آه ، يااربى ٠٠ انك ان أردت أن تراها أيها الرفيق فلن يتوقف ذلك الا عليك ٠٠»

قلت : « أتراها فى هذه العربة ؟»

قال : « مافى ذلك شك ، تعال ! بل انظر » ٠٠ وصاح ببغله ان يقف

٣ ــ نهاية المأساة !

◆ **أوقف** محدثى بغله المنهوك ، الذى خيل لى أن قد سرته رغبتى هذه ! ٠٠ ثم رفع غطاء العربة الصغيرة كأنه يريد أن يسوى التبن الذى يكاد يملأها ، فاذا بى أرى مشهدا مؤلما يفعم القلوب أسى ، ان لم يقطع نياطها ٠٠ **رأيت عينين زرقاوين ، كبيرتين ، نجلاوين ، تخرجان من رأس ممتقع نحيل مستطيل ، كان يغمره شعر مسترسل ٠ وما رأيت فى الحقيقة سوى هاتين العينين اللتين كانتا كل ما فى هذه المرأة البائسة ، فلقد كان ما عداهما فيها ميتا ! كانت جبهتها حمراء ، ووجنتاها الغائرتان البيضاوان تخالطهما زرقة ، وكانت قابعة وسط القش حتى لا يكاد الناظر يميز منه سوى ركبتيها البارزتين ، اللتين كانت تلعب عليهما « الدومينو » وحدها !٠٠** ونظرت هى الينا لحظة ، فارتعدت طويلا ، ثم ابتسمت لى قليلا ٠٠ وما لبثت أن مضت فى لعبها ، وقد بدا أنها تجتهد فى أن تفهم كيف تغلب يمناها يسراها !٠٠ بينما قال لى القائد : « انظر ، انها قائمة بهذه المباراة منذ شهر ، وأكبر الظن أنها سوف تبدأ غدا مباراة أخرى تطول ، أما ترى ذلك عجيبا ؟ »

٠٠ قال ذلك وهو يصلح غطاء رأسه الذى نال منه المطر ، فهمست لنفسى : « أيتها المسكينة لوريت ! لقد خسرت المباراة الى الابد ! » ٠٠ ثم دنوت بجوادى من العربة ومددت اليها يدى ، فأعطتنى يدها فى حركة آلية وهى تبتسم فى ملاحة

جمة ، فاذا بى أتبين فى شىء من الدهشة أن فى أصبعيها خاتمين من الماس ، أدركت أنهما خاتما أمها ، وعجبت كيف أبقى عليهما البؤس حيث هما ! وما كنت لانبه الضابط الشيخ الى ذلك ولو منحت عالما بأسره . ولكنه تبع نظراتي ، فلما وجد عينى تستقران على أصابع لور ، قال فى لهجة فيها كثير من الزهو والخيلاء : « انهما ماستان غليظتان ، اليستا كذلك ؟ .. ما كان أيسر أن يكون لها ثمنهما فى حينه ، ولكنى لم أشأ أن أفرق بين هذه الطفلة المسكينة وبينهما . ثم انها تبكى اذا لمسهما أحد ولا تخليهما . على أنها لا تشكو من شىء أبدا ، وهى تستطيع الحياكة من حين الى حين . **ولقد صنت كلمتى ووعدى اللذين بذلتهما لزوجها المسكين . والحق أني ما ندمت على ذلك، فما تركتها يوما ، بل كنت أقول في كل مكان انها ابنتى وانها مجنونة ، فكان قولى يقابل بالتجلة والاحترام** . وفى الجيش تنتظم الامور أفضل مما نقدر ـ فى باريس ـ انها تنتظم . ولقد زاملتنى لوريت فى حروب الامبراطور جميعا ! .. وانها لتتمتع بعناية كافية ، فانى أتقاضى مرتبا محترما بصفتى قائد فرقة ، كما أتقاضى معاش « عصبة الشرف » ، ثم « مكافأة نابليون » ـ التى كانت مبلغا مضاعفا اذ ذاك ـ ومن ثم كان عيشى خافضا ميسورا . وما ضايقتنى هذه الطفلة قط . بل على العكس ، كانت صغائرها تضحك ضباط الفرقة السابعة أحيانا .. »

وهنا اقترب محدثى منها ، وربت على كتفها كما كان يفعل مع بغله الصغير ، ثم قال : « الا يا ابنتى ، هلا تكلمت ، هلم تحدثى الى هذا الملازم ، هيه .. ايماءة صغيرة من رأسك » .. ولكنها انصرفت الى لعبها ، فقال صاحبى : « انها اليوم نفور بعض الشىء ، لأن الجو مطير ، ومع ذلك فالزكام لا يصيبها أبدا ـ فان المجانين لا يمرضون قط ، وهذه ميزة جميلة فيهم ! ـ وقد بقيت عارية الرأس فى (برسينا) ، وفى تقهقرنا عن

موسكو ! ٠٠ هيا يا ابنتى ، العبى دائما ، ولا تراعى منا ، افعلى ما تريدين يا لوريت » ٠٠

وأخذت الفتاة يده التى كانت مستقرة على كتفها ، هذه اليد الغليظة السـوداء المتغضنة ، فرفعتها الى شفتيها فى حياء ، وقبلتها كأنها الجارية البائسة ٠٠ وأحسست أن قلبى تعتصره هذه القبلة ، فحولت زمام جوادى فى عنف وأنا أقول : « انا نريد أن نواصل سيرنا أيها القائد ، فلن نبلغ (بيتون) قبل أن يجن الليل ٠ »

فأزاح الضابط بطرف سيفه ، وفى شىء من عناية ، ذلك الطين الاصفر الذى حمله حـذاؤه الكبير ، ثم صعد الى سلم العربة فأعاد الى رأس لور قلنسوة « برنس » من جـوخ كان لها ٠ وخلع رباط رقبته الحريرى الاسود فطوق به عنق فتاته المتبناة ٠٠ ثم هوى على بغله بركلة من قدمه ، اتبعها بهزة من كتفيه ، وهو يقول : « سر أيها الركب المتلكىء »

٠٠ ومضينا نسير ، ومضى المطر ينهمر فى أسى ، واذا السماء والارض شهباوان ، وقد خيل الى أنهما تمتدان الى غير نهاية ، وثمة بصيص من نور هامد ينم عن شمس شاحبة كانت تهوى وراء طواحين كبيرة صامتة ساكنة ٠٠ ثم عاد يغمرنا الصمت العميق !

وكنت أنظر الى ضابطى العجوز ، وهو يسـير بخطـوات واسعة ، فى همة قوية ونشاط متصل ٠٠ فى حين كان بغله قد أعياه الجهد ، وكان جوادى أيضا يحنى رأسه ٠٠ وكان هذا الرجل الشـجاع الكريم ينزع بين حين وآخر قبعته من عـلى رأسه ليجفف من المطر جبهته الصلعاء وشعر رأسه الاشيب ، أو حاجبيه الغليظين ، أو شاربه الابيض ٠٠ ولم يكن يشغله أى أثر تركت قصته فى نفسى ـ فما حسن حاله ولا ساء عن الذى كان عليه ـ ولا حاول أن يرسم لى نفسه أو يبينها ، بل ما كان يفكر هو فى نفسه قط ٠ وبعد ربع ساعة ، بدأ يقص على قصة

أطول من الاولى ، عن أحدى حملات الماريشال « مسينا » ، وكان هو قد اشترك فيها ، وشكل فرقته على هيئة مربع ضد لا أدرى أية فرقة من الفرسان • ولم أصغ اليه بالطبع ، وان تحمس هو ليبين لى سمو جندى المشاة على الفارس !

* * *

• **وأقبل** الليل ، فلم نعد نتقدم الا فى بطء • وازداد الطين كثافة وعمقا ، وأقفر الطريق ، فلم يكن به شىء • وأفضى بنا السير الى جذع شجرة ميتة ، كانت الشجرة الوحيدة فى هذا الطـــريق ، فانهمك صاحبى فى العنـــاية ببغله ، وشغلت أنا بجوادى •• ثم نظر الى داخل العربة كما تنظر الأم الرءوم الى مهد طفلها ، وسمعته يقول : « **هيا يا ابنتى •• ضعى هـــذا المعطف على قدميك واجتهدى أن تنامى ، هيا •• هذا جميل ، فليس عندها قطرة واحدة من مطر • يا للشيطان ! لقد كسرت ساعتى التى تركتها فى رقبتها ، يا لساعتى الفضية الثمينة !•• ولكن ، لا ضير ، حاولى أن تنامى يا ابنتى فها هو الجو الصحو الجميل مقبل حثيثا •• عجبا ! انها محمومة دائما ، ولكن ذلك حال المجنونات • خذى ، هاك شيئا من الشكولاته يا ابنتى ••** »

وأسند المركبة الى الشجرة ، وجلسنا تحت عجلاتها نتقى السيل المنهمر ، ونقتسم رغيفين ، واحدا لى وآخر له •• عشاء ردىء ، ولكنه مع قرص الجوع ، لا بأس به ! •• ثم قال لى صاحبى : « يسوؤنى أن لا أجد سوى هذا العشاء ، ومع ذلك فهو خير من لحم حصان يطهى تحت الرماد ثم يوضع عليه البارود بدلا من الملح ـ كما كنا نأكل فى روسيا ! ـ وهذه المرأة الصغيرة المسكينة ، ان على أن أقدم اليها أفضل ماعندى ، وأنت ترى أنى أنتبذ بها دائما مكانا قصيا ، فهى لا تطيق جوارا من رجل ، منذ فاجعتها •• ومع انى رجل عجوز ، وهى تعتقد أنى أبوها فيما يبدو ، فانها تخنقنى ان حاولت أن أقبل

جبينها ليس غير ! فان التربية تترك فيهن دائما شيئا ما ، كما يبدو لى ، لأنها مانسيت قط أن تتحجب كأنها الراهبة . ألست ترى ذلك عجيبا ..؟!»

وفيما نحن ماضون فى حديثنا عنها ، سمعناها تزفر قائلة: « **انزعوا هذا الرصاص ! .. ألا انزعوا منى هذا الرصاص !** » .. فوثبت واقفا ، ولكن مرافقى أجلسنى وهو يقول : « ابق حيث أنت ، فليس فى الأمر شىء . انها تقول ذلك طوال حياتها، فهى تعتقد أنها تحس رصاصة فى رأسها !.. ولكن ذلك لا يمنعها من أن تطيع مايقال لها ، وأن تنفذه فى لين ودعة بالغين!

صمت وأنا أصغى اليه فى أسى ، **وطفقت أحسب أنه منذ سنة ١٧٩٧ حتى سنة ١٨١٥ - التى كنا فيها - مرت على هذا الرجل ثمانية عشر عاما فى صحبة لوريت التعسة !.. ولبثت الى جواره طويلا وأنا واجم ، أنعم التفكير فى هذا الخلق ، وذلك الصبر !** .. وفى غير مناسبة أو تمهيد ، شددت على يد الرجل أهزها هزا يفيض حماسة واعجابا ، فدهش لفعلتى هذه .. واذ ذاك قلت له : « انك لرجل جليل شريف ! »

ولكنه أجاب : « وعلام ذلك ؟ أمن أجل هذه المرأة البائسة ؟ .. انك تدرك جيدا يابنى أنه كان واجبى ، ولقد ضحيت منذ أمد بعيد بـ .. » .. ثم طفق يحدثنى عن الماريشال «مسينا»!

* * *

◆ **وبلغنا** (بيتون) وقد أشرق النهار التالى ، وهى بلدة قبيحة حصينة ، كأن الأسوار التى أحاطت بها قد ضيقت عليها ، فضغطت منازلها بعضها الى بعض ! وكان كل شىء فيها مضطربا من اثر غارة شنت عليها وقتئـــذ .. وقد طفق أهل المدينة يسحبون الأعلام البيضاء من النوافذ ويحيكون الاخرى المثلثة الالوان فى بيوتهم . وقرعت الطبول تهيب بالجميع ، وأطلقت الأبواق أن امتطوا الجيـــاد ، وكان ذلك كله بأمر

الدوق « دى برى » ، فاذا الكتائب والمركبات والمدافع تترى حشودها وصفوفها فتسد منافذ المدينة ٠٠ وقد أنسانى مرأى حرس الملك والفرسان رفيق طريقى الشيخ ، **فانضممت الى فرقتى وفقدت بين حشد الجماهير تلك العربة الصغيرة وصاحبها !٠٠ لقد فقدتهما ـ لأسفى العميق ـ فقدانا أبديا ، الى غير لقاء !**

٠٠ وكانت تلك هى المرة الاولى فى حياتى التى أقرأ فيها ماخط في أعماق قلب جندى حق ٠ ولقد كشف لى هذا اللقاء عن شيمة رجل كنت أجهلها ، وتعرفها الامة معرفة مزرية فلا تعاملها المعاملة اللائقة !ـ ولقد أحللتها منذ ذلك اليوم أرفع مراتب تقديرى ـ بل لقد طالما نقبت حولى عن رجل يشبه صاحبى ذاك ، يستطيع أن يضحى بنفسه هذه التضحية الكاملة ، غير مبال بشىء ، مستهينا بكل شىء ! ولكنى خلال أربعة عشر عاما قضيتها فى الجيش ، لم أجد الا فى الجيش وحده ـ ولا سيما بين تلك الصفوف الفقيرة المنبوذة من المشاة ـ هؤلاء الرجال ذوى الخلق العريق ، الذين يندفعون فى شعورهم بالواجب الى أقصى الغايات والنتائج ، لا يحسون تأنيبا من ضميرهم على طاعة ، ولا يحسون خجلا من فقر أو املاق ٠٠ وانما يحيون سذج الاخلاق ، سذج اللغة ، يفخرون بمجد وطنهم ولا يحتفلون بمجدهم هم ! يقنعون بما قسم لهم من ضآلة الشأن ، ويرضون بأن يحسبوا نكرات مغمورين ، ويشاطرون البائسين خبزهم الأسود الذى يشترونه بدمائهم !

* * *

• **ولقد** ظللت طويلا أجهل مصير ذلك القائد المسكين ، الذى لم يذكر لى اسمه وما سألته عنه ٠٠ حتى اذا كان يوم من أيام عام ١٨٢٥ ـ على ما أذكر ـ وقد كنت فى المقهى ، قال لى قائد مسن من فرق المشاة بعد ان وصفته له وسألته عنه ، ونحن

في انتظار العرض : « **يالله ! عرفته يا عزيزى ، ذلك الشيطان البائس ! لقد كان شجاعا نبيلا ٠٠ وقد صرعته رصاصة في (ووترلو) ، وخلف بالفعل بين أمتعته بنتا مجنونة أو كالمجنونة، اقتدناها الى مستشفى (امبان) ونحن راحلون الى (اللوار) ٠٠ لكنها ماتت هائجة بعد ثلاثة أيام ٠٠** »

قلت ، بنبرة أرعشها الأسى الذى غمر كل كيانى : « أجل، فلست أعتقد غير ذلك ، وكيف لاتموت وقد فقدت أباها الذى تبناها ؟!»

فقال هو فى نغم أراده على أن يكون خبيثا فاجرا : « آه ، ويحك ٠٠ أبوها ٠٠ ها ٠٠ ماذا تقول ؟»

قلت وأنا أهم بالخروج : « أقول ان البوق يعلن ساعة عودتنا الى المعسكر ٠٠ »

HISTORY OF THE DECLINE AND FALL OF THE ROMAN EMPIRE

BY

EDWARD GIBBON

أسباب انحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية

الكتاب الخالد للمؤرخ الانجليزي "جيبون"



تلخيص : محمد بدر الدين خليل

هذا العمل الشامخ ..

◆ لعلك طالما سمعت وقرأت أكثر من اشارة ، أو بالأحرى «اشادة» بهذا الكتاب الجبار الذى يعتبر أعظم عمل أدبى تاريخى عرفته البشرية .. والذى عشقه ومجده اللورد بيرون فى القرن الماضى ، وعشقه ومجده مستر تشرشل فى القرن الحالى .. وبين هذا وذاك ، عشقه ومجده أعظم أساطين الفكر والبحث والتأريخ فى أكبر جامعات العالم ، كما قرأه وشغف به ملايين القراء فى شتى بقاع الارض ، بكافة اللغات التى ترجم اليها ..

واذا كان « كتابى » يعترف بعجزه عن ان يلخص لك ، فى صفحات، كتابا مثل هذا يستغرق ستة مجلدات ضخمة ، استغرق تأليفها من صاحبها ١٢ عاما كاملة .. فلا أقل من أن يقدم اليك هذا الاستعراض السريع الذى يعطيك مجرد « فكرة » عن موضوع الكتاب ، وأبوابه ، وفصوله .. حتى اذا ما راقك ، استطعت لو شئت أن ترجع الى أصله الكامل لتطالعه على مهل .. فى سنوات !

١ ـ روما ... سيدة العالم

◆ فى القرن الثانى للميلاد ، كانت امبراطورية « روما » تشمل أفضل جزء من الكرة الارضية ، وأرقى بقاع العالم مدنية ، اذ كان القيصر « أغسطس » ـ قاهر كليوباترا ـ قد أوصى خلفاءه ـ حين واتته المنية ـ بأن يحتفظوا بالامبراطورية فى النطاق الذى بدا أن الطبيعة قد ارتضته لها ، بين المحيط الاطلسى غربا ، ونهرى الراين والدانوب شمالا ، ونهر الفرات شرقا ، وصحارى بلاد العرب جنوبا ! .. ثم جاءت التسوية التى أبرمت مع كل من بريطانيا العظمى و (داتشيا) ، فانطوت على الاستثناءين الوحيدين اللذين طرآ على ذلك التخطيط .. اذا غضضنا النظر عن فتوحات الامبراطور «تروجان» فى الشرق ، اذ كانت قصيرة الاجل ، وقد أنكرها خلفه « هادريان » ..

وكان الاباطرة الاوائل للامبراطورية الرومانية قد مجدوا اسمها بين أعرق شعوب الارض ، بما انتهجوه من حرص على كرامتها ، دون محاولة لتوسيع رقعتها .. وكانت ضخامة قواتهم المسلحة كفيلة بأن تعزز هذه الكرامة ، اذ استطاعوا أن يصونوا السلام بالبقاء على استعداد دائم للحرب ! .. ولم تكن جيوشهم قاصرة على المجندين من أبناء روما وحدها ، بل ضمت جنودا من كافة أقطار الارض ، ومن أحط البلدان ، وأكثرها تباينا .. بيد انهم كانوا جميعا يرتبطون برباط الولاء للامبراطور ، والمناعة على الاعداء ، بفضل الدجل والخرافات ، وبفعل النظام الصارم ، وبأمل الفوز بالجزاء !

فتوحاتهم كانت فى البر .. لا فى البحر

◆ **وكان** الجيش الرومانى فى زمن السلم يتألف من ٣٧٥ر٠٠٠ رجل ، مقسمين على ٣٠ لواء وزعت فى أرجاء الامبراطورية ، بينما اختير منهم صفوة منتقاة مؤلفة من ٢٠ر٠٠٠ رجل لحراسة العاهل وعاصمته ، وكانوا يسمون « فيالق المدينة » أو « الحرس البريتورى » . وكانوا مبعث كل ثورة شغلت بال الامبراطورية ، وان لم يمتازوا على غيرهم من قوات الجيش فى شىء اللهم الا فى أناقة الملبس ، والتخفف من بعض صرامة النظام ! ومع أن القوات البحرية لم تكن تبدو مناسبة لعظمة الاباطرة الا أنها كانت جد كافية لكل غرض نافع من أغراض الحكم ، **فقد كان طموح الرومان ومطامعهم تتجه الى البر أكثر منها الى البحر ، ولم يكونوا من الشعوب التواقة الى ارتياد البحار ، بل لقد ظل المحيط أدعى لخوفهم منه الى استثارة فضولهم . وكانوا قانعين بالبحر الابيض المتوسط ، الذى دخل كله فى امبراطوريتهم ، بعد القضاء على (قرطاجنة) التى كانت مركز القرصنة فى شمال افريقيا !** .. وقد اقتصرت سياسة الاباطرة على صيانة ذلك

البحر والسيطرة السلمية عليه ، وحماية تجارة رعاياهم فيه ، ومن ثم اكتفى « أغسطس » بأسطولين دائمين ، اتخذ لهما من ميناء (رافينا) ـ على شاطىء الادرياتيك ـ و (ميزفوم) ، على خليج نابولى ، قاعدتين ٠٠

شبكة من الطرق تربط أجزاء الامبراطورية

◆ **وكان** شعار الرومان يتمثل فى قول الفيلسوف «سنيكا» : « اينما وصل الرومانى فى فتوحاته ، استقر وأقام » ٠ ومن ثم أقيمت فى كافة أنحاء الامبراطورية مستعمرات كان معظم سكانها من الجنود القدامى ٠ وتجلت عظمة نظام الحكم الرومانى فى المدن الغنية ، الفخمة ، الحافلة بأروع المعابد والحمامات والبنايات العامة ٠٠ ففى بريطانيا مثلا ، أقاموا (يورك) مقرا للحكومة ، وكانت (لندن) قد اكتسبت من التجارة ثراء ، فى حين اشتهرت (باث) بمياهها الصحية ٠٠ **وكانت جميع المدن الكبرى فى الامبراطورية مرتبطة بعضها ببعض ، ومرتبطة جميعا بالعاصمة بالطرق العامة التى كانت تبدأ من « الفورم » ـ الساحة العامة ـ فى روما ، وتخترق ايطاليا ، ثم تتشعب في الولايات ، لتلتقى ثانية عند حدود الامبراطورية** ٠٠ وكانت هذه الشبكة تمتد فى خطوط مستقيمة من مدينة الى أخرى ، وقد تغلب المهندسون الرومان على كل عقبة صادفتهم فى انشائها ، فشقوا الجبال ، وأقاموا الجسور على المجارى المائية ، ليمكنوها من أن تنطلق مستقيمة ٠ وكان الجزء الاوسط من كل طريق ، يرتفع عن مستوى الاراضى المحيطة ، بحيث يتسنى رؤيتها للمسافر على الطريق ٠ وقد استخدمت فى تعليته طبقات من الرمل والحصى والاسمنت ، ثم عبدت بالجرانيت والاحجار الكبيرة ٠ كما أقيمت علامات لتحديد المسافات ، وانشئت « استراحات » كل خمسة أميال أو ستة ، لتوفير الراحة للمسافرين فى الرحلات الطويلة ٠ والى جانب

الغرض الذى أدته هذه الطرق ، من ربط شعوب الامبراطورية ، فانها كانت خير معوان للتعجيل بايفاد القوات الى أية بقعة من الامبراطورية ، ولتمكين الحكومة من السيطرة على الولايات ٠

واذا كانت سهولة وحرية اتصال ارجاء الامبراطورية ، قد ساعدت على انتشار الرذائل والمفاسد ، فانها من ناحية أخرى أعانت على تحسن الحياة الاجتماعية : فترك الهمج الاجلاف من أهل بلاد « الغال » ـ فرنسا ـ اسلحتهم لينصرفوا الى الزراعة التى تقدمت فى جميع أنحاء الامبراطورية ، فدرت الخير والثراء ٠ وكانت أية ضائقة تنزل باحدى الولايات ، لا تلبث أن تقابل بالامدادات والعون من الولايات الاخرى ٠٠ وما لبثت وفرة المنتجات الزراعية أن مهدت لقيام الصناعات ، وازدهار التجارة ٠٠

ومع ان نظام الرق ظل قائما فى الامبراطورية ـ رغم هذه العظمة وهذا الرقى ـ الا أن مركز العبيد تحسن كثيرا ، فانتزع من السادة حق التحكم فى حياة العبد وموته ، وعهد به الى القضاة٠٠كما أبيح للعبد أن يستجير بالقضاء من طغيان مولاه ٠٠ وكان القضاة ـ أو المأمورون القضائيون ـ يمارسون سلطات الامبراطور والمجلس التشريعى معا فى ارجاء الامبراطورية ٠٠ وبينما كانت اللغة اليونانية هى لسان العلم، كانت اللغة اللاتينية هى لسان الحكم والادارة ٠٠

٢ ـ بذور الانحلال

◆ اذا كان المجتمع الرومانى قد تشبث بالسلام ، الا انه ضم فى طياته بذور الانحلال ٠٠ فان السلم الطويل ، وجمود الحكومة على وتيرة واحدة ، بثا سما بطيئا ، خفيا ، فى النواحى الحيوية فى كيان الامبراطورية : فأخذت عقول الناس تهبط الى المستوى العادى ، وخبت جذوات النبوغ ، وتبخرت الروح العسكرية ، وارتضى المواطنون أن يكون العاهل هو صاحب السلطان ومصدر القوانين والحقوق ووكلوا امر الدفاع عنهم الى الجنود المرتزقة ٠ ولم يتبق لهم

من حريتهم العريقة سوى اسمها ! .. وقد حرص « اغسطس » على ان تبقى مبادىء الحكم مجرد أسماء ومظاهر .. فكان المجلس التشريعى « السينات » هو الذى يكل الحكم الى الامبراطور ، وهو الذى يخلع عليه الألقاب القديمة مثل « القنصل » و « التربيون » - أى حامى حقوق البشر - و «البونتيف» - أى الحبر الاعظم - و « السنسور » ، أى الرقيب .. بل ان تقاليد الجمهورية كانت تمنحه لقب « امبراطور » ، على أن لا يحمله لأكثر من عشر سنوات .. على ان هذه المظاهر الجليلة التى بقيت الى آخر أيام الامبراطورية ، لم تحجب السلطة « الاوتوقراطية » الاستبدادية التى كان يستمتع بها الامبراطور فى الواقع ..

وكان « أغسطس » قد أثار فى عقول جنوده كل ما تبقى من نعرات التعصب الرومانية العتيقة ، ثم احتفظ بمهابة المجلس التشريعى الذى كان يعين هو جميع أعضائه .. فاستقر الحكم نحو ٢٢٠ سنة ، لم يتخللها من الاحداث العنيفة سوى مقتل الامبراطورين « كاليجولا » و « دوميتيان » فى قصرهما بأيدى حاشيتيهما .. ولقد اهتز العالم الرومانى حقا للاحداث التى أعقبت موت « نيرون » ، اذ قتل أربعة من الامراء بحد الحسام فى ثمانية عشر شهرا ! .. لكننا اذا استثنينا هذه الأحداث ، نجد ان القرنين اللذين انصرما بين حكم « اغسطس » وحكم « كومودس » لم تعترضهما ثورات ولا قلاقل تذكر ..

أخت الامبراطور تحاول اغتياله !

◆ ومع ان المواطنين الرومان كانوا يئنون تحت وطأة طغيان الأباطرة وبطشهم وجورهم ، الا ان الجيش لم يفطن تماما الى قوته ويمارسها ، لصالح الشعب ، الا حين تولى الحكم « كومودس » ، ابن الامبراطور الفيلسوف « ماركس اوريليوس » .. فان الرذائل التى اقترنت بحكم « كومودس » هذا فى الأعوام الثلاثة الاولى ، أضرت بالامبراطور أكثر مما أضرت بالدولة ، اذ أغرق الأمير نفسه فى ملذاته - تاركا مقاليد الامور فى أيدى مستشارى أبيه - الى ان أقدمت اخته « لوسيلا » على محاولة اغتياله فى سنة ١٨٣ .. ومع ان طعنتها لم تبلغ جسده ، الا ان الكلمات التى ذكرتها وهى تحاول طعنه ، تغلغلت فى فؤاده .. فقد قالت : « ان مجلس « السينات » يبعث لك بهذه ! » .. ومن ثم انقلب الامبراطور على المجلس التشريعى دون ما اشفاق أو رحمة ! كان مجرد تمتع أى عضو بالثراء أو الفضيلة كفيلا باثارة ريب الامبراطور الحاقد ، كما غدا الشك بمثابة الدليل والبرهان ، وصارت المحاكمة سبيلا للادانة والاعدام ، فسالت دماء أعضاء المجلس التشريعى

انهارا ! ٠٠ بل لقد ذهب الامبراطور فى حنقه الى حد التضحية بوزيريه : « برينيس » ـ ليحد من غضب القوات المتمردة فى بريطانيا ـ و « كلياندر » ، ليهدىء من ثورة الاهالى المتذمرين فى احدى المجاعات !

وهكذا انعدم كل شعور بالفضيلة والانسانية فى نفس « كومودس » ، كما قضى على مكانته لدى الشعب بمباذله ومفاسده ، وظهوره فى الحفلات العامة فى ألعاب مستهجنة تحط من كرامته فى نظر الناس ! ٠٠ ثم حانت نهايته حين سقته احدى محظياته كأسا من خمر اذيب فيها مخدر ، ثم نفذ رئيس الحرس البريتورى الى مخدعه فخنقه ! ٠٠ ثم سعى المتآمرون الى « برتيناكس » ـ محافظ روما ـ وأغروه على تقلد السلطان ، كما اكتسبوا بالمال تأييد الحرس البريتورى ٠٠ وتقبل أعضاء المجلس التشريعى ـ فى ابتهاج ـ العاهل الجديد ، فظل « برتيناكس » يحكم الامبراطورية ستة وثمانين يوما فى حزم واعتدال ٠ ولكن النظام الصارم العتيق الذى أراد أن يبعثه فى الجيش من جديد ، أثار حقد الحرس البريتورى عليه ، فاغتيل فى ٢٨ مارس سنة ١٩٣

٣ ـ امبراطورية فى المزاد !



◆ وبهذا الاغتيال خرق الحرس البريتورى حصانة العرش ، ثم قضى أفراده بتصرفاتهم التالية على كرامته وجلاله ، اذ انطلقوا فى جنبات روما يعلنون أنهم يمنحون الامبراطورية لمن يدفع الثمن الأكبر ، فرسا « المزاد » على « دميريس جوليانس » ، الذى عرض منح الجنود ما يعادل ٢٠٠ جنيه لكل منهم ٠٠ فتبوأ العرش ، واعترف به مجلس « السينات » امبراطورا !

وتلقى الجنود المرابطون على حدود الامبراطورية نبأ هذه المزايدة بالدهشة ، والاستنكار ، وبشعور لعله الحسد! ٠٠ وتهيأ « البينس » ـ حاكم بريطانيا ـ و « نيجر » ـ حاكم سوريا ـ و « سبتيميس سيفرس » الافريقى ـ قائد

احـد الجيوش للانتقام للامبراطور المقتـول ، والاستيلاء لأنفسهم على العرش ! ٠٠ واستطاع « سيفرس » بالفعل أن يقضى على دفاع الامبراطور « جوليانس » وينهى حكمه الذى لم يدم لأكثر من ستة وستين يوما ! ثم وجه جيشه ضد منافسيه الآخرين فقضى عليهما خلال ثلاثة أعوام ، ووطد بذلك سلطانه ٠٠ ومع انه لم يخف عداءه للمجلس التشريعى الا انه حكم فى حزم ، وشدة ، وعدل ، ولعله لم يصدر فى مناصرة الفقير والمظلوم عن دوافع انسانية ، بقدر ما صـدر عن رغبة فى الحط من كرامة الكبراء والعظماء ، والهبوط بجميع رعاياه الى مستوى المواطن العادى ٠ وما لبثت روما ان ازدهرت فى عهده ، وساد العالم سلام تام ٠٠

قابيل ٠٠ وهابيل !

◆ على ان هـذا الامبراطور الافريقى ارتكب أخطاء كانت ذات أثر فى مستقبل البلاد : اذ خفف من صرامة النظام الذى فرض على الجيش ، ورفع مرتبات الجنـود فوق كل حد عهدوه من قبل ، ثم أعاد انشاء الحـرس « البريتورى » الذى كان قد ألغى بعد « المزايدة » المشئومة ٠٠ كما عزز الجبروت والاستبداد بأن ملأ المجلس التشريعى بأنصاره ، مما كفل تقبل كل حد من الحريات بالموافقة والتحبيذ ٠٠ وفى سنة ٢١١ قضى نحبه مرهقـا باعباء حملة كان قد وجهها الى « كليدونيا » ، وبمنازعات ولديه « كركلا » و « جيتا » ٠٠

وأوصى « سيفرس » فى لحظاته الاخيرة بالحكم لولديه معا ، كما عهد بهما الى رعاية الجيش ٠٠ فأقيم الشقيقان المتعاديان امبراطورين مشتركين !٠٠ ولكن لم ينقض عام ، حتى حرض « كركلا » على اغتيال أخيه ! ٠٠ ثم عمد الى القضاء على كل من كان يذكره بجريمته ـ حتى لقد قتل عشرين ألفا من الرجال والنساء ، لمجرد الارتياب فى انهم كانوا من أنصار شقيقه «جيتا» ! ـ وغادر روما بعد عام ، فراح يتنقل بين الولايات ، جاعلا كل ولاية بدورها مسرحا لقسوته وظلمه ، الى ان اغتيل فى سوريا فى ٨ ابريل سنة ٢١٧ ٠٠

وفى ٧ يونيو من العام التالى اغتيل خليفته ، ليتبوأ الحكم «الاجابالس» ، حفيد « سيفرس » ، الذى انغمست روما فى عهده فى أرذل المفاسد التى يمكن أن تنحط اليها الطبيعة البشرية ! ٠٠ وبلغ ترديه ادنى درك حين أخذ يقلد النساء فى لباسهن ومسلكهن ، فأدى استهجان الجنود لتصرفاته ، الى اغتياله فى ١٠ مارس سنة ٢٢٢ ٠٠ ونودى بابن عمه « الكسندر سيفرس » خليفة له ، فظل يحكم فى عدل واعتدال ثلاثة عشر عاما ٠٠ حتى اذا حاول ان يعيد النظام الى صفوف الجيش ، اغتيل فى ١٩ مارس سنة ٢٣٥ ، وتولى عرشه « مكسيمين » ، كبير مساعديه ٠٠

٤ ـ الظلم والدمار

◆ واذ كان « مكسيمين » من اصل وضيع ، واسلاف غير متمدينين ، فقد أخذ خوف الاحتقار يدفعه الى أن يكون من اعتى القساة الذين حكموا الدولة الرومانية ! وكان ادراك مناصريه وأعوانه لأصله سببا فى اعدامه اياهم ، وكانوا آلافا ! ٠٠ ثم ظل ثلاثة أعوام يحكم وهو يتنزه بين ضفاف (الراين) و (الدانوب) ، فارضا جوره على الدولة ، ممتهنا كل مبدأ قانونى وكل عدالة ، مبتزا أموال الرعايا والمجالس البلدية ، مجردا كل أثر ـ حتى المعابد ـ مما كان يحوى من ذهب وفضة !

وثار اهل افريقيا على ظلمه ، واجبروا نائب الامبراطور « جورديان » وابنه على قبول الحكم ، ثم سعوا لدى المجلس التشريعى للتصديق على هذا الانتخاب ٠ واذ هزم الوالد وابنه وماتا ، وجد المجلس نفسه أمام احد أمرين : اما أن يخضع لقسوة مكسيمين ، واما ان ينتخب عاهلا جديدا ٠ وفى حيرته ، اختار الحل الأخير ، وعين « مكسيمس » و « بالبينس » امبراطورين فى ٩ يوليو سنة ٢٣٧ ٠ ورأى المجلس أن يكسب تأييد حفيد « جورديان » ـ وكان فى الثالثة عشرة ـ فخلع عليه الاوسمة ولقب « قيصر » ٠ وقاد « مكسيمس » القوات لمحاربة « مكسيمين » ، لولا ان مؤامرة فى جيش الأخير أدت الى اغتيال مكسيمين وابنه ، والى تفادى حرب أهلية ٠٠ بيد ان «مكسيمس» و « بالبينس » لم يلبثا ان اغتيلا بدورهما فى ١٥ يوليو سنة ٢٣٨ بأيدى الحرس البريتورى ، لعدالتهما وصلاحهما !٠٠ وبقى «جورديان» الحفيد ست سنوات منفردا بالحكم ، ملتزما الاستقامة والانصاف ، حتى أغرى صلاحه به « فيليب » ـ والى بلاد العرب ـ فاغتيل أثناء اشتباكه فى حرب مع فارس فى شهر مارس سنة ٢٤٤ ، وتولى « فيليب » ـ الطموح ـ الحكم ، فاحتفل بمرور ألف عام على انشاء روما ، وظلت الامبراطورية الرومانية منذ ذلك التاريخ تتعرض لغزوات البرابرة ، وتعانى طغيان الطغاة ، عشرين عاما . بدا خلالها انها كانت تقترب من نهايتها !٠٠ فقد خلف «فيليب» فى الحكم



صورة للامبراطور «مكسيم» ، ماخوذة عن ميدالية سكت فى عصره ٠

تباعا ستة أباطرة ، فقد بعضهم حياته بأيدى الجيش ، واستشهد الآخرون أثناء صد غزوات الفرنجة والقوط والفرس · فاستولى الأولون على بلاد الغال (فرنسا) ، واسبانيا ، والولايات الافريقية · واستولى القوط على البسفور ، واليونان ، وهددوا ايطاليا ·· بينما أخذ الفرس يحرزون الانتصارات المتوالية فى الشرق !

وهكذا حاول ستة أباطرة وثلاثون طاغية ان يعرقلوا نكبة الامبراطورية بانهيارها ، دون ان يفلحوا ! وتخللت تلك الحقبة المجاعات ، والأوبئة ، والقلاقل ، والفوضى ، وتناقص السكان بدرجة كبيرة ! ·· ثم انتهت الحقبة بوفاة الامبراطور « جالينوس » فى ٢٠ مارس سنة ٢٦٨

٥ ـ منقـــذو الدولة الرومانية

◆ ولكن قدر للامبراطورية النجاة أخيرا على أيدى عدد من الامراء العظام ، انحدروا من ولايات (الليريكم) ـ التى عرفت فيما بعد باسم (النمسا) ـ فاستطاع « كلوديس » ان يوقع بالقوط هزيمة ساحقة ·· وأجهز خليفته « أورليان » على قوتهم ، كما هزم الجرمان الذين اغاروا على ايطاليا ، ثم استرد بلاد الغال واسبانيا وبريطانيا ، وقضى على عرش « زنوبيا » فى (تدمر) ·· فعل كل هذا فى أقل من خمس سنوات ، ثم اغتيل فى يناير سنة ٢٧٥ ، فاذا مصرعه معجزة بعثت سلطان المجلس التشريعى « السينات » من جديد ، اذ أمسك بمقاليد الحكم ـ بموافقة الجيش ـ زهاء ثمانية شهور ، انتخب أعضاؤه فى نهايتها واحدا منهم امبراطورا · حتى اذا مات ، انتخبوا « بروبس » الذى خلص الامبراطورية مرة أخرى من غزوات البرابرة ، ثم قتل فى أغسطس سنة ٢٨٢ ! ·· وفقد المجلس بمقتله ما كان قد استرده من سلطان ، وكادت الامبراطورية ان تعود مرة أخرى الى الفساد ، لولا ان انتخب « ديوكليتيان » امبراطورا فى سنة ٢٨٤ ، فعمد الى سياسة بارعة ، اذ قضى على ما تبقى من النظام القديم ، وقسم سلطته على ثلاثة أعوان : اطلق على أحدهم لقب « اغسطس » ، وعلى كل من الآخرين لقب « قيصر » ، ونقل عاصمة الحكم تدريجا من « روما » ، وقضى على سلطان أعضاء المجلس التشريعى ·· وكانت الأبهة ، وتقسيم اعباء الحكم ، هما أهم مبادىء النظام الذى أقامه ، فوسع الجهاز الحكومى وضاعفه ·· وأقام نفسه ، وكبير مساعديه «مكسيميان» ـ الذى حمل لقب « اغسطس » ـ على رأس هذا النظام ، يليهما القيصران اللذان يخلفانهما فى رئاسة الامبراطورية ·· وأدى التوسع الحكومى الى زيادة الضرائب بدرجة أرهقت الولايات جميعا

ستة أباطرة ‥ فى وقت واحد !

◆ ظل « ديوكليتيان » فى الحكم ، معززا القوات الرومانية فى بريطانيا ، وشمال أفريقيا ، ومصر ، وفارس ، حتى أول مايو سنة ٣٠٥ ، حين نزل عن العرش ‥ وعندئذ استقال « مكسيميان » هو الآخر ، وخلفهما القيصران « كونستانتيوس » و « جاليريوس » ـ وقد اتخذ كل منهما لقب « اغسطس » ـ وعينا قيصرين يساعدانهما هما « مكسيمين » و « سيفرس » ٠ ولكن الطمع أغرى « جاليريوس » ـ بتعضيد « سيفرس » ـ على الانفراد بالحكم ، فعادت الفوضى والحرب الاهلية !‥ ثم أعلن « مكسينتيوس » امبراطورا على روما ، بمساعدة أبيه «مكسيميان» ـ الذى كان قد ابتعد عن الحكم مع «ديوكليتيان» ، والذى اعتقل « سيفرس » ثم أعدمه فى روما سنة ٣٠٧ ـ فما كان من « جاليريوس » الا أن عين قيصرا جديدا يدعى « ليسينيس » ‥ وبذلك أصبح هناك ستة أباطرة : مكسيميان وابنه مكسينتيوس وكونستانتين ـ ابن كونستانتيوس ـ فى الغرب ‥ وجاليريوس ومكسيمين ولسينيس فى الشرق !‥ وما لبث « مكسيميان » ان أعدم فى مرسيليا فى سنة ٣١٠ ، ومات جاليريوس فى حركة من الحركات التمردية فى العام التالى ، ثم شبت الحرب بين « مكسينتيوس » و « كونستانتين » فانتصر الأخير فى سنة ٣١٢ وانفرد بالحكم فى الغرب ‥ بينما انفرد « لسينيس » بالحكم فى الشرق ٠ وأخذ كل منهما يتربص بالآخر ، حتى انتهى الصراع بمعركة « ادريانوبل » وحصار « بيزنطه » وانهزام « لسينيس » واعدامه فى سبتمبر سنة ٣٢٣ ٠ وبذلك أصبح « كونستانتين » العاهل الوحيد للامبراطورية الرومانية الموحدة ٠ ولكن هذا الفوز ساعد على انهيار الامبراطورية ، بسبب ما اريق من دماء ، وما انفق من أموال ، وجبى من ضرائب ‥ وبسبب كثرة المنشآت العسكرية ‥

ثم جاء قيام القسطنطينية ـ فى موقع بيزنطة ـ وتثبيت دعائم الدين المسيحى فى الامبراطورية ، نتيجتين مباشرتين لذلك الانقلاب ‥

الجزء الثانى

١ ـ دولة القسطنطينية !

◆ بعد حكم هادىء ، وعهد اقترن بالرخاء ، ترك كونستانتين ـ (قسطنطين) ـ الامبراطورية الرومانية لورثته ، وقد غدت لها عاصمة جديدة ، وسياسة جديدة ، ودين جديد ‥ اذ قدر لبيزنطة ـ التى استبدلت باسمها اسم ذلك العاهل فأصبحت (القسطنطينية) ـ ان تصون ما بقى من ظلال السلطان



صورة للأمبراطور «قسطنطين» مأخوذة عن قطعة من النقود مسكوكة فى عصره ٠

الرومانى قرابة الف عام ، بعد ان قضت عليه روما ذاتها ! وقدعين الامبراطور بنفسه حدود القسطنطينية حين قرر اتخاذها قاعدة للحكم ٠ ولما كان الفن المعمارى فى احتضار ، فقد سلبت مدن اليونان وآسيا أثمن آيات زينتها لتحمل الى العاصمة الجديدة ، وتم بناء المدينة فى ثمانى أو عشر سنوات ٠٠ ومع ذلك كان بنيانها متعجلا ، بحيث بدت فيه مظاهر من عدم العناية ٠٠ ووفر الامبراطور لها السكان بأن دعا أكثر الاسرات ثراء فى امبراطوريته الى الاقامة فيها !

وادى الانهيار الوئيد الذى نزل بروما ، الى اختفاء البساطة التى كانت تمتاز بها الاخلاق والعادات الرومانية فى الجمهورية القديمة : فان النظام « الاوتوقراطى » ، والحكم الفردى الذى أقامه « ديوكليتيان » ، خلقا مناصب وألقاب ليس لها من القيمة سوى فخامة اللفظ ، والاسراف فى التفخيم الزائف ٠٠ وانقسم موظفو الدولة الى ثلاث طبقات : « الأماجد » و « المحترمون » و « الأكارم » ! ٠٠ ومع ان القناصل - أعضاء المجلس التشريعى - كانوا يختارون سنويا ، الا انهم عادوا الى وضعهم القديم ، حين كان اختيارهم يتم وفقا لهوى الامبراطور ، لا بعد انتخابات يختار فيها الشعب ممثليه ٠٠ وكانت سلطة الحكم والقضاء موزعة على اربعة ولاة فى اقسام الامبراطورية الأربعة ، ومحافظين احدهما لروما والآخر للقسطنطينية ٠٠ أما فى الناحية العسكرية فكان هناك ثمانية من الضباط العظام يمارسون السلطة على الفرسان والمشاة ، يعاونهم فى الاقاليم خمسة وثلاثون قائدا عسكريا يحملون القاب « كونت » و « دوق » ! ٠٠ وكان حشد الجنود مهمة شاقة ، فقد اقترنت مهنة الجندية فى اذهان الرومان ابان انحلالهم بما كان ينفرهم منها ، بحيث لم يعد ثمة بد من تجنيد الخدم وابناء المستعمرات !

يشتبه فى تآمر ابنه ضده ٠٠ فيعدمه !

◆ وكان ثمة سبعة وزراء - من ارقى طبقات الموظفين - يتولون شئون القصر الامبراطورى ، وعدد ضخم من الجواسيس الرسميين والمكلفين بالجور والتعذيب ! ٠٠ وكانت مرتبات هذا الجهاز الحكومى المتضخم تستمد من

الضرائب التى كانت تفرض على الأراضى ، ففى كل خمسة عشر عاما كانت الدولة تجرى احصاء دقيقا للأراضى وللملاك ، ثم يجبر هؤلاء على دفع الضرائب التى تقدر ، على أن يؤدى قسط منها بالذهب والباقى بالمحصولات ٠٠ وإلى جانب ضريبة الأرض كانت ثمة جزية تفرض على كل فرع من فروع التجارة ، و « منح » تبتز من المدن فى كل مناسبة من المناسبات السعيدة الخاصة بأسرة الامبراطور !

وفى سنة ٣٢٦ ، احتفل « كونستانتين » - فى روما - بمضى عشرين عاما على توليه الحكم ٠٠ ولم يشوه جمال المناسبة سوى اقدامه على اعدام ابنه « كريسبس » الذى اشتبه فى انه يتآمر عليه !٠٠ كما كان من العوامل التى لطخت سمعة هذا الامبراطور الذى مكن للدين المسيحى فى الدولة الرومانية ، وفاة زوجته الثانية « فاوستا » ، فى ظروف غامضة !

ومات « كونستانتين » فى ٢٢ مايو سنة ٣٣٧

٢ - فصل الشرق عن الغرب

◆ ومرة أخرى ، فقدت الامبراطورية وحدتها ، على أيدى أبناء «كونستانتين» الثلاثة ، اذ قسمت الدولة بينهم : فكانت « تراقيا » والشرق من نصيب « كونستانتيوس » ٠٠ وايطاليا وأفريقيا وغرب النمسا من نصيب «كونستانز» ٠٠ والعاصمة الجديدة من نصيب الابن الأكبر « كونستانتين » ، الذى لم يلبث ان قتل فى مارس سنة ٣٤٠ فى حرب شنها على أخيه «كونستانز» ! ٠٠ وأدى الصراع بين الامبراطورين الشقيقين الى الدخول فى حرب غير متكافئة مع فارس ، انتهت بتصدع الامارة المسيحية التى قامت ٦٥ سنة فى ارمينيا ٠٠

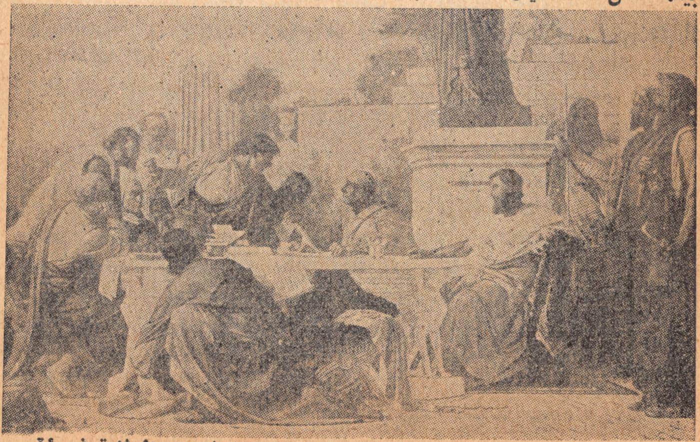
وما لبث « كونستانز » ان سقط فريسة اثنين من الطامعين هزماه ، ثم لم يلبثا ان هزما بدورهما ، وبقى « كونستانتيوس » الامبراطور الأوحد ، فاتخذ من ابنى عمه « جالوس » و « جوليان » قيصرين ، ولكنه لم يلبث أن أعدم الأول فى سنة ٣٥٤ ٠٠ أما الثانى فخلفه فى سنة ٣٦١ ، وكان قد تلقى العلم فى مدرسة الفلاسفة ، واكتسب الخبرة العسكرية فى عدد من الحملات التى قادها ضد الجرمان ، فتبوأ العرش مزودا بصفات كانت خليقة بأن تؤدى الى اصلاح الامبراطورية ، لولا ان ما عاناه فى صغره من عذاب ، كان قد أوجد فى نفسه عقدا انتهت بأن نبذ الدين المسيحى وهو فى العشرين ، وأعاد الوثنية !٠٠ ومن ثم فقد هلع المسيحيون لتوليه الحكم ، غير انه - تحت تأثير العلم والالمام بالتاريخ - منح رعيته حرية سابغة ومساواة ، وأعلن التسامح الدينى ٠٠ وبينما كان يعيد توطيد الوثنية ، ويغرى من اعتنقوا

المسيحية على التخلى عنها ، بسط يده لليهود المضطهدين ، وسمح لهم بالحج الى بيت المقدس .. بل كاد يعيد تشييد هيكلهم المقدس هناك ، لولا عوائق طبيعية ..

ولم يرق عقلية جوليان الفلسفية ان يأخذ بذلك النظام الذى وضعه « ديوكليتيان » للحكم ، فرفض ألقاب السيادة والتفخيم ، وحاول العودة الى نظام الجمهورية القديمة وما اقترن به من بساطة ... على انه لم يلبث ان مات فى سن الثانية والثلاثين - فى ٢٦ يونيو سنة ٣٦٣ - على أثر جرح اصابه فى حربه مع الفرس ..

يقتسم الامبراطورية مع أخيه !

◆ وانتخب رئيس رجال حاشيته « جوفيان » خليفة له ، فعقد صلحا غير مشرف مع الفرس ، مما أثار غضب الدولة الرومانية بأسرها ! ولم يطل حكمه لأكثر من تسعة شهور ، ثم مات فى ١٧ فبراير سنة ٣٦٤ ، فبقى العرش بعده عشرة أيام شاغرا ، حتى أجمعت السلطتان المدنية والعسكرية على انتخاب « فالنتيان » ، الذى اقتسم الامبراطورية الواسعة مع أخيه « فالنز » ، فكان هذا انفصالا نهائيا لشطرى الامبراطورية الشرقى والغربى : اذ تولى « فالنز » حكم الشطر الشرقى ، من الجزء السفلى لوادى الدانوب حتى مشارف فارس ، بينما خص « فالنتيان » نفسه ببقية الامبراطورية .. حتى اذا مات فى سنة



« جوليان » ابن أخ الامبراطور « قسطنطين » ، يدافع عن الوثنية فى مؤتمر دينى ! (عن لوحة للرسام ادوارد ارميتاج بمتحف ووكر بليفربول)



٣٧٥ ، تقاسم ولداه « جراشيان » و«فالنتيان الثانى» الامبراطورية الغربية .
واذ غدت الدولة الرومانية ثلاث امبراطوريات ، بدأت تحس وطأة الضغط المتزايد من المغيرين البرابرة الذين كانوا يزحفون غربا .. ولجأ القوط الى حمى « فالنز » فأنزلهم أرضا رومانية فى حوض الدانوب . لكنهم كافأوا صنيعه بأن اتحدوا مع أعدائهم «الهون» - وهم قبائل بربرية أخرى - وقتلوه فى معركة « هادريا نوبل » فى سنة ٣٧٨

ولكى ينقذ « جراشيان » الولايات من البرابرة ، عين « ثيوديسيوس » - ابن قائد قوات أبيه - امبراطورا على الشرق ، فاستطاع بحكمته ودهائه العسكرى والسياسى أن يهزم القوط ويرغمهم على الطاعة للدولة ! ثم اضطر الى ان ينصرف عن البرابرة ، ليشترك فى الأحداث التى جرت فى ركن آخر من الامبراطورية .. اذ قامت فى بريطانيا ثورة بقيادة « مكسيموس » ، فمات « جراشيان » أثناء اخمادها .. وكاد « مكسيموس » أن يزيح من طريقه « فالنتيان الثانى » ، ولكن « ثيوديسيوس » هزمه وأعدمه فى يونيو سنة ٣٨٨ .. وقامت عدة حروب اهلية انتهت بوفاة « ثيوديسيوس » فى ١٧ يناير سنة ٣٩٥ ، بعد حكم تخللته اصلاحات عديدة فى الامبراطورية الغربية .. ولكن حكمه الصالح لم يكن كافيا للقضاء على بذور الانحلال والانهيار التى نما نبتها وتكاثر .. كما ان تفاقم اغارات البرابرة عاق ازدهار التجارة والصناعة ، وقضى على ثروة الامبراطورية .. وسرى سم الفساد الى الجيش ، الذى طرح جنوده دروعهم وهم يتقدمون فى وجل للاشتباك مع فرسان القوط ، فراحوا يتخلون عن القتال ! .. وقد كان جبنهم وخورهم هذين هما السبب المباشر لسقوط الامبراطورية !

٣ - الدمار على أيدى القوط والهون

• انتهى مجد روما بوفاة « تيودوسيس » ، اذ اقتسم ولداه «اركاديوس» و « هونوريوس » الدولة ، وكانا كلما قوى الأمل فى اتحاد القسمين اوغرا

صدور رعاياهما ضد الفريق الآخر ، دون أن يدركا ان فى ذلك دمارهما معا ، فقد كانا فى تنافسهما يضطران الى التحالف مع الاقوام الهمجية من (البرابرة) الذين كانوا يطمعون فى بلادهما ..

على ان « هونوريوس » - امبراطور القسم الغربى - استطاع ، لفترة من الزمن ، أن ينقذ من يد الأعداء أفريقيا ، التى كانت تمد الرومان بالغلال ، وان يطرد ملك القوط - « ألريك » - من ايطاليا ، ويسحق الجرمان الذين كانوا يهددون روما .. ولكن تعرض هذه العاصمة للخطر جعله ينقل مقر حكمه الى (رافينا) ، فظلت هذه مقر الحكم وعاصمة ايطاليا حتى أواسط القرن الثامن ..

أما شقيقه « اركاديوس » فقد أتم فصل الامبراطورية الشرقية عن الغربية، اذ اتخذ رعاياه اللغة اليونانية لسانا لهم ، واتخذ لحكومته نظاما بسيطا .. ومع ان كثيرا من القلاقل الداخلية - المدنية والدينية - وقع فى عهده ، الا ان هذا العهد كان من العهود الصالحة ، على وجه العموم ، حتى مات الامبراطور فى مايو سنة ٤٠٨ ، فخلفه غلام فى السابعة من عمره ..

وفى تلك السنة فرض « ألريك » ملك القوط حصارا شديدا على مدينة (روما) ، فمات آلاف من أهلها جوعا ومرضا ، ولم يرفع هذا الحصار الا بعد أن حصل على اتاوة قدرها ٣١٥ر٠٠٠ جنيه ! .. ولكنه سرعان ما عاد يفرض الحصار من جديد بعد اذ فشلت مفاوضاته مع « هونوريوس » . ووهن الحصار فترة ، ثم استثير حنق القوط فى سنة ٤١٠ ، فاجتاحوا المدينة واعملوا فيها السلب والنهب ، وخربوها ، وقضوا على كل آثارها الغالية الناطقة بأمجاد الماضى .. ثم شب حريق أكمل خراب العاصمة العريقة . ولم يحل دون خراب ايطاليا كلها سوى موت « ألريك » فى سنة ٤١٠ ، فما لبث خليفته « ادولفس » ان وقع صلحا مع « هونوريوس » وتزوج اخته ، وكان لهذا الحلف فضل توطد سلطان روما على بلاد الغال واسبانيا . وعندما قتل « ادولفس » اتم خليفته « واليا » فتوحاته لحساب « هونوريوس » ، الذى عاد الى روما فى موكب كمواكب الغزاة فى الماضى ! .. وقد استقر فى عهده القوط والبورجنديون والفرنجة فى بلاد الغال (فرنسا) ، بعد ان تحررت الدول البحرية التى بين نهرى « السين » و « اللوار » من ربقة الامبراطورية فى سنة ٤٠٩ ..

« أتيلا » ينشر الرعب فى أوربا !

◆ وحين مات « هونوريوس » فى سنة ٤٢٣ ، خلفه « فالنتنيان الثالث » - ابن أخته ، أرملة « ادولفس » - فتخللت حكمه الطويل بوادر الانحلال

السريع الذى كان يدب فى الامبراطورية الغربية ٠٠ ففى سنة ٤٢٩ عبر ملك « الفاندال » البحر فغزا شمال افريقيا وأنزل قومه بها ، متخذا من«قرطاجنة» عاصمة لحكومته ، ولجأ كثير من الافريقيين الى ايطاليا ٠٠ كذلك انحدر قوم من رعاة الشمال فاحتلوا ولاية من خير ولايات الامبراطورية ٠٠ حتى اذا كانت سنة ٤٤١ ، اندفعت جحافل « القوط » و « الفاندال » تكتسح العالم فى فرارها من هجمات قبائل « الهون » ٠ ثم اتحدت تحت قيادة الملك « اتيلا » وتحولت تهدد الامبراطورية الشرقية ، بعد حملة فاشلة على فارس ، فاجتاحت ملك « ثيودوسيس » الصغير ، ولم تنج القسطنطينية من التخريب الوحشى الا بمعاهدة غير مشرفة ٠٠ ولم تأت سنة ٤٥٠ — وكان الملك الصغير قد مات — حتى كانت قوة «آتيلا» قد استفحلت وأصبح يهدد الامبراطوريتين الغربية والشرقية معا !

واذ عجز « اتيلا » عن الاستيلاء على بلاد « الغال » ، تحول يغير على ايطاليا ، فأخذ المواطنون يفرون أمام قواته الهمجية الباطشة ، ولاذ كثير منهم بجزر الادرياتيك حيث أقاموا جمهورية البندقية الذائعة الصيت ٠٠ وفر الامبراطور « فالنتنيان » من (رافينا) الى (روما) ، بينما سعى أسقف روما « ليو » الى الملك المتوحش ٠ ويقال انه ناشده باسم القديسين بطرس وبولس حتى اقتنع « اتيلا » بالانسحاب الى ماوراء الدانوب مع عروسه الاميرة « هونوريا » ، وهناك قضى نحبه فى سنة ٤٥٣ ، فبدد موته وحدة قومه ، وادى انقسامهم الى انهيار سلطان قبائل «الهون» ٠٠

أما « فالنتنيان » فمات قتيلا بخطة من « مكسيموس » الذى اجبر ارملة الامبراطور القتيل على الزواج منه ، فتآمرت عليه وأغرت ملك « الفاندال » على غزو ايطاليا ٠ بيد ان مكسيموس قتل قبل هذا الغزو بأيدى جنود متمردين من رجاله ٠٠ وظل عرشه خاويا اسبوعين ، ثم ظل موضوع خلاف بين مجلس «السينات» والمرشح الذى أيده ملك القوط ، حتى شغله « ماجوريان » فى ١٦ اكتوبر سنة ٤٥٦

٤ — آخر أباطرة الغرب

◆ كان « ماجوريان » شجاعا ،أحب قومه ، وأشفق على ماصارت اليه الدولة الرومانية ، وحاول أن يخفف مما حاق بها ، فأدخل كثيرا من الاصلاحات ٠٠ بيد ان قوته العسكرية لم تكف للتغلب على « الفاندال » ، واستعادة أفريقيا ، بل انه فقد أسطوله فى هذه الحملة ٠٠ مما أغرى قائد قواته « ريسيمر » على خلعه ٠٠ فعين المجلس التشريعى فى مكانه « ليبيوس

سيفرس » تحت رعاية « ريسيمر » ٠٠ بيد ان حكمه صادف كثيرا من المتاعب ، فاضطر « ريسيمر » - ازاء قوة الفاندال البحرية - الى ان ينشد عون عاهل الامبراطورية الشرقية فى سنة ٤٥٧ ، وكان يدعى « ليو » ، فتأهب هذا للقضاء على «الفاندال» ، وأوفد من لدنه عاهلا لروما ٠٠ ولكن فشل حملته ، ومؤامرات « ريسيمر » ، وقيام القلاقل فى بلاد الغال واسبانيا ، كانت عوامل عجلت بالدمار ٠٠ اذ عين ريسيمر - فى سنة ٤٧٢ - أحد أعضاء « السينات » امبراطورا ، ثم أغار على روما وقتل الامبراطور الذى كان «ليو» قد أقامه ، وأعمل السلب والنهب والطغيان ، ولكنه مات بعد أربعين يوما ، ولحق به امبراطوره بعد شهرين ٠٠

وأقام « ليو » امبراطورا جديدا على العرش الخالى لم يلبث ان هوى عنه ٠ وغدا العرش فى أيدى الجنود (البرابرة) الذين اقاموا عليه « اوجستلوس » ٠٠ ولم تنته السنة الأولى من حكم هذا الأخير حتى تبين أن الجنود الذين أقاموه أرادوا أن يتخذوه أداة لأطماعهم وغاياتهم ٠ فلما أبى ذلك، قام عسكرى جرىء منهم فوحد الجنود تحت قيادته ، وقرر أن يلغى منصب امبراطور الغرب ٠٠ وكتب المجلس التشريعى الى الامبراطور «زينو» - خليفة « ليو » عاهل الامبراطورية الشرقية - يعلن أن لا داعى لوجود امبراطور فى ايطاليا ، طالما ان « وجود عاهل واحد كفيل باقرار السلام وحماية الشرق والغرب معا فى وقت واحد »

وهكذا شهد عام ٤٧٦ نهاية الامبراطورية الرومانية الغربية

الجزء الثالث

١ - نمو المسيحية

◆ كان التسامح الذى درج عليه الاباطرة والمجلس التشريعى والمثقفون من الشعب ، سببا فى نمو الكنيسة المسيحية بخطى جد سريعة ٠ وساعدت على ذلك عوامل عدة :

١ - مرونة وتسامح المسيحيين ، بالنسبة الى ما اقترن بالدين اليهودى من ضيق الافق والتعصب وعدم الاندماج مع المجتمع فى ذلك العهد

٢ - فكرة الحياة المقبلة ، وتوالى الظروف المؤيدة لهذه الحقيقة الهامة ٠

٣ - المعجزات وقوة النفوذ التى عزيت الى الكنيسة الاولى ٠٠

٤ - المبادىء الخلقية الصارمة ، النقية ، التى التزمها المسيحيون الأوائل

٥ - تعاون المسيحيين واتحادهم ، والنظام الذى اخذوا به انفسهم حتى

استطاعوا تدريجا ان يكونوا لانفسهم دولة مستقلة فى قلب الامبراطـورية الرومانية .

ولقد جرى المسيحيون الاوائل على الشريعة الموسوية فى الطقوس والعبادة. ولم يلبث الذين آمنوا بالمسيح من يهود (القدس) و (الناصرة) ، ان لجأوا بعد تهدم معبد اليهود الاكبر هناك ، الى بلدة صغيرة ، أخذوا يحجون منها الى المدينة المقدسة . حتى اذا حرم الامبراطور « هادريان » على اليهود ان يقتربوا من مشارف المدينة ، تفادى الناصريون هذا الحرمان بأن تخلوا عن الشريعة الموسوية ، وان بقيت جماعة ضئيلة حتى القرن الرابع تجمع بين الشريعة الموسوية والدين المسيحى .

ولقد اجمعت الشيع الثلاث للمسيحيـة الاولى ، وهى : الارثوذكس . والايبيونيون ، واللادريون أو « الاغنسطيون » ، على الكفر بالأوثان .. اذ آمن المسيحيون بما قال به المسيح من وجود حياة أخرى ، ولم يكن عجيبا ازاء الوعد الذى قدم لكل من يعتنق الدين ويتبع تعاليم الكتاب المقدس ، بأن يحظى بالسعادة الابدية فى حياته المقبلة .. لم يكن عجيبا أن يقبل عدد كبير من كل ولاية من الامبراطورية الرومانية على اعتناق المسيحية . وكان توقع عودة المسيح وقيام مملكة الرب يعززان جلد المسيحيين الاوائل على تحمل المحاكمات والتعذيب . وكان هذا الجلد فى حد ذاته مصدر سلوى لهم ، ومشجعا لغيرهم على اعتناق دينهم . وزادت من ذلك التشجيع تعاليم المسيح وحواريه ، والمعجزات التى جرت على يديه وأيدى الحواريين .. وليس من واجب المؤرخ أن يتعرض لهذه المعجزات ، ولكن عليه أن يحاول أن يعين بالدقة حدود تلك الفترة التى جرت فيها أحداث تفوق القوة الطبيعية . فقد تلتها فترة اتسمت بفقدان الكنيسة المسيحية لنفوذها المعتمد على المعجزات . ومهما كانت هذه الفترة ، فان من الجلى أن الشك احتل بعدها مكانة الايمان ، والتعصب والتطرف محل الوحى والالهام ..

الافراط فى الزهد .. بعد الافراط فى المجون !

◆ ولقد كان استبشاع المسيحيين للآثام التى كانوا يرتكبونها فى عهد الوثنية ، واستغراقهم فى التوبة ، داعيا لان يعيشوا حياة أنقى وأسمى من حياة معاصريهم من الوثنيين ، وخلفائهم من المسيحيين . فقد افرطوا فى نبذ الملاهى والترف ، واعتبروا أن حرمان انفسهم من الزواج يقربهم من الكمال ، ومن ثم ظهر فى عهد الكنيسة الاولى كثير ممن احتفظوا بعفتهم وآثروا الرهبنة .

وقامت الحكومة المسيحية الاولى على مبدأى الحرية والمساواة . ولم تكن المجتمعات التى قامت فى مدن الامبراطورية الرومانية ترتبط بغير رباطى

الايمان والخير . وكان « الرسل » ينشرون تعاليم الدين ويذكون سلطان الروح على النفوس .

وكان كل مجتمع يؤلف من نفسه جمهورية منفصلة ، مستقلة . ولكن هذه المجتمعات مالبثت حوالى نهاية القرن الثانى ان تبينت فوائد توثيق الصلات والترابط فيما بينها ، فابتكرت فكرة المجامع الطائفية الاقليمية ، اذ يجتمع أساقفة الكنائس المختلفة - وهم الرؤساء التشريعيون والروحيون للمجتمعات - فى عاصمة الاقليم فى فترات معينـــة ، ليسنوا القوانين والتشريعات للطائفة . وقد لقيت فكرة هذه المجامع رواجا واقبالا فى جميع انحاء الامبراطورية الرومانية ، ونظمت المراسلات والاتصالات بين هذهالمجالس الاقليمية .. وسرعان ما اكتسبت الكنيسة الكاثوليكية قوة ، وأصبحت أشبه ماتكون بجمهورية اتحادية كبيرة .

واستفحلت قوة الاساقفة ونفوذهم ، كما ان اجتماع « المجامع » فى العواصم اضفى على أساقفة العواصم مكانة خاصة ، كمطارنة أو رؤساء أساقفة . وحظى أسقف روما - بوصفه أسقف عاصمة الامبراطورية - بمكانة وامتيازات خاصة . وفى عهد الامبراطور « ديسيوس » صدرت قوانين تبيح لمسيحيىروما ان يوقفوا بعض ممتلكاتهم ، على ان يجمع الاساقفة ايراداتها ويتولوا توزيعها . كما مارس الاساقفة حق الفصل من الكنيسة أو الحرمان ..

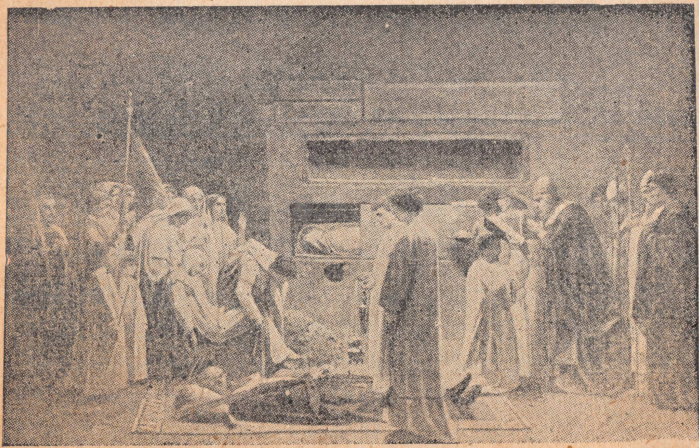
٢ - أيام الاضـــطهاد

◆ قد يبدو اضطهاد اباطرة روما للمسيحيين غريبا ، اذا تأمل المرء تساهل الوثنية ، والتسامح الدينى الذى كان طابع المواطن الرومانى فى باكورة عصر الامبراطورية . على أنه يمكن تعليل ذلك الاضطهاد بالهواجس التى داخلت العالم الوثنى ازاء مبادىء الدين المسيحى - من ناحية - والى تنظيم الطائفة من ناحية اخرى . وكان المسيحيون يعتبرون مارقين على الدين الموسوى ، كما كانوا كافرين بالاوثان .. وكانت السياسة الرومانية تنظر فى غيرة وارتياب الى اى تنظيم جماعى يقوم بين رعاياها ، فبدت الاجتماعات التى كان يعقدها المسيحيون خلسة وسرا ، ظواهر خطيرة فى نظر القانون . على ان المسيحيين الاوائل لم يعانوا اضطهادا بالغا . بل ان ما ورد عن تضحية نيرون بعدد منهم - حين أحرق روما - قد يكون موضوع جدل ونقاش . واذا كان الامبراطور « دوميتيان » قد اضطهدهم ، فان « تراجان » أسبغ حمايته على اجتماعاتهم ، اذ كان يطالب من يشى بهذه الاجتماعات بقرائن وأدلة قاطعة ، فاذا اخفق وقع عليه عقوبة صارمة ! ثم جاءت قوانين « هادريان » و«انطونينوس

بيوس » فبسطت وقايتها للمسيحيين من خطر الاضطهاد العام وهياج الجماهير ضدهم • ولم يعد محتوما عقاب من يثبت اعتناقه الدين المسيحى ، بل كان يكفى أن يؤمر بحرق بعض البخور فى المعبد الوثنى ، فان أبى شد جسمه الى آلة التعذيب وجلد بالسياط • على أن القضاة الرومان كانوا يتسمون بالروح الانسانية ، ومن ثم كان عدد الشهداء ضئيلا • ولم يسرف فى الفتك بالشهداء المسيحيين سوى الامبراطورين « أوريجنى » و « ديونيسيوس » •• ثم نعم المسيحيون بالطمأنينة فترة امتدت بين عامى ٢١١ و٢٤٩ ، ومالبثت عواصف الاضطهاد أن عادت تهب عنيفة فى عهد الامبراطور « ديسيوس »

٣ - عصر قسطنطين

• **وظفرت** المسيحية مرة أخرى بالطمأنينة والرخاء في عهد « ديوكليتيان » ، وظلت تنعم بهما من سنة ٢٨٤ الى سنة ٣٠٣ حين أغرى « جاليريوس » الامبراطور باضطهاد المسيحيين من



لوحة تمثل مشهد دفن أحد شهداء المسيحيين فى مقابر « الكاتاكومب » بروما ، وهى منحوتة على عمق بعيد تحت الارض

جديد ، فصدر قرار بهدم الكنائس فى الامبراطورية بأسرها ، وباعدام كل من يعقدون اجتماعات سرية للتعبد !٠٠فاستشهد الكثيرون بصورة بالغة القسوة ، وأحرقت الكنائس ونسخ الكتاب المقدس ٠ كما صدر ثلاثة قوانين فى مارس سنة ٣٠٤ ، سجن بمقتضاها رجال الكنيسة جميعا ، وعذب المسيحيون لكى يتحولوا عن دينهم ، وطوردوا فى كل مكان ٠ على أن « جاليريوس » مالبث ان ندم ، فأغرى الامبراطور بعد ست سنوات على اصدار قانون التسامح الدينى فى ٣١ ابريل سنة ٣١١ ٠ ثم جاء انتصار قسطنطين ـ الذى اعتنق المسيحية فى سنة ٣٠٦ ـ ضمانا لسلامة الكنيسة من عدوان الوثنيين ،وفى سنة ٣١٣ أمر باعادة بناء جميع الكنائس التى هدمت ، وعمل على ازالة كل العقبات التى عرقلت انتشار المسيحية ٠ ومالبث دين المسيح أن أصبح دين الامبراطورية القومى ، ووضع الصليب على خوذات الجنود ودروعهم ، ووجهت فروع الحكومة الى نشر الدين فى الامبراطورية ووراء حدودها ، والى مصادرة أملاك الكفرة لصالح الدولة أو الكنيسة الكاثوليكية،واستخدمت العقوبات التى سنها « ديوكليتيان » ضد المسيحيين ، لمطاردة الكفرة ، وأنشىء مجمع دينى عام لتنظيم العقيدة والكنيسة ٠

نشأة نظام الرهبنة

• **وحوالى** سنة ٣٩٠ تم القضاء نهائيا على الوثنية ، وان ظلت بعض آثارها تبدو فى طقوس الكنيسة ، وكان من مظاهر الشرك بالله عبادة الشهداء والقديسين ٠ وكان من أبرز الشخصيات الكنسية فى تلك الحقبة،كبير أساقفة القسطنطينية الذى سعى الى تطهير الامبراطورية الشرقية ، فأحنق عليه الامبراطورة « يودوكسيا » ومات فى المنفى سنة ٤٠٧

ولقد أنشأ شاب أمى فى سنة ٣٠٥ نظام الرهبنة ، اذ شيد مستعمرة على جبل « كوبيم » ـ بقرب البحر الاحمر ـ انصرف

أهلها عن الحياة الدنيوية فى سبيل السعادة الابدية في الآخرة. وما لبث النظام أن انتشر حتى عم كافة أرجاء الدنيا . على أن التقشف والزهد اللذين رافقا الرهبنة فى بدايتها ، ما لبثا أن تحولا الى ثراء وترف من جراء المنح التى كان يتبرع بها المؤمنون . .

ومالبثت القبائل الهمجية (البرابرة) التى غزت الدولة الرومانية ان اعتنقت المسيحية ، بيد انها تعصبت لمذهب من مذاهبها نادى به من يدعى « آريوس » . وذهب « الفاندال » فى تعصبهم الى حد اضطهاد الكاثوليك فى افريقيا بأقسى الطرق . ولكن الكاثوليك ظلوا متمسكين بعقيدتهم ، لا فى أفريقيا وحدها ، بل فى اسبانيا ايضا . وتمت الغلبة لهم بانهيار سلطان البرابرة فى القرن السادس

وفى الشهر القادم نتناول الاجزاء الثلاثة الباقية من هذا الكتاب الخالد



تلخيص : كليم أبو سيف

تربية الطفل ٠٠ ليست أمرا هينا !

◆ «لم يقل أحد قط ، فى أى زمن من الازمان ، أن تربية الطفل أمر هين يسير ! »

تلك هى الحكمة التى فاه بها المربى السويسرى الذائع الصيت « كلاباريد » ٠ وقد قدمت لك فى العدد الماضى الجزء الاول من الحلقة الاولى ــ المجموعة الرابعة ــ من سلسلة المحاضرات التى نظمتها «مدرسة الوالدين » بجامعة باريس ، عن كيفية تربية الطفل ٠ وقد تناول البحث فرعا خاصا هو : « كيف نقاوم نزعة اللصوصية عند الاطفال » ؟!

واليوم ، نتابع معا قراءة الجزء الثانى والاخير من هذه الحلقة ٠٠

المثل الثالث

◆ « مارسيل » هو أكبر اخوته الاربعة ٠ ونظرا لان أمه مرهقة دائما بأعمال المنزل فهى تطلب منه أن لا يزيد من ارهاقها ومتاعبها ، بأن يكون القدوة الحسنة لأخوته الصغار لانه أكبرهم ٠ وهى لا تترك له هنة من الهنات أو سقطة تافهة من السقطات دون أن تنهال عليه بسببها زجرا وتقريعا !٠٠ وفجأة يحل بالبيت قادم جديد ، فقد ولدت طفلة أخرى هى « العزيزة فرانسين » ٠٠ فاذا بالابتسامات جميعها تتحول اليها والاعجاب جميعه يتركز فيها ، والعناية المستمرة تقصر عليها ٠٠ ان « فرانسين » طفلة جميلة ، ولا شك أن أخاها الاكبر « مارسيل » يحبها كثيرا ويرى من واجبه هو الآخر أن يعنى بها ٠٠ ونظرا لكبر سنه فهو مكلف طوال الوقت بالقيام ببعض الاعمال المنزلية ، مما كان سببا فى حرمانه من اللعب مع أقرانه ! ٠٠ فلقد نسى الابوان ان « مارسيل » لم يبلغ من العمر سوى أحد عشر عاما فقط ٠٠ ونسيت الام أن من الواجب عليها مثلا أن تعنى به هو الآخر وتخصه بشىء من الرعاية ، كأن تضعه فى سريره عند النوم أو ترفو له بعض الثقوب التى ترصع جواربه وملابسه !

وقد أحدث هذا الاهمال من جانب الابوين لشأن « مارسيل » رد الفعل الذى نلحظه عليه اذا ما جلس الى مائدة الطعام مثلا ٠ فهو يرى شارد الذهن ، متخيلا ، حالما ، وقد أمسك بلباب الخبز وأخذ يديره فى أصابعه صانعا منه كرات صغيرة تمثل كرة القدم حينا والكرات الزجاجية الصغيرة حينا آخر ، كما تمثل بعض الدمى الاخرى ! أى انها تحاكى كل لعبة يشتاق اليها ، بحكم حرمانه منها !

وذات مساء حدث ان عثر « مارسيل » بمحض المصادفة على حلية صغيرة رخيصة ، تحت غطاء المائدة ، نقش عليها اسم شقيقته الصغرى ، المولودة الجديدة الحبيبة ، « فرانسين » .. فدسها فى جيبه دون أن يعرف هو نفسه دافعا أو سببا لذلك !.. واذا بالام تبحث عن الحلية الصغيرة التى تخص طفلتها العزيزة « فرانسين » ، ولكن جهودها تذهب أدراج الرياح .. وهى تحرص كل الحرص على هذه الحلية رغم تفاهة ثمنها لانها أول هدية قدمت لصغيرتها .. فلما يئست من العثور عليها ثارت ثورتها فى هدير لايتناسب أبدا مع تفاهة الشىء الضائع وتفاهة الموضوع كله !

وهنا يحوم الشك حول « مارسيل » .. فيستجوب ، ثم يهدد .. ولكنه يخاف ، وينكر ، ويصر على الانكار اصرارا يزداد جزما كلما ازداد الاستجواب شدة !.. وفى اليوم التالى ، لكى يخفف مارسيل من وزره أمام نفسه ، كشف عن سرقته بنفسه أمام نفسه .. فأخذ يلعب مع رفاقه لعبة مثيرة لحماسة الصغار هى لعبة (الكنز المسروق) .. وقد اشتدت حماسته وحماسة اقرانه فى اللعب حتى نسوا أنفسهم ، فعاد « مارسيل » الى المنزل متأخرا عن الموعد المعتاد ..

ترى بأى شىء كان يلعب « مارسيل » مع زملائه لعبة (الكنز المسروق) ؟ .. انه كان يلعبها بالحلية الرخيصة الخاصة بأخته الصغرى « فرانسين » .. التى دسها فى جيبه مساء اليوم السابق دون أن يعرف هو نفسه لذلك سببا !

المثل الرابع

• « مرجريت » ابنة وحيدة تبلغ من العمر عشر سنوات . وقد مرض ابوها مرضا خطيرا استدعى بقاء أمها بجوار فراشه طوال الوقت للعناية به والسهر عليه .. هذا فوق اضطلاعها بأعباء المنزل الثقيلة كلها .. وقد كان هذا الجو القاتم الذى يخيم على المنزل نظرا لشدة مرض الاب وانصراف الام الى تمريضه انصرافا تاما ، سببا فى حرمان « مرجريت » من متعة الحياة المرحة التى ينعم بها الاطفال . وزاد من ألم الطفلة « مرجريت » أنها فهمت مما يدور فى البيت أمامها من مناقشات ، مقدار الصعوبات المالية التى تعانيها أسرتها .. وراحت من جانبها تبذل كل مافى وسعها للتسرية عن أمها ، وتخفيف همومها .. كما حاولت بجميع الوسائل اجتذاب التفاتها اليها .. لكنها لم توفق ! لقد حاولت أن تجتذب التفات أمها مثلا الى الدرجات الممتازة التى حصلت عليها فى المدرسة فى بعض الدروس ـ فقد كانت الاولى فى بعض المواد ـ فلم تأبه أمها لذلك ، بل انها لم تأبه حتى بالصفر الذى نالته الابنة فى احدى المواد !.. فاذا قالت « مرجريت » شيئا قوبل ماتقوله بالتأفف والضجر .. والمسكينة تفضل أن تعاقب أو توبخ ـ ففى هذا اعتراف على



الاقل بوجودها - على أن تحيا فى هذا الجو الصامت الحزين ، لا يحس بها أحد ، ولا يلتفت اليها أحد !

وذات يوم تجرأت على سرقة بعض الدراهم من أمها لتبتاع بهابعض الحلوى . ان احساسها بالضجر يقل كلما « استحلبت » هذه القطع من«الملبس» .. ولكنها ازدادت جرأة فى اليوم الثانى فسرقت مبلغا أكبر من المال . أمكنهاأن تشترى به قلما من أقلام الحبر الجاف ، حرصت على اخفائه عن الانظار حتى لا يكتشف أمرها أحد .. ولكنهاأظهرته بعد ذلك مخترعة قصة فحواها أن صديقتها « دارليل » هى التى أهدتها اياه !

ترى ماذا فعلت الطفلة بهذا القلم الذى تحملت فى سبيل الحصول عليه كل هذا العناء ؟!.. لقد اهدته الى أمها ؟!.. فما تفسير ذلك ؟.. تفسيره أن هذه الطفلة أرادت أن تسلك كل السبل لتجتذب اليها حب أبويها ، وحب أمها على وجه الخصوص - بعد كل مارأته منها من اغضاء عنها واغفال لشأنها ! - ولعل أصح وصف لهذه السرقات هو أنها سرقات « تنم عن الكرم » ! وهى ليست نادرة الحدوث ، والدافع اليها ليس السرقة فى حد ذاتها ، بل هو رغبة الطفل فى أن يلفت النظر اليه كلما رأى نفسه محروما من حنان أبويه ورعايتهما!

المثل الخامس

◆ « جوزيف » طفل مثالى . انه الاول فى فرقته دائما . وهو يبلغ من العمر ١٢ عاما ، فهو بذلك أصغر تلميذ فى فصله . وهو الى ذلك مجتهد دؤوب على الدرس ، الى حد أن الجميع يحسدون والديه عليه ! ومن الطبيعى أن ولدا فى مثل هذا التفوق والذكاء يكون محل رعاية خاصة ، دائمة ودقيقة من أبويه ، لان ذكاء استثنائيا كهذا الذكاء يجب الا يهمل . وهكذا يجتهد أبواه فى دفعه الى الامام دفعا ، فكل يوم من أيامه له برنامجه الخاص . حتى أيام العطلة المدرسية لها برنامجها الخاص ، بحيث لم يعد الصبى حرا فى التصرف فى ساعة واحدة من ساعاتها !.. ففى أيام العطلة يتعين عليه أن يقوم ببعض الالعاب الرياضية الطبية ، وان يتعلم السباحة على يد مدرب خاص ، ثم يتعلم



صراع الديكة !

لوحة بمتحف اللوفر ، للرسام « جيروم » (١٨٢٤ - ١٩٠٣)



الأمومة ..　　　لوحة بمتحف اللوفر ، للفنان الخالد

« روبنز » (١٥٧٧ - ١٦٠٤)

الرسم ٠٠ وياحبذا لو بقى جزء من الوقت لينفقه فى تعلم الموسيقى !٠٠ ومع أن والديه ليسا فى بسطة من الرزق الا أنهما يتكبدان شططا لمنحه أكبر قسط من التعليم والتهذيب فى كل مناحى التعليم والتهذيب ٠٠ وبالاختصار فان « جوزيف » لا يترك حرا لنفسه دقيقة واحدة ٠ وهو يرى الطاعة أمرا طبيعيا ينفذه بطريقة آلية ، من فرط عناية والديه به وسهرهما عليه !

فماذا حدث ؟! ان الذى حدث هو نتيجة طبيعية لهذا الضغط المستمر على الطبيعة الانسانية ٠ فقد أحس « جوزيف » بقدر نفسه ، وبأنه ولد ممتاز وليس كسائر الاولاد الذين يراهم دون مستواه ٠ فلماذا لا يمنح نفسه من الحقوق مالايستطيع غيره الحصول عليه ؟ فمثلا ليس من حرج عليه ، وهو الولد الممتاز المتفوق ، فى أن يسرق بعض الفاكهة من حديقة الجيران ٠٠ أو يستولى على بعض النقود « خلسة » !٠ وهكذا ابتدأ بسرقة الفاكهة من حديقة الجيران ، فاستساغ هذه الفعلة : لما فيها من لذة - أولا - ومن تنوع يخرجه من نطاق حياته الآلية المملة - ثانيا - ثم من مخاطرة تحلو لمن فى مثل سنه - ثالثا !٠٠ كل هذه الاشياء التى حرمها ، وكان من حقه الاستمتاع بها كسائر اقرانه ، دفعته الى التدرج نحو اتيان عمل اكبر ، هو « السرقة » الصريحة ٠٠ فقد « سرق » من حافظة نقود أمه مبلغا من المال اشترى به مجموعة من طوابع البريد كان يحلم بها ٠ ولما كان يتحتم عليه اخفاؤها ، فقد وضعها فى « ألبوم » دسه بين كراريس السنة الدراسية الماضية !

فهل كان من العدل أن يحرم « جوزيف » من أمنية طالما اشتهاها وهى أن تكون له مجموعة من طوابع البريد ؟ ان اسلوب الوالدين فى قصر كل جهوده على العناية بدروسه فقط ، لانه متفوق ، هذا الاسلوب يجعلهما يريان فى اقتنائه مجموعة من طوابع البريد مضيعة للوقت ، وعبثا لا طائل تحته ٠ هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فان ضيق موارد أبويه كان سيدفعهما حتما الى تفضيل انفاق ثمن تلك المجموعة فى شراء كتاب نافع ، أو انفاقه على أحد الدروس الخصوصية ؟٠٠ فلما اشترى « جوزيف » مجموعته راح يهجس لنفسه قائلا : « لو عرف أبى اننى أضيع وقتى فى شئ غير الدروس !؟ » ٠٠ أى انه لا يخاف من أن يكشف أبوه أمر سرقته للنقود ، بل يخشى أن يعرف أبوه انه يهتم بشئ غير دروسه ، فيقل اعزاز أبيه له ، واعجابه به ، هذا الاعزاز وذاك الاعجاب اللذان يراهما ناشئين عن تفوقه على اقرانه فى المدرسة ليس الا !؟

وانه لمن دواعى الاسف انه فى اليوم الذى سيكتشف فيه أبواه سر مجموعة طوابع البريد ، سوف تتحقق المخاوف التى كانت تهجس فى صدر «جوزيف»!

المثل السادس

◆ « جان » ولد فى الثامنة . فقد أمه وهو فى الثانية من عمره ، فتزوج أبوه من امرأة هى المثل الاعلى لامرأة الاب ! فهى مفرطة فى العناية به والسهر عليه ، وفى تأنيبه اذا أهمل ! ذلك أنها تريد له الكمال فى كل شيء .. وهى من أجل ذلك دائمة الشكوى منه ، لانه كثيرا ما يخيب الآمال المعقودة عليه : انه مهمل فى عمله ، يثور كالبركان اذا وجه اليه أحد أية عبارة من عبارات التأنيب .. وهو فوق ذلك يكذب ، بمقدار عدد أنفاسه التى تتردد فى صدره !

لكن « جان » يكشف لنا عن ناحية أخرى من اخلاقه وطريقة فهمه واستيعابه للامور ، وهى ناحية لم تكتشفها لحسن الحظ امرأة أبيه ، والا لجاءت النتيجة وبالا عليه !.. ذلك أنه يحلم بأن يكون له درج خاص يضع فيه أشياءه الخاصة التى يجب أن لا يعرفها أحد سواه ! درج لايكون لامرأة أبيه ولا لغيرها الحق فى أن تعرف ماذا يحتويه . ان لكل من زملائه تلاميذالقسم الداخلى فىالمدرسة مثل هذا الدرج الذى يقفله «بقفل» صغير .. أما هو فمحروم من الحصول عليه لانه من تلاميذ القسم الخارجى !

وذات يوم انتهز «جان» فرصة سهو من جاره فى الفصل ، فغافله وسرق منه مفتاح قفله الصغير أولا .. ولم تمض ساعات قليلة حتى تمكن من سرقة القفل نفسه !.. ثم وجه «جان» كل همه بعد ذلك لاخفاء هذا «الكنز» عن انظار امرأة أبيه ! فلما أرخى الليل سدوله وضع القفل والمفتاح تحت وسادته ، ونام قرير العين يحلم بالدرج السرى السحرى العتيد ! .. فلما استيقظ فىالصباح أخرج القفل والمفتاح من تحت الوسادة ، وأخذ يعمل فى القفل فتحا وقفلا دون سأم ولا كلل .. وهنا رأته امرأة أبيه ، فسألته : « من أعطاك هذا القفل ؟! » ، فأجابها : « زميلى ديبون !» ان امرأة ابيه شديدة الحرص على البلوغ بأخلاقه مرتبة الكمال ، ومن ثم فقد أجابته على الفور : « لطالما حذرتك من قبول أية هدية مهما هان قدرها من أحد زملائك ! ان هذا القفل لا يخص « ديبون » ولكنه ملك أبويه اللذين اشترياه له ودفعا ثمنه مبلغا من المال من جيبيهما الخاص .. فعليك باعادته الى صاحبه فى الحال .. أفهمت !؟ »

ولكن « جان » لا يجرؤ على اعادة القفل الى صاحبه لانه قد سرقه منه ! وفوق ذلك فان والد « ديبون » قد ابتاع له غيره حين عرف انه قد سرق منه . فماذا يصنع « جان » لينقذ نفسه من هذه الورطات مجتمعة » !؟.. لم يجد سوى مخرج واحد من هذه الورطات الثقيلة ، هو أن يلقى بالقفل والمفتاح العزيزين عليه ، فى فناء المدرسة .. فما أن فعل حتى رآه أحد التلاميذ فصاح يقول : « ان هذا القفل لى ! » ووثب على القفل الملقى على الارض وأخذه ووضعه فى جيبه !

عندئذ شعر « جان » بشىء من العزاء والراحة ، اذ رأى انه ليس الوحيد الذى يسرق ، وان هناك من يسرق مثله، ويفعل فعلته ! لانه كان يعلم ان « ديبون » هو صاحب القفل الحقيقى ، وليس ذلك « اللص » الذى التقطه وادعاه لنفسه !



وكبر « جان » وأصبح رجلا ، وقص هذه القصة التى وقعت له وهو فى الثامنة من عمره ، ثم علق عليها بقوله انه يشعر دائما بخجل من نفسه واحتقار لها كلما تذكر انه « سرق » فى يوم من الايام !

وكانت تلك هى المرة الاولى والاخيرة التى اقترف فيها جريمة السرقة ، طيلة حياته !

وكنا قد ذكرنا فى بداية قصته ان هذه الناحية من اخلاقه ، ناحية السرقة ، لم تكتشفها امرأة ابيه « لحسن الحظ » !؟ فلماذا ؟ لانه يقول - بعد أن أصبح رجلا - ان امرأة أبيه لو اكتشفت مافعل لبالغت فى زجره وتأنيبه وعقابه ، وانها لو فعلت ذلك لعاد الى السرقة ثانية .. تماما كما كان يعود الى الكذب واهمال دروسه كلما قذفته ، فى وجهه ، بهذه النقائص ، وكلما اشتطت فى مواجهته بتهم الكذب والاهمال !.. ذلك ان الطفل يصدق كل مايقال له . وهو « يصب » نفسه فى « قالب » السمعة التى نشيعها عنه .. فليس أخطر من أن « نبلور » أخطاءه ونجسمها فنحولها بذلك من بخار ، لا يكاد يظهر حتى يضمحل ، الى مادة صلبة صلدة ، كأنها منحوتة من أديم الصخور !

ماذا نفيد من هذه الاختبارات ؟!

◆ للعالم الكبير « باسكال » قول مأثور مشهور ، هو : « ان للقلب معاذير لا يعترف بها العقل » .. فقلب الولد ينطوى على معاذير وأسباب دفينة فى تلافيف نفسه يصعب علينا تخمينها واماطة اللثام عنها . ولكن هذه الاسباب معقولة دائما . فأول ما يجب على الآباء فعله عندما يرون ولدهم

«يسرق» هو أن يبذلوا جهدهم في محاولة فهم الامور على حقيقتها ، واضعين جانبا المبادىء التى تواضع الناس عليها فى تقدير السرقة والسارقين ٠ لان هذه المبادىء تنطبق على الكبار الراشدين ، وما ينطبق على هؤلاء لا ينطبق على الصغار ٠٠

وكل حالة يجب أن تدرس على حدة وبمعزل عن غيرها ٠٠ فهناك أولاد يسرقون لانهم ضحية قدوة سيئة قد تكون فى عائلاتهم نفسها ٠٠ كما أن السرقة عند فريق آخر قد تكون ناتجة عن علة مرضية – ولو ان هذا نادر قليل – أما الذين روينا أمثلتهم فيما سبق ، فهم لا يختلفون عن سواهم ممن لم يقترفوا هذا الخطأ ، فلا هم مصابون بأية عاهة نفسية ، ولا هم ضحية قدوة سيئة ٠٠ وانما هم أولاد وجدوا فى ظروف نفسية عسيرة ، فالسرقة عندهم كانت المتنفس الوحيد لتلك الظروف النفسية العسيرة !

الشعور بالاثم عند الاطفال !

◆ ومن المهم أن نبين هنا أن الولد اذا سرق فانما يفعل ما يفعل وهو واع ومقدر لفعلته تمام التقدير ، عالما بأن ما يأتيه أمر محظور غير مشروع ٠٠ ولكنه يكون دائما متشوقا للحصول على شىء حرم منه ! بل كثيرا ما يحس بجرمه ويدلل على هذا الاحساس بالصياح أو البكاء ٠ ذلك أن الشعور بالاثم عند الأطفال أكبر وأعظم مما نتصور !

كذلك يجب أن نعلم ان طبيعة الشىء المسروق لها أهميتها : فاختلاس بعض الحلوى من أحد أدراج غرفة الطعام قد لا يكون أكثر من عمل ينم عن الشراهة فى حب الحلوى ٠ ولكن علينا أن نعنى جيدا بالبحث عما اذا كانت السرقة قد تكررت ، لان لهذا التكرار مدلولات أخرى ٠٠ فالطفل الذى يضبط فى أول مرة تتغير نظرته الى عمله اذا ما عاد الى السرقة ، أى تكرر « عوده » الى ارتكابها !

وكثيرا ما يرمز الشىء المسروق الى احساس معين مغلق تضطرم به نفس الطفل ، فنحن ما نزال نذكر ذلك الطفل الذى سرق القفل والمفتاح ، والآخر الذى سرق ليشترى مجموعة من طوابع البريد ٠٠ اذ أن مدلول هذا العمل عند هذين الولدين معناه : « السر الذى أريد أن أحتفظ به لنفسى وأتميز به عن غيرى ! » ٠٠ كما اننا نذكر ذلك الابن الذى سرق نقود أبيه ليبتاع بها بندقية يزهو بها على أقرانه ، فان دلالة هذا الفعل عنده معناها « القوة التى أريدها لنفسى ، والتفوق الذى آمل أن أظفر به ! » أما ذلك الذى سرق الحلية الرخيصة المهداة الى أخته الصغيرة ، فقد تكون دلالتها عنده أن : « هذا هو نصيبى من الحب الذى أكنه للمولودة الجديدة !! »

ماذا نحن صانعون ؟

◆ فاذا حانت مرحلة التفكير فى العلاج ، كان علينا أن لا نجسم الامور ، وأن نفكر فى تؤدة وأناة ٠ ٠ فليس من الميسور ان ننفذ الى اعماق نفس الصغير ونميط اللثام عن سرها الدفين ، لانه هو نفسه أول من يعجز عن الادلاء بالأسباب الحقيقية لأعماله !٠٠ ويجب علينا بصفة خاصة ان لا نسأله عن تلك الأسباب٠ فاذا أمكننا تقصيها، أو معرفتها ، أو استنتاجها ، فلنحرص على الا نحدثه فى أمرها ! لاننا ان فعلنا ذلك فقد نتعرض لمس الأوتار الحساسة ، الى أبعد حد ، فى نفسه ٠٠ وفى هذا خطر كبير ٠ ولعل وجود هذه الحساسية المفرطة فى نفس الصغير هو الذى يجعل تدخل المربين فى هذه الناحية غير منتج ، بل كثيرا ما يأتى بنتائج عكسية ! ٠٠ ذلك أن الطفل الذى يسرق هو طفل تواق طموح ، فهو يتشوق الى الحصول على شىء يحبه ويتمناه ٠ فاذا تدخل المشرفون على تربيته تدخلا مشوبا بالهوج والرعونة ، فان هذا سيدفعه لا الى الكذب مرة فحسب ، بل الى اعتياد الكذب ، حيث لا موجب للكذب فى كثير من الأحيان ٠ بل لقد يعمد الى اختلاق الأسباب والمعاذير التى لا يمكن لعقل أن يتصورها أو يقتنع بها ، كأن ينكر مثلا ـ ويلح فى انكاره ـ حقيقة مقطوعا بها ، كوجود الشمس فى رابعة النهار !

وهناك من يسرق بدافع الكرم والسخاء ، كتلك الابنة الصغيرة التى سرقت لتشترى قلما تهديه لامها ! ٠٠ فان اهداءها القلم لامها ان هو الا تكفير عن خطيئتها ، وهو تفكير تسعى اليه باتيانها عملا جميلا فى ظاهره بالنسبة الى تفكيرها ٠٠ فكل رعونة أو هوج من جانب الآباء ، قد يؤدى الى مضاعفات من شأنها دفع الأبناء أو استفزازهم الى ارتكاب أعمال جسيمة ، لا نكاد نصدق كيف فعلوها ٠٠ ولا كيف وقعت منهم !

أما رد الفعل الذى كثيرا ما يصدر عن الآباء فى تلك الأحوال ، فيتلخص فيما يأتى :

أولا : فى ذلك الذعر الذى يصيبهم عندما يرون تلك الأعمال ٠٠ ثم تجسيمهم للأمور وتصورهم بأن ما وقع هو كارثة كبرى وداهية دهياء ، وتخيلهم وقوع أعمال أفظع وأبشع فى المستقبل ٠ هذا الذعر ، وهذا التهويل والتجسيم ، بل هذا التطير ، ليس الا أمورا بالغة الضرر ، بالغة الخطورة ٠٠

ثانيا : كثرة العقوبات ، فان مبدأ العقاب ليس سيئا فى ذاته ٠ فالابن يتقبل فكرة أنه يستحق عقوبة تتناسب مع الخطأ الذى ارتكبه ، ويفهم ذلك جيدا ٠ ولكن علينا أن نتذرع بكثير من الحذر وحسن التقدير ، ودقته ، حتى

لا يشعر الابن باننا نشتط فى عقابه الى حد ظلمه ٠٠ والا فاننا نوقظ فيه تلك النوازع الداخلية التى حفزته الى السرقة ٠٠

فاذا سرق أحد الأولاد مائة فرنك مثلا فان من القسوة أن نعاقبه على فعلته بأن نخصم هذه المائة فرنك من ثمن الهدايا التى كنا نزمع تقديمها له ، والتى كان ينتظرها بصبر نافد ٠ فالعقوبات التى تذل كرامة الطفل سيئة الأثر ، سيئة النتائج ٠ وانك لتخالف جميع مبادىء التربية الصحيحة اذا أنت أجبرت الابن على الاعتراف بجرمه أمام مجلس مكون من أفراد العائلة ، أو اذا أنت أجبرته على أن يكتب هذه العبارة مثلا : « أنا لص ! » وان يقدم الورقة المتضمنة لهذه العبارة المهينة الى استاذه فى المدرسة ٠٠ فاذا زدت على ذلك تهديدك له بوضعه فى أحد الأقسام الداخلية ، فان هذا التهديد سيزيد الأمر سوءا بلا مراء ٠٠

اننى أرجوكم أن تعيدوا قراءة الأمثلة الحية التى قدمتها لكم فيما سبق ، لتدركوا مقدار حاجة الأولاد الصغار ، الذين يسرقون ، الى عطف الاسرة وحنانها ٠٠ ان هذه الأساليب الرعناء التى أشرت اليها من شأنها أن تشحذ فى الابن الرغبة فى الحصول على الشىء الذى يتحرق شوقا للحصول عليه ، وتزيد فى قلقه واضطرابه ، وتثير رغبته فى المقاومة ٠ وما المقاومة هنا الا العود الى ارتكاب السرقة ثانية !

ثالثا : العطف والابتسام ، وهو يلخص فى أن يغفر الآباء للأبناء أخطاءهم ٠ بل أكثر من ذلك فانه من المفيد أحيانا أن يمتدح الآباء الطريقة التى سرق بها الأبناء ما سرقوه ، كأن يصفوا السارق « بالمهارة » مثلا ! وحينئذ ستكون النتيجة أن يظن الابن أن كل شىء أصبح مباحا له ٠٠ وقد يتمادى الى حد الرغبة فى استفزاز غضب والديه ليرى الى أى حد يستطيع استثارتهما ٠٠ وهو لا يفعل ذلك عن شهوة الى السرقة ، بل هو يحاول استفزازهما ليجذب اليه الأنظار ٠٠ وما ذلك الا نتيجة لاحساسه بأنه لا ينال من أبويه شيئا من الرعاية ، أو هو يستفزهما لكى يسبر غور حبهما له ، ذلك الحب الذى لم يستشعره من قبل !

وليس معنى ذلك أن نترك للابن الحبل على غاربه ، فان هذا يتساوى ، من حيث الخطورة ، مع بطشنا به وتعذيبنا له !

وقد يحدث أن يرى الابن أن أبويه يسرقان ٠٠ وحينئذ لا يرى ثمة ما يحول دون تقليده لهما ونسجه على منوالهما ! ٠٠ واذا بهما يكتشفان أمر سرقته بينما هما يجهلان انه قد عرف بما يصنعان ، فينقلبان فى معاملته من النقيض الى النقيض ٠ وتتحول المغالاة فى الرفق الى مغالاة فى العنف ٠٠ « أتجرؤ على أن تفعل معنا هذه الافعال الفظيعة ٠٠ نحن الذين لا ندخر

وسعا لارضائك واجابتك الى جميع رغباتك !! » ٠٠ ولكن ما ذنب الولد الصغير اذا كان يقلدكما أنتما فيما تصنعان أيها الأبوان ؟

ان الواجب يحتم على الأبوين أن يسلكا فى حياتهما الخاصة ذات المسلك الذى يريدانه أو يتمنيانه لابنهما ٠٠٠ وليس أيسر ولا أقرب الى طبيعة الأشياء من أن يجعلا معاملتهما له مزيجا من الحزم والحنان معا

نصائح عملية

أولا : علينا أن نشغل وقت الطفل ، على أن نترك له فى الوقت نفسه بعض الحرية ٠ فلو أنه أخذ فى تكوين مجموعة من طوابع البريد ، وفى قطع الأخشاب بالمنشار ، أو أراد اللحاق بزملائه الذين يحبهم ويحس أنه سعيد بمعاشرتهم ، أو رغب اللحاق باحدى فرق الكشافة ، أو وجه اهتماما خاصا بالالعاب الرياضية ٠٠ وعلى العموم اذا تركناه يكثر من شواغله ونشاطه فى شتى النواحى ، واذا غذينا من جانبنا هذا النشاط المتشعب النواحى ، وقويناه ، وتعهدناه بالتشجيع والتوجيه ٠٠ اذا فعلنا ذلك فان الصغير لا يفكر على الاطلاق فى السرقة ٠٠ وان هو فعل فسيكون ما يفعله تافها ضئيلا ، ليس بذى بال !!

ثانيا : يجب أن لا يغيب عن أذهاننا ان الصغير اذا بدأ يسرق فقد يكون ذلك راجعا الى أن فى الجو المحيط به شيئا يدفعه الى ذلك !٠٠ فلنكن حذرين ولنفهم الامور والملابسات على حقيقتها

ثالثا : علينا أن نتجنب الشطط والاندفاع الأهوج الى اشعاره بسوء ظننا فيه وتخوفنا منه وعدم ثقتنا فى تصرفاته ، كأن نقفل جميع الأدراج مثلا بالمفتاح ٠٠ وفى الوقت ذاته يجب علينا أن لا نسرف فى الثقة فيه ، كأن نترك مبالغ كبيرة من النقود ملقاة هنا وهناك فى متناول يده ، فان هذا اغراء له بالسرقة ! فاذا وقعت السرقة فيجب أن لا نخفى عنه علمنا بها ولكن لا على انها « سرقة » بل على انها « خطأ » وقع ، لا أكثر ٠٠ فلا نحقد عليه أو نذكره بما صنع بعد ذلك ٠ بل علينا أن نجعله يشعر بأنه ما زال محتفظا بثقتنا فيه ، وان نتجنب دائما ان نلقى فى روعه بأنه ولد غير أمين !!

وينبغى علينا أن نجنب الطفل العلم بما نلاقيه نحن الكبار من متاعب وصعاب فى حياتنا ، قد لا يتفق العلم بها مع صغر سنه ٠٠ ولنبتسم فى وجهه دائما حتى أثناء احساسنا بالتعب أو الضجر ٠٠ اذ ليس على الولد الصغير أن يسند أبويه فى الصعوبات التى يلاقيانها ٠

رابعا : عليك أن تواجه الموقف على حقيقته ، وذلك بأن تتحدث الى الولد بصراحة واخلاص .. فكلما كنت صريحا معه كلما ازداد فهما لما تقول ، وكلما أحس براحة ، استراح واطمأن اليك !

وعليك أن تبين له وجه الخطأ فيما فعل .. ولكن لا تفصح له عن تقديرك أنت لما فعل .. وارشده الى الطريق الذى يجب أن يسلكه فى المستقبل

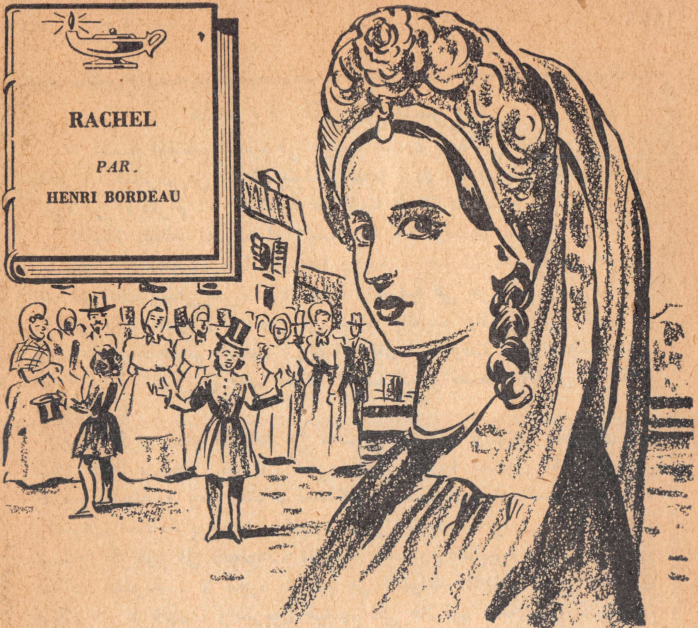
انك تستطيع أن تتخذ معه بعض الاجراءات الشديدة حين يخطىء ، ولكن لا تفقد حنانك عليه ، بل دعه رابضا فى قرارة نفسك حتى وانت تشتد فى زجره.

وكل اجراء تتخذه معه يجب أن يكون مباشرا ، وان تكون له مبرراته فى عينى الولد نفسه .. وبعدئذ يجب قفل الموضوع نهائيا ، فلا تعد الى التحدث معه فيه مرة أخرى !

وحذار من أنصاف الحلول ، بل عليك بالحلول المعتدلة .. وكن أكثر تعقلا واتزانا من أولادك ..

ومن المفيد ان ننصح بعض الآباء بأن يستشيروا الأطباء الاخصائيين فى بعض الحالات التى يرون فيها أبناءهم ذوى مزاج عصبى حاد

ان التربية عمل يومى . ولنذكر على الدوام حكمة فاه بها المربى السويسرى الذائع الصيت « كلاباريد » جاء فيها قوله : «لم يقل أحد قط ، فى أى زمن من الأزمان ، ان تربية الطفل أمر هين يسير ! »



ملكات ونساء - ٦

للكاتب الفرنسي الكبير هنري بوردو

راشيل

من الأزقة والشوارع الى قمة المجد والشهرة!

ملكة .. ولكن على المسرح !

◆ أفسح المجتمع القديم فى فرنسا صدره للممثلين الهزليين ، ولكن بقدر .. فبالرغم من انه لم ينبذهم تماما ، الا انه لم يكن يضفى عليهم كثيرا من الاحترام !.. فمثلا ، ظل زمنا طويلا لا يسمح لهم بالاشتراك فى الحياة العامة أو الحياة السياسية .. ولكنهم مالبثوا أن بدأوا يزحفون على الحياة العامة رويدا رويدا ، بعد اذ أحسوا أن المجتمع الفرنسى بات يشعر بشىء من التسلية والترفيه فى حركاتهم ومسرحياتهم!

ولم يكن نابليون ليسمح فى عهده بالعبث والمجون فى الشوارع والطرقات ، فأخذهم بالشدة ، ولو أنه كان فى الوقت نفسه يعطف عليهم كثيرا ، اذ كان يرى فيهم طائفة تعرف كيف تضحك الناس بفرنكات معدودات !

وبدأ أفراد تلك الطائفة من محترفى الفكاهة والهزل يتجمعون على شكل فرق منظمة ، بعد أن شعروا انهم صاروا يحتلون مكانا لا بأس به فى الدولة . ومع ذلك ، فقد كان ينقصهم احترام السلطات لهم ، واعتراف الحكومة بوجودهم وفنهم ، وهو اعتراف كانوا فى حاجة اليه ، ليشقوا طريقهم الى المجتمعات الراقية والمسارح الكبيرة ، ويتحولوا الى هيئات محترمة ، لا مجرد شراذم من الطوافة الماجنين الذين يجوبون البلاد على عرباتهم ، ويضربون خيامهم أنى حلا لهم ، عارضين تمثيلياتهم الرخيصة على الناس ..

وهنا تظهر « راشيل » فى حيز الوجود ، فيكون ظهورها نقطة التحول فى تاريخ « الكوميديا » فى فرنسا . فقد نضت عن هذا الفن الأثواب الرثة البالية التى كانت تلفه ، وكسته حللا جديدة زاهية ، وأكسبت محترفيه الاحترام الذى كان ينقصهم ، بعد أن أزالت عنهم وصمة التشرد، وانتقلت بهم من الأزقة والشوارع الى المسارح الكبيرة والاوساط الفنية الراقية فى فرنسا . وما زالت ترتفع بهم ، حتى جعلتهم يقبضون على أزمة المسارح والمؤلفين والرأى العام !

من هى « راشيل » ؟

◆ **ولدت** « راشيل » فى ٢٨ فبراير عام ١٨٢١ ، فى قرية (مامف) ، احدى قرى سويسرا الصغيرة . وقد

كافأتها سويسرا على هذا « الصنيع » ، بأن أقامت لها تمثالا فى تلك القرية ٠٠ كما لو كانت ارادتها قد لعبت دورا فى ولادتها !

وكانت أسرة « راشيل » من الأسر الاسرائيلية رقيقة الحال ٠ وقد كان أبوها « فيلكس » فى الاصل من (بوهيميا) ، ثم نزح وزوجته الى سويسرا ، وهما لايحملان جنسية ما ٠ وفى أثناء اقامتهما فى قرية (مامف) ولدت « راشيل » ٠ ولكن الاقامة فى سويسرا لم تطب لفيلكس ، فاذا به يتركها الى فرنسا ، مجرجرا وراءه شرذمة من أولاده وبناته ٠ وفى باريس ، حطت الاسرة عصا الترحال ، بعد اذ رأى عميدها انها مرتع خصيب لاستغلال أولاده ، والاتجار ببناته !

وتنصرم العشرة أو الخمسة عشر عاما الاولى من حياة راشيل، وهى تحيا حياة التشرد ٠ فقد كانت تجوب شوارع باريس وميادينها لتغنى فيها ، بينما تدور احدى شقيقاتها على الملتفين حولها من المارة ، بقبعة فى يدها ، لتجمع منهم الصدقات !٠٠ وقد أطلق بعض الباريسيين من سكان حى «بورت سان مارتان» على « راشيل » اسم « جورج الصغيرة » ، وذلك للطريقة التى كانت تغنى بها أغنية « اليهودى التائه » !

غير ان الفتاة الآفاقة ، الشريدة ، استطاعت أن تجتذب انتباه بعض أفذاذ الفنيين الفرنسيين فى ذلك العصر ، من أعلام الموسيقى ، أمثال « كورون » و « بيرييه » ، حتى لقد قيل ان « كورون » — مدير معهد الموسيقى الدينية — أعجب بها ، فلم يبخل عليها بدروس خاصة لصقلها وتنمية ملكاتها !٠٠ كما قيل ان «بيرييه» — الموسيقى الذائع الصيت — بلغ اعجابه بها حدا جعله يتحمل مشقة الصعود اليها فى مسكنها الحقير ، فى الطابق الخامس باحدى الدور فى باريس ، مرات عديدة ، كى يلقنها فن الأداء !٠٠ وقيل انها واظبت على دروس «كورون»

زهاء عامين كاملين ، دفع بها بعدهما الى معهد الموسيقى العالى (الكونسرفاتوار) . الا انها لم تطق البقاء فيه طويلا ، لأنها لم تكن بطبيعتها ميالة الى التعمق فى الدرس والتحصيل ، لأمد طويل . كما ان اسرتها – وعلى رأسها والدها « فيلكس » – أخذت تتنبه الى عبقريتها ، وملكاتها ، فأرادت الاسراع باستغلال هذه الملكات ، استغلالا يعود عليها بالربح العاجل !

من الطريق .. الى « الكوميدى فرانسيز » !

◆ **وكانت** « راشيل » فى السادسة عشرة ، حين اعتلت خشبة المسرح لأول مرة فى حياتها . وكان ذلك فى مسرح (الجمناز) . ومع ان دورها لم يكن من الادوار الهـــامة ، وبالرغم من أن التمثيلية نفسها لم تكن دقيقة الحبكة من الناحية الفنية ، الا أن « راشيل » استطاعت أن تخلع على التمثيلية التافهة رونقا وبهاء ، أذاعا صيتها فى جميع الأوساط الفنية فى فرنسا !

.. على أن نجم « راشيل » لم يبدأ فى الصعود بشكل « جدى » ظاهر ، الا فى ١٢ يونية عام ١٨٣٨ . فقد كان ذلك اليوم بمثابة نقطة التحول فى حياتها ، اذ قامت فيه بتمثيل دور « غادة الكاميليا » ، على أكبر مسرح فى فرنسا ، وهو مسرح « الكوميدى فرانسيز » !

وكان نجاح « راشيل » فى دور « غادة الكاميليا » حدثا عظيم الأثر ، لا فى حياتها فحسب ، بل فى تاريخ المسرح الفرنسى على الاطلاق !.. فقد امتاز نجاحها الباهر فى تمثيله بظاهرة عجيبة ، نادرة الوقوع : ذلك ان العـــادة قد جرت – وما زالت تجرى – على أن ينقسم النقاد ، وهم يتناولون الممثلين بنقدهم وتحليلهم ، مابين معارضين ومؤيدين ، محبذين وناقمين ، معجبين وساخطين ! .. فاذا شذ فريق عن هذين الفريقين ،

فهو الذى يقف بين بين ، لا يعنف فى هجومه ، ولا يغالى فى ثنائه • ولكن النقاد شذوا جميعا عن هذه القاعدة حيال الممثلة الناشئة ، اذ « اجمعوا » على الاعجاب بها ، والثناء عليها !•• وقد كتب « جول جانين » ، عميد النقاد فى عصره ، يصف الفتاة المبتدئة ، فقال : « **لقد رأينا عجبا ! فتاة صغيرة جاهلة ، لا خبرة لها ، ولا تعلم عن الفن شيئا ، تقتحم قلب المأساة على خشبة المسرح ، وتنفخ فى رمادها ، فتشعل نارها وتردها الى الحياة من جديد !•• ويزيد من عجبنا أن تلك الفتاة مازالت صغيرة السن ، عامية ، دميمة ، مقوسة الصدر ، تافهة !** »

وقد صدق « جول جانين » حين وصف « راشيل » بالجهل • فقد كانت بالفعل جاهلة جهلا مطبقا ، منقطع النظير ! وقد فطنت أسرتها الى هذه النقيصة فى فتاتها الموهوبة ، فعمدت الى تثقيفها عن طريق بعض الدروس الخاصة •لكنها لم تستفد من تلك الدروس كثيرا • وحين أخذت شهرتها فى الذيوع ، رأت أن تجعل الى جوارها مستشارا عالما ، يسندها فى الأزمات ، ويبصرها بما ينبغى أن تفعل ! وقد اصطفت المحامى الفرنسى الذائع الصيت « كريميو » للقيام بهذه المهمة ، فتكفل بتحرير خطاباتها ، وظل قائما بهذا العمل وقتا طويلا • وقد أضفت بلاغته عليها شهرة عظيمة ، اذ ظنها الناس كاتبة مجيدة وأديبة لا يشق لها غبار ! •• فى الوقت الذى كانت تجهل فيه مبادىء القراءة والكتابة !

الأمراء يتهافتون على خدمتها !

◆ وذهبت « راشيل » الى انجلترا لتمثل على مسارحها • وهناك ، انهالت عليها الدعوات من أرقى الطبقات ، فكانت تفزع الى « كريميو » ليكتب لها الردود على تلك الدعوات • وفى الوقت نفسه ، بذلت جهودا جبارة لتتعلم مبادىء الكتابة ، لعلها تتمكن من تحرير خطاباتها بنفسها ، اذا ماتطلبت الظروف أن



تكتب ردا سريعا لا يحتمل التأجيل ٠ وما زال المحيطون بها يوالونها بالتدريب والتهذيب، ويمدونها بالمعلومات الضرورية فى آداب السلوك ، حتى اضحت قادرة على الظهور فى المجتمعات ، وتلبية ما يوجه اليها من دعوات٠ غير ان وجود « كريميو » الى جوارها دائما كان أمرا حتميا ، حتى يجنبها الزلل والهفوات فى المجتمعات المختلفة ، ولا سيما فى الحفلات الساهرة ٠٠

وحدث ان وقعت راشيل فى غرام أحد الاطباء ،ويدعى «الدكتور فرنون»٠ وحين افتضح أمر هذا الغرام ، لم يتردد « كريميو » فى قطع صلته بها ٠ ولكنها كانت قد وصلت الى مرتبة رفيعة فى المجتمع ، فلم يؤثر هجر « كريميو » لها ، اذ وجدت أكبر الكتاب وأشهرهم رهن اشارتها ، متطوعين لتأدية ماكان يقوم به المحامى الفرنسى الكبير ٠ ومن الطريف ، ان بعض أمراء البيت المالك الانجليزى كانوا من بين هؤلاء المتطوعين لخدمتها !٠٠ وظلت «راشيل» على تلك الحال ردحا طويلا من الزمن ، الى أن شاء الله لها أن تبدأ فى الالمام بقواعد اللغة الفرنسية ٠

ومن الغريب ان « راشيل » ، مع جهلها الشائن بكل ما لا علاقة له بأدوارها، كانت اذا اعتلت المسرح ، بدت فى أروع مظهر يستطيع أن يظهر به أعمق الناس علما وأوفرهم ثقافة !٠٠ أما ما كان يحير الالباب حقيقة ، فقد كان اتقانها لقواعد اللغة الفرنسية أثناء التمثيل !

ولم تلبث الصورة التى رسمها الناقد « جول جانين » لراشيل ان تغيرت وتلاشت معالمها الاولى ٠ فقد فارقتها دمامتها بعد أن كبرت ونما جسمها ٠٠ بل ان الفتاة المتشردة أصبحت غادة هيفاء فاتنة ، واستحالت الى سيدة مهذبة راقية ، بفضل الاوساط التى أخذت ترتادها ، ومداومتها على التردد على متحف (اللوفر) ، حيث كانت تقضى ساعات طويلة أمام لوحاته الفنية الخالدة ، لتتعلم كيف تكون الجلسات الوقورة ، والاوضاع الارستقراطية ، والوقفات الملكية ، والايماءات المتزنة ! ٠٠ فضلا عن انها كانت قد غدت عشيقة الامراء والنبلاء ، وقبلة أنظار العظماء والاثرياء !٠٠ الامر الذى أتم ماكان ينقصها من تهذيب وتثقيف

أما « الدكتور فرنون » الذى قطعت « راشيل » بسببه صلتها بالمحامى الفرنسى « كريميو » ، وأصبحت عشيقته ، فقد كانت ميزته الوحيدة انه رجل واسع الثراء - وكانت الثروة دائما تسيل لعاب « راشيل » ! - وفيما عدا ذلك ، كان رجلا حقيرا ، وضيع الخلق !٠٠ ويقال انه أول من استولى على جسدها ! - هذا اذا كانت الأزقة والشوارع قد تركت لها جسدا يمكن الاستيلاء عليه ! - وقد استمرت علاقتها به ثلاثة أعوام ، عزفت عنه بعدها ، اذ وقعت فى غرام جديد ٠٠ هو غرامها بالكونت « والوسكى »

انتقام العشيق القديم !

◆ ولم يمر الحادث دون معقبات ٠ فقد شعر « فرنون » كأن سهما قاتلا أصاب كبرياءه وأذله ، فعمد الى الانتقام منها ، وسلك فى ذلك المسلك الذى يليق برجل وضيع مثله : فحتى يكون التشهير بها كاملا ، والضربة قاضية ، جمع رهطا من أصدقائه وأخذ يتلو عليهم الخطابات التى كانت تشتعل غراما وهياما ، والتى تلقاها من « راشيل » فى بداية علاقتـــه بها ، بعد أن باتت محظيته !!

وكانت « راشيل » فى انجلترا عندما ترامت الى سمعها أنباء حملة التشهير التى شنها عليها « فرنون » ٠ ولكنها كظمت غيظها ، ولم تشأ أن ترد على تحديه - فهى اسرائيلية قبل كل شىء ، وتدرك ، بفضل الدماء التى تجرى فى عروقها ، ان للأيام دورات ٠٠ وانها قد تعود فتحتاج الى « فرنون » و « كريميو » من جديد !

والواقع ، ان « راشيل » كانت معنية فى ذلك الوقت بازالة الوصمة العالقة بها بسبب وضاعة منبتها ٠ ولكنها كانت وفية لاسرتها وفاء عظيما ٠٠ فماذا تصنع ؟ ٠٠ عمـــدت الى رفع مســـتوى أفراد الاسرة ، كى لا يصبحوا عالة عليها أو عارا لها ، خاصة وانهم كانوا يتبعونها أينما ذهبت ٠٠ ولم يكن هذا الوفاء غريبا منها ! أو ليس أبوها « فيلكس » هو صاحب الفضل الاول والاكبر عليها ؟! ٠٠ أو لم تدفعه غريزته الى سلوك كل سبيل لاســـتغلالها استغلالا مربحا ، در عليه وعليها مالا وفيرا وثراء عريضا ؟! ٠٠

أو لم يكن يعمد الى فسخ جميع العقود التى تبرمها ، ليبرم عقودا غيرها ذات أرقام أعلى وأسخى ، وذلك بحجة انها لم تزل قاصرا ، فلا حق لها فى ابرام العقود دون موافقة والدها ؟!٠٠ بل انها ما برحت تذكر اليوم الذى قذف به فيه « سامسون » مدير مسرح « الكوميدى فرانسيز » على الدرج ، من فرط غيظه منه ٠٠ فنهض الأب الوقور ، ونفض الغبـــار عن ملابسه فى هدوء ، ثم قال وامارات الاستغراب والدهشة تطفح من وجهه وصـــوته :

« لماذا يغضب هذا الرجل ؟! .. ان نجم ابنتى يتألق ، وسعرها فى ارتفاع مستمر ، فما العيب فى ان أضاعف أرباحى من وراء شهرتها الواسعة ؟! »

ولما سافرت « راشيل » فى رحلتها الى انجلترا ، كان الوالد « العزيز » فى ركبها ، حيث كانت مهمته قاصرة على السهر على الايراد ! .. وحين تقدمت به السن ، واعتكف فى الريف ، عهد بهذه المهمة الحساســة الدقيقة الى ابنه « رافاييل » ، فكان هذا الشبل من ذاك الأسد !

ونظم « رافاييل » لشقيقته رحلات كثيرة فى المدن الفرنسية ، وخارج فرنسا ، وفى أنحاء الدنيا الجديدة .. وبذلك بز أباه فى ذكائه الاستغلالى ، وانتهازه الظروف ، ومعرفته كيف ومن أين تؤكل جميع الأكتاف ! .. ومن الطريف ان « راشيل » قالت مرة تصف أخاها : « ان رافاييل أدق مثل لليهودى التائه .. وأما أنا ، فأشبه العملة الصغيرة من أجزاء الفرنك ! » .. ولعلها أرادت المزاح ، اذ كانت تساوى الملايين !

تفرض أخواتها على المسارح !

♦ قلنا ان « راشيل » أرادت ان تنتشل اسرتها من حضيض البوهيمية الذى كانت تتردى فى وهدته . ولما كانت لها عدة شقيقات ، فقد استغلت نفوذها وسطوتها كى تفرضهن على المسارح الكبيرة ، بالرغم من تجردهن من كل المواهب التى تؤهل للتمثيل ! فقد اقحمت اختها « سارة » على « الكوميدى فرانسيز » . وفشلت « سارة » فشلا ذريعا ، ومع ذلك أصرت « راشيل » على أن تظل فى الفرقة ، وأن تظهر على المسرح بين « الكومبارس » ! .. ثم فرضت اختيها « اليا » و « دينا » على نفس المسرح ، مهددة بالاستقالة اذا رفض طلبها ! .. أما اختها « ربيكا » ، فقد كفتها شر القتال ، اذ ماتت بالسل فى ريعان شبابها .. والا لما عدمت « راشيل » وسيلة لفرضها على مسرح من المسارح !

.. لقد كانت « راشيل » فى الواقع اختا وفية ، مثالية فى البر بأفراد أسرتها ، لا تعدل مثاليتها فى ذلك سوى مثاليتها فى حب المال وجمعه !.. كل ذلك وهى لم تزل بعد فى مقتبل العمر ، لم تجاوز العشرين ربيعا . أما الصبية الجاهلة ، التافهة ، المتشردة ، المجردة من أية موهبة .. تلك الفتاة التى رسم لنا « جول جانين » صـورتها التى اسلفنا الاشارة اليها ، فقد أصبحت ملكة المسرح فى العالم بلا منازع ! .. فكانت اذا ما قامت بتمثيل دور امبراطورة مثلا ، خيل لمن يشاهدها انها امبراطورة حقيقية ، لحمـا ودما ! .. فقد كانت تعرف كيف تصب نفسها فى كل قالب ، وتصبغها بكل لون ، وتصوغها فى أى شكل .. لقد أجادت تقليد لوحات متحف (اللوفر)

الى حد الاعجاز ، كما برعت فى تقليد ايماءات النبلاء والعظماء حتى كادت تصبح منهم !! ٠٠ وجابت راشيل أنحاء العالم ، فكانت فى كل بلد تحل فيه ، تساير أهله فى عاداتهم وتقاليدهم : فهى متحفظة فى انجلترا ، ثائرة فى روسيا ، حالمة فى ايطاليا ! ٠٠ وهكذا ، لم تعش فى وسط من الأوساط الا صبت نفسها فى قالبه ٠٠

ولم تكن « راشيل » تسىء استخدام شىء ٠ فكانت فى ملبسها مثلا للأناقة والذوق الرفيع – وان أخذ عليها انها كانت تسرف فى التزين بالجواهر الثمينة ، دون ما كياسة أو مراعاة للتناسق ! – ولكن ، أليست الجواهر أموالا حاضرة يطيب حملها ، مهما ثقل وزنها ، ويسهل تحويلها الى نقود سائلة فى أى وقت وفى أى ظرف ؟! ٠٠ ثم من هى « راشيل » ؟ ٠٠ أليست اسرائيلية ؟! ٠٠ ان الذين حضروا ساعة وفاتها لا شك قد روعهم ذلك الحادث العجيب : فعندما أحست المحتضرة ببرودة الموت تزحف الى أطرافها ، طلبت ان يؤتى لها بحقيبة مجوهراتها ٠ فلما أحضروها لها ، راحت تغرس يديها الباردتين فيها ، عساها تجد الحرارة التى فرت منها فى ساعاتها الأخيرة !

دينها ٠٠ صاحب الفضل الأول فى شهرتها !

◆ ومن الانصاف للحقيقة والتاريخ ان لا نغفل عاملا رئيسيا لعب أكبر دور فى حياة « راشيل » المسرحية ، وكان له الفضل الأعظم فيما بلغته من شهرة ومجد ٠ فماذا كان ذلك العامل الفعال ؟! ٠٠ ترى « مدام جارادان » انه ٠٠ الدين ! ٠٠ فقد كان من حسن حظ « راشيل » انها كانت ٠٠ يهودية ! ٠٠ فكيف كان ذلك ؟

تقول مدام جارادان : « يعزو الحاقدون على « راشيل » نجاحها الباهر ، المنقطع النظير ، الى عامل كان له اثر عظيم فى ذلك النجاح الذى غزا دول العالم جمعاء ٠٠ هذا العامل هو : انها كانت يهودية ! ٠٠ فما من مرة ظهرت على خشبة المسرح ، الا وكانت نصف الأماكن محجوزة من اليهود ! ولما لعبت دورها فى تمثيلية « الهوجونوت والمرأة اليهودية » ، شغل اليهود جميع الأماكن فى المسرح ، الا ما كان منها محجوزا باشتراكات سنوية ! ٠٠ هذه حقيقة لا سبيل الى انكارها ، وهى حقيقة تدفعنا الى امعان النظر فى تلك الفئة المبعثرة فى جميع أنحاء العالم ، والتى يتكون من شتاتها اليهود ! ٠٠ فاليهود الموزعون فى العالم أجمع يعرفون كيف يتكتلون ، وكيف يتفاهمون فى سرعة خاطفة ، وكيف يلبون نداء بعضهم بعضا ، من أقصى الشمال الى أقصى الجنوب فى المعمورة ٠٠ ومن أقصى شرقها الى أقصى غربها ! ٠٠ وعند أول صيحة تصدر من يهودى ، فى أية بقعة من البقاع ، نرى أخاه اليهودى وقد

أصاخ اليها سمعا ، وأسرع الى اغاثته ، ولو كانت تفصل بين الاثنين ألوف الأميال ! ٠٠ هؤلاء اليهود الذين يتجمعون الوفا ، ويذهبون كتلة واحدة ، وصفا واحدا ، ليصفقوا ويهتفوا لفتاة تنتمى اليهم ، وهم مزهوون بعبقريتها ، وكأن تشجيع فتاة منهم هو « فريضة » ينبغى أن يؤديها كل يهودى !

« ٠٠ ان هذه الحقيقة تحملنا على التفكير الجدى العميق فى هؤلاء الذين لا وطن لهم ، والذين تربطهم مع ذلك عاطفة دينية لا نظير لها فى قوتها وحرارتها !٠٠ وانه لدرس بليغ لنا ، نحن الفرنسيين ، الذين نتفرق شيعا ولا نتفق قط على شىء ما !٠٠ نحن الذين يبغض بعضنا بعضا ، بغضا شديدا ، ورغم ذلك لا نستحى من الزهو ، والتفاخر بوطننا العزيز العظيم (فرنسا) !٠٠

ترى ، هل نحن فى حاجة الى قرون نعانى فيها النفى ، والتشريد ، والاضطهاد ، كى توحد هذه الويلات قلوب أبناء الوطن الواحد ؟! ٠٠ ربما ! »

وكتبت « مدام جاراداان » مرة أخرى تصف «راشيل» فى احدى مسرحياتها ، فقالت : « لم يكن فى تلك المسرحية ما يسترعى الانتباه ، اللهم الا اندفاع اليهود كالسيل نحو المسرح ، وحجزهم جميع المقاعد تقريبا ! ٠٠ ثم ظهرت « راشيل » محلاة ، أو بالأحرى « محملة » ، بكل جواهر وماس بنى اسرائيل ! ٠٠ فلقد أرسلت نساء اليهود بحليهن لترصع صدر بطلة (بيت لحم) ! ٠٠ وقيل ان « البارونة دى روتشيلد » أرسلت الى مسرح (الكوميدى فرانسيز) ما تزيد قيمته على نصف مليون فرنك من الماس ! ٠٠ وبذلك كانت « راشيل » ، فى تلك الليلة ، تساوى عدة ملايين ! ٠٠ وقد شغلت تلك الجواهر ممثلة فرنسا الاولى ، اذ ظهرت على المسرح وهى ترزح تحت ثقلها ، كما عاقت حركاتها وضايقتها الى حد جعلها تعجز عن اداء دورها بالجودة والبراعة المعهودتين فيها ! »

حيتان ٠٠ على المسرح !

◆ وقد وقع لراشيل فى حياتها المسرحية الصاخبة حادث طريف جدير بالذكر ٠ فقد كانت تعيش فى فرنسا فى ذلك الوقت ، ممثلة فرنسية عجوز اسمها « مدموازيل جورج » ، صادفت فى شبابها مجدا يفوق المجد الذى كانت « راشيل » تصعد الى قمته ٠ وحين أدركتها الشيخوخة ، هجرت المسرح ، أو قل ان المسرح هو الذى هجرها ! ٠٠ الا انها ظلت مع ذلك محتفظة بسمعتها كأستاذة الفن المسرحى للجيل كله !

طلبت « مدموازيل جورج » التى كانت تعانى العوز والفاقة ، من «راشيل» ان تشترك معها فى تمثيل احدى المسرحيات ، على ان يخصص دخل الحفلة لها ، ليجنبها شر سؤال الناس ! لكن « راشيل » رفضت طلبها فى بادىء

الأمر ، فثارت الممثلة العجوز وكتبت الى شاعر فرنسا الكبير « فيكتور هوجو » الخطاب الطريف الآتى :

« اننى ملكة من ملكات المسرح ، مثلها تماما . وقد كنت جميلة مثلها .. وسيأتى يوم تصبح فيه تلك الفتاة عجوزا معدمة مثلى تماما ! .. ترى ، هل نسيت « راشيل » أنها كانت شحاذة ؟ .. ألا يخطر ببالها أنها قد تعود شحاذة كما كانت ؟ .. يا مسيو هوجو : لقد كانت شحاذة تستجدى الملاليم ، وتغنى فى الحانات . واذا كانت الآن فى سن الشباب ، فسيجىء يوم تدركها فيه الشيخوخة ، وعندئذ ستبحث عن الفرنكات فلا تجدها ! .. وسيرى الناس عشيقة الدكتور فرنون وهى تجوب الشوارع مهلهلة الثياب حافية القدمين !.. وقد لا تجد من يطلق عليها حينئذ اسم راشيل ، كما ظللت احتفظ مدة ثلاثين عاما باسمى المسرحى القديم « مدموازيل جورج » ! .. ولا شك انه ستظهر فتاة أخرى عابثة ، ذات مواهب ، تقوض عرشها وتسير بقدميها على رأسها . وعندئذ تعود راشيل الى أحضان الفقر لتبيت على الطوى ! .. لقد عولت على عدم مفاتحتها مرة أخرى فى الأمر يا مسيو هوجو ، لانها لن تكترث بامرأة عجوز مثلى تكاد تموت جوعا ! »

ولكن « مدموازيل جورج » عادت مع ذلك وكررت رجاءها لراشيل . وأخيرا ، قبلت « راشيل » الرجاء ، رغبة منها فى مساعدة الممثلة العجوز .. وظهرت الممثلتان على خشبة المسرح وجها لوجه : فن عريق أصيل ، وفن عظيم جديد . ووقفت حنكة الشيخوخة وخبرة السنين أمام فتوة الفن الجديد وروعته : جيلان يتصاولان ، وعبقريتان تتقاتلان ! .. ألا ما أروع ذلك الوصف الذى وصفهما به الناقد الكبير « جول جانين » ، اذ قال : « لم يكن هناك أرهب ولا أهول من رؤية هاتين المرأتين وجها لوجه على خشبة المسرح . لقد خيل الى انهما حيتان رقطاوان ، تحاول كل منهما أن تغرس فى جسد الأخرى نابها المسموم ! »

وقد أبدعت « مدموازيل جورج » فى التمثيل ايما ابداع ، حتى كادت تجرف أمامها الممثلة الشابة ! وحاول أنصار « راشيل » أن ينالوا من غريمتها ، بالصفير أثناء التمثيل ، ولكن الجمهور المعجب بعميدة المسرح أخرس المشاغبين ، وكاد يفتك بهم ! .. وهكذا قدر لمدموازيل جورج ان ترى أضواء المجد مرة أخرى وأخيرة فى حياتها ، وان تسمع دوى التصفيق والهتاف يشنف اذنيها ، ويعيد الى قلبها القوة ، والى روحها الفتوة ! .. أما « راشيل » ، فقد ثارت ثائرتها بعد الذى رأته ، ورفضت منازلة غريمتها فى مسرحية أخرى ، بالرغم من الاعلان عنها فى كل مكان !

تقارن نفسها بالملكة « فيكتوريا » !!

◆ أما تنبؤات « مدموازيل جورج » عن مصير « راشيل » وما ينتظرها من فقر محتوم فى شيخوختها ، فقد كذبتها الحوادث والأيام . ذلك ان راشيل عرفت - بحكم السليقة - كيف تحتاط للمستقبل ، وتتسلح ضد غوائل الأيام ، مهما يطل بها العمر . وعرفت أيضا كيف تستغل شهرتها الى أبعد وأبشع حدود الاستغلال ، لتنمى ثروتها وتضاعف ملايينها . فلو أنها عاشت مائة عام لما أدركها الفقر ، فكم بالحرى وقد عاجلها الموت فى الثامنة والثلاثين من عمرها ؟!

.. ثمانية وثلاثون عاما ، قضتها فى جمع المال .. ولم تكن الوسيلة لتعنيها كثيرا ، ما دامت تقودها الى هدفها الاسمى ! .. استقبلتها الملكة « فيكتوريا » ، ملكة بريطانيا ، وأهدتها حلية تذكارية نقش عليها : « من الملكة فيكتوريا الى راشيل » ، فذهبت « راشيل » تريها لأصدقائها وهى تقول : « من فيكتوريا الى راشيل .. من ملكة الى ملكة » !!

ودعاها ملك (بروسيا) الى قصره وأجزل لها العطاء . كما دعاها « نيقولا » قيصر الروس ، وأغدق عليها بسخاء .. فاستغلت كل هذه الشهرة للثراء وجمع المال !

وكانت رحلتها الى أمريكا أول كارثة تحل بها ، اذ لم يستسغ الشعب الأمريكى الناشىء تمثيلياتها ، ولم يقبل عليها ، فخسرت « راشيل » فى تلك الرحلة مائة ألف فرنك . ومع ان المبلغ كان ضئيلا بالنسبة الى ثروتها الطائلة، التى كانت تقدر بالملايين ، الا انها لم تحتمل هول الصدمة فسقطت مريضة . ورحلت الى (كوبا) لتنشد شيئا من الراحة والاستجمام ، ولكنها لم تبرأ قط من المرض الذى ألم بها ، والذى لم يفتأ يلاحقها حتى قضى عليها فى النهاية ..

أين ؟! ومتى ؟! وبكم ؟!

◆ وقد كتب المؤرخ « أرسين هوسييه » يصفها فقال : « ان عدد عشاقها بلغ حدا يخطئه الحساب ، اذ لم تتورع راشيل عن ارتكاب أحقر أنواع الابتذال، سالكة فى ذلك أبشع طرق للابتزاز .. فكان اذا أراد أحدهم لقاءها والخلوة بها ، أرسل اليها ورقة - كادت تكون شبه رسمية - على غرار « الاستمارات » التى تقدم لطلبات الاستخدام ، تتضمن أسئلة ثلاثة ، يكتبها مقدم الطلب قبل ان يبعث بها الى راشيل ، لتجيب عليها .. أما تلك الاسئلة الثلاثة فهى :
« ١ - أين ؟ ٢٠٠٠ - ومتى ؟ ٣٠٠٠ - وبكم ؟ »

وكان « الكونت والوسكى » ما يزال عشيقها الرسمى ، لكنه لم يكن يعنيه من سلوكها شئ . كل ما كان يحرص عليه هو ان يظل محتفظا بها . ومع

ذلك فانه لم يلبث أن ضاق بها ذرعا ، وهجرها ليتزوج ، بعد ان رزقت منه بطفل اعترف ببنوته !

ووقعت « راشيل » فى غرام أفاق انجليزى يدعى « ارثر برتراند » ، ينتمى الى طبقة من العشاق تأخذ ولا تعطى ! ٠٠ وكان ذلك الافاق نجل الجنرال « برتراند » ، أعظم وأشهر قواد الانجليز فى ذلك الوقت ٠ ومع ذلك فقد أنجب أولادا أجادوا جميعا فن الصعلكة الى أبعد الحدود !

وحاول العشيق الجديد ان يبتز أموالها ، الا ان « راشيل » لم تكن من البلاهة الى الحد الذى يسهل معه استغلالها واستغفالها ! ٠٠ فلما أعيته الحيل ، هجرها بعد ان أنجبت منه ولدا آخر ٠٠ ولكنه لم يكن نبيلا مثل « الكونت والوسكى » ، اذ أبى الاعتراف بأبوته للطفل !

ما لها ٠٠ وما عليها !

◆ وقد تميز خلق « راشيل » بطابع خاص واضح المعالم ، برز فى حياتها بروزا هائلا ، وهو طابع الجشع وحب المال ٠ ولكن ، حتى لا نكون متعسفين فى الحكم عليها ، ينبغى ان نتلمس لها بعض المعاذير لهذا العيب الخلقى الجسيم ٠ فقد كانت طفولتها قاسية قسوة فظيعة ، ذاقت خلالها ذل الفقر والتشرد والحرمان ، وامتزج بذلك كله قبحها ودمامتها ، فكان جشعها أشبه ما يكون بانتقام تريد أن تصب ناره على الحياة والناس جميعا !

وكانت يهودية ، ومن ثم لا وطن لها ٠ وكانت غاية والدها فى الحياة ان يكسب المال ، ويستوى عنده لتحقيق هذه الغاية الطريق الأعوج والطريق القويم ! ٠٠ فلما ان ابتسم القدر لراشيل ، كانت سلسلة طويلة من العقد النفسية قد تكونت فى قرارة نفسها ٠ ولم تغب صورة ماضيها عن ذاكرتها قط ، فكانت فى كل مرة تصعد درجة من سلم المجد ، تستشعر رغبة جارفة فى الانتقام لماضيها الأسود بسلاح حاضرها المضىء !

وكانت لم تزل فى السابعة عشرة عندما بدأ نجمها يتألق ، وصيتها يعلو ، وتتدفق الثروة عليها كالسيل الهتون ! ٠٠ ولكن ، اذا ما أسدلت الستار على التمثيل فى نهاية السهرة ، كان عليها ان تعود الى منزلها لتجد نفسها بين أفراد أسرة « فيلكس » ٠ أسرتها المكونة من أب واخوة لا يتورعون عن استغلالها وجمع المال على حساب راحتها وصحتها بكل الطرق !

وحتى فى المسرح ذاته ، الذى انبثقت منه أضواء مجدها ، رأت « راشيل » من الحقارات البشرية الرابضة وراء الكواليس ما تقشعر له الأبدان ! ٠٠ فكان على تلك الفتاة الصغيرة ، الجاهلة ، البوهيمية ، ان تكافح وتحارب كل هذه العوامل الشريرة المتألبة عليها ، لكى تشق طريقها الى الأمام ، واذن ،

فما دامت الحياة حربا عليها ، فلتلجأ الى كل سلاح تستطيع ان تهـــزم به أعداءها !

ومن الانصاف لراشيل ان نقرر انه ما من سلاح وضيع استخدمته ضد خصومها ، الا وكان مساويا فى ضعته للأسلحة التى استخدمها خصومها ضدها ! فما خطت « راشيل » خطوة واحدة فى حياتها المسرحية ، الا واعترض سبيلها أفاق أجير حقير : فمن صحفى تافه مثل « شارل موريس » يهددها بقلمه اذا لم ينل منها ومن مالها ما يريد ، الى منافسات حاقدات حاســدات يسخرن للكيد لها حثالات الكتاب والفنانين ! ٠٠ حتى العظماء الخالدين ، كان منهم من حاربها وحمل عليها ٠ فمن منا لا يعرف « الكسندر دوماس » كاتب فرنسا الكبير ؟ ٠٠ حتى دوماس هذا ، شن عليها حربا شعواء فى الصحف ، وفى كتبه ، وفى كل مكان ! ٠٠ ولماذا ؟ ٠٠ لانها أبت ان تكون محظيته ، بعد أن طارحها الهوى ضارعا متوسلا !!

٠٠ ان فيلقا من الانتهازيين ، والأفاقين ، والحاسدين ، والطامعين فى المال حينا وفى الجسد حينا آخر ، ترصد « راشيل » فى كل خطواتها لمحاولة هدمها ٠ فلم يكن غريبا ان تنازلهم هى بنفس أسلحتهم وأساليبهم !

محرومة من الحب ٠٠ محوطة بالحقد !

◆ ومن النادر أن تقسو الحياة على انسان فى كل مراحل حياته ، أو فى المراحل اللامعة فيها ٠ ولكن هكذا فعلت الحياة مع « راشيل » ! ٠٠ أو ليس من قسوة المقادير عليها أن ترى نفسها ـ وهى فى ميعة الصبا ، وقد اشرقت لها الدنيا ، وأضحت محط أنظار العالم ومحل رعاية الملوك والملكات ـ محرومة من المتعة الروحية التى تشتاق اليها كل فتاة ، سواء أكانت غنية أم فقيرة فى مشارق الارض ومغاربها ؟!٠٠ نعم ، ان « راشيل » حرمت نعمة الحب ٠٠ الحب المجرد من الغايات ، المنزه عن الحقارات ٠٠ الحب الجميل ، النظيف ، الوديع ، الذى تعمر به النفس ، وتجد فيه القلوب الدفء والامان ٠لكم اشتاقت « راشيل » الى مثل هذا الحب ، فاذا بالقدر يكتب عليها أن تعيش فى كنف نذل وضيع مثل الدكتور فرنون حينا ، وحينا آخر مع رجل مثل الكونت والوسكى ، يقبل الزواج منها لاشباع غروره فقط ، دون أن تعضه الغيرة عليها مرة واحدة ، وهو يراها بين أحضان الرائحين والغادين !!

ولم تكن « راشيل » حرة فى اختيار هذا الصنف من الرجال ٠ بل ان ظروف حياتها المسرحية ونشأتها الوضيعة ، دفعتها الى ذلك دفعا ، لانها كانت فى حاجة الى حماية الأثريا والاقوياء من النبلاء ٠ ولما كانت حياة « راشيل » سلسلة من العقود والالتزامات ، فقد كان الالم الذى يستولى

عليها من حرمانها من العاطفة الانسانية الصحيحة ، يدفعها الى الانتقام من مبرمى تلك العقود والالتزامات ٠٠ ولا سبيل الى الانتقام منهم الا باستنزاف أموالهم ، والعمل على اذلالهم !

لقد نالت « راشيل » من دنياها كل ماتشتهيه من شهرة وثروة ، ولكن الاقدار حرمتها من الحب النقى ، الذى لا زيف فيه ٠٠ ومن هنا كان حقدها على الناس والبشرية جمعاء !

ولو كانت « راشيل » تاجرة عواطف فقط ، كما صورها أغلب المؤرخين مثل « هكتور فلشمن » ، وأغلب الكتاب الحاقدين المغرضين ، مثل « الكسندر ديماس » ، و « تيوفيل جوتييه » ، وسواهما ٠٠ ولو كان قلبها منحوتا من صخر ، ونفسها مصوغة من ذهب وفضة ، لما تألمت ولا اكترثت ٠ ولكنها كانت فتاة ، وامرأة قبل كل شىء ٠ ولم تكن امرأة عادية ، بل كانت فنانة موهوبة ملهمة ٠ ولذلك كان احساسها بفراغ نفسها وخواء روحها رهيبا !

واذن ، فمن الظلم أن نصور « راشيل » فى صورة التاجرة على طول الخط ٠ اذ طالما حنت روحها وهفا فؤادها الى الحب النظيف الصحيح ، حتى لقد قبلت ــ جريا وراء هذا النوع من الحب ــ ان يخطبها فلاح اسمه « هكتور » ٠ فقد كان يطيب لها أن تلوذ بالريف فى كثير من الأحايين ، هاربة من صخب الحياة وضجيجها فى المدن ٠ كما كانت تستشعر لذة حين تتخيل نفسها ملكا لرجل واحد فقط ، تمنحه كل ماتبقى من حياتها ، وتعيش فى ظله حتى تموت ٠ ومع ان الفلاح « هكتور » كان مغرما بها الى أبعد حد ، الا أنه رأى بعد امعان التفكير ــ ورأت هى معه ــ أن زواجه منها قد تتولد عنه مخاطرة غير مأمونة العواقب ، ولذا آثر ان يفسخ خطبته لها ٠٠

الحب ٠٠ على شفا القبر !

◆ ووقعت « راشيل » فريسة للداء الفتاك : السل ٠ وأخذت وطأة المرض تشتد عليها ، فنصحها الاطباء بالابحار الى مصر ، عساها أن تجد فى شمسها المشرقة وجوها الصحو الرائق ، مايعينها على مقاومة العلة ويرد اليها بعض العافية

وعلى ظهر الباخرة التى أقلتها ، تعرفت بضابط بحار اسمه « اوبيريه » ، وكان شابا متدينا ، سوى الخلق ٠ وكان جو الرحلة يوحى بالحنين الى حب هادىء : امرأة مريضة وحيدة ، محطمة البدن ، قريبة من الموت ٠٠ وشاب ورع ذو قلب عامر بالايمان ومحبة الله ٠ وكلاهما فى عرض البحر ٠ ان قلبين من هذا الطراز ، لابد ان يقترب أحدهما من الآخر ، ويحن أحدهما للآخر ٠٠ وقد كان !

ولما كانت « راشيل » تجتاز آخر مرحلة في حياتها ، وتود ملهوفة أن تعبرها في أحضان حب منزه عن الغايات ، طالما بحثت عنه عبثا ، فقد سكنت روحها الى « أوبيريه » • ولكى تستولى على اعجابه ، صاغت نفسها فى قالبه ، شأنها مع جميع من عرفت فى حياتها الحافلة • فكان حديثهما خلال الرحلة عن الله ، والايمان به ، والتقرب اليه ، وعن جوهر الحياة • واذا بالرحلة وحديث « أوبيريه » يصقلان روحها ، ويعيدان الى نفسها شيئا من الطمأنينة والسلام ••

وعادت « راشيل » من القاهرة الى فرنسا ، فاسكنها « أوبيريه » مع أسرته فى (مونبلييه) ، امعانا فى احاطتها بالعناية ، وليهيىء لها جوا عائليا نظيفا • وكانت روحها فى طريقها الى الشفاء ، وان ظل جسدها يذوى باستمرار • وكان الضابط الشاب قد وجه كل همه الى محاولة اقناع « راشيل » باعتناق المسيحية ، الامر الذى أدى الى اثارة اليهود ورجال الدين اليهودى فى فرنسا وسائر أنحاء العالم !

وغادرت « راشيل » مونبلييه عائدة الى باريس ، فتبعها « اوبيريه » حيث كان يزورها كل يوم • وبدأت « راشيل » تتردد بانتظام على احدى الكنائس المجاورة لمنزلها ، لتشترك فى الصلاة مع فريق من النساء المتعبدات • وهناك ، اكتشف « اوبيريه » عواطف « راشيل » المشتعلة نحوه ، تلك العواطف التى صهرتها الصلاة والبعد عن الخطيئة ، فبدت حارة نقية ، لاتشوبها شائبة اثم أو دنس !

صراع •• على روحها !

• **ولما** ساءت حالتها ، رؤى ارسالها الى شواطىء (الكوت دازير) بالريفيرا • وكان «أوبيريه» يعمل فى ميناء(طولون) فى ذلك الحين ، فكان يتردد عليها كلما سمحت له ظروف عمله •• وذات يوم ، زارها وقدم اليها مسبحة كان قد تلقاها هدية من البابا « بيوس التاسع » • وكان غريبا ان تمس مسبحة البابا شغاف قلب هذه اليهودية



العاصية . فقد رأت فى حياتها حلقات تصلها بالله ، ذلك الاله الحنون الرحيم ، الذى لم يكن له مكان فى حياتها قط . الا أن البون بين تلك اليهودية وبين الدين المسيحى كان ما يزال شاسعا ، فليس من الهين أن تتحول النفس التى عاشت للمادة وبالمادة - ما بين يوم وليلة - الى نفس مسيحية تسمو على الماديات بالروحانيات . وعبثا حاول « اوبيريه » ان يحثها على اعتناق الدين المسيحى . فقد كانت مترددة ، حائرة ، حتى ضاق بها ذرعا !

وأخيرا حم القدر ، وماتت « راشيل » يهودية . وانتصرت أختها « سارة » ، التى لازمتها فى ساعاتها الاخيرة ، على « اوبيريه » الذى ذهبت كل جهوده أدراج الرياح .. فأخذ يجوب المحيطات ، عساه ان يغرق فى أمواجها المتلاطمة أحزانه، ويدفن فيها أشجانه !

ماتت « راشيل » ، الفتاة الجاهلة التى نشأت فى الأزقة والشوارع ، بعد أن بنت للفن المسرحى حصنا ثابت الاركان رفيع العماد ، وجلست على عرش المسرح ، دون منازع أو منافس .. والتى لم يستطع « الكسندر ديماس » و « تيوفيل جوتييه » وغيرهما من عباقرة القلم ان يهدموا عرشها أو يقوضوا ملكها !

ماتت ابنة « فيلكس » التى خلد « راسين » اسمها ، ولم يتردد فى اعتبارها عبقرية انسانية فذة !

ماتت الفتاة التى نالت من الدنيا كل شىء ، ولكنها حرمت شيئا واحدا كان يساوى عندها كل مانالته من مجد وشهرة ، وهو : الحب !

وصدر بعد موتها كتاب لراسين صدره بكلمة كانت «راشيل» قد بعثت بها الى الشاعر الفرنسى الخالد ، وقالت فيها : « **اليك ياعزيزى راسين الحنون العطوف .. اننى لم أعرف حقيقة قلب**

المرأة الا من شوامخك الخالدات . وانني لأصوغ قلبي في قالب شعرك الملهم . واذا كانت أوتار نفسي لاتبكي دائما عند سماع ألحانك القدسية ، فما ذاك الا لأن اعجابي يغرقني في نشوة عارمة ، تفقدني وعيي وتصيبني بالذهول » !

ان عبقرية « راشيل » الفذة لتحفزنا على أن نغفر لها الكثير من مغامراتها ونزواتها . وبالرغم من كل ما ألصق بها من مثالب ، فاننا لا نملك الا الاشادة بتلك الفتاة الملهمة ، التي استطاعت أن تنفخ من روحها في رماد التاريخ ، ومآسيه ، فتردها الى الحياة ، وتبعثها من جديد !

مذكرات المغامر الأعظم !

◆ تركنا « كازانوفا » فى الحلقة الماضية وهو يحاول مغازلة « لوكريزيا »، زوجة المحامى التى كانت ترافقه مع زوجها وأختها فى رحلته الى روما . وقد كان من نصيبه أن نام مع المحامى فى سرير واحد، بينما نامت فاتنته وأختها فى سرير آخر فى غرفة داخلية .. وفيما كان يهم بالتسلل من فراشه وقد نفث فيه الوجد جرأة على المغامرة ، أحدث السرير أزيزا عاليا ..

والآن .. تعال نقرأ بقية المغامرة :

مغامرات كازانوفا فى روما !

◆ ان الحب أكثر الآلهة مكرا ودهاء ، ولا تتجلى عبقريته قدر ماتتجلى وسط الصعاب والعراقيل .. ولما كان مجرد وجوده يتوقف على امتاع أولئك الذين يتفانون فى عبادته ، فان هذا الاله ينتزع النجاح من أعماق الحالات المحفوفة باليأس .. ويخلق المناسبات والملابسات التى تحقق هذا النجاح !

.. كنت قد فقدت كل أمل فى أن أظفر فى تلك الليلة بطائل من فاتنتى التى فى الغرفة المجاورة - لوكريزيا - لولا أن فوجئنا بطلقات البنادق فى الطريق ، فى بهيم الليل ، وصراخ الناس ، ثم انبعثت طرقات مدوية على الباب .. وتظاهرت بعدم الاكتراث ،وبقيت فى فراشى ، بينما صاحت السيدتان تطلبان ضوءا فقفز الزوج من السرير وغادر الغرفة ينشد شمعة .. واذ ذاك بادرت فدفعت الباب خلفه ، واذا به يغلق بشدة بحيث لا يتسنى فتحه بغير المفتاح ! .. ثم سعيت الى السيدتين اهدىء من روعهما ، ولم أقابل بمقاومة تذكر ، ولكن السرير لم يحتمل ثلاثتنا ، فلم نلبث ان وجدنا أنفسنا على الارض .. وكان الزوج قد عاد وأخذ يطرق الباب ، فابتعدت عن السيدتين ، وانبأته بأن لاسبيل الى فتح الباب .. وبعد حين أقبل الزوج بالمفتاح ، فضحك اذ رأى سرير السيدتين منهارا .. ثم انبأنى بسر الجلبة ، فقد هاجمت فصيلة من الجنود الألمان القوة الاسبانية بالمدينة واضطرتها الى الفرار ..

وبلغنا روما ، فدخلتها ومعى طائفة من الثياب الأنيقة ، ومالا ، وخبرة ، وخطابات تقدمة لسادة من علية القوم .. ولم أكن مفرط الجمال ، ولكنى اوتيت شيئا خفيا يستدر عطف من يعرفنى ويستميله الى .. وكنت اعرف ان روما هى المدينة التى يستطيع فيها المرء أن يبدأ من الحضيض ويرقى الى القمة ، مادام قادرا على أن يتشكل وفقا للظروف ، فيلبس لكل حال لبوسها ،

ويروض نفسه على شىء من الدهاء ، وكثير من الصبر والجلد ، ويحرص على سعة الحيلة واستغلال الذكاء ٠٠ ويتظاهر بالتقوى فى كل الاحوال !

وبدأت بتسليم رسالة التوصية التى كنت احملها الى الاب « جورجى » ،وكان راهبا عالما يتمتع باحترام الجميع فى روما ، حتى « البابا » نفسه ٠٠ وما ان قرأ الرسالة حتى تطوع لأن يجعل من نفسه مستشارا وناصحا لى ، وسألنى أن أتردد عليه كثيرا ، وان لا أخفى عنه شيئا من امرى ، ولا مما يجرى لى ٠٠ وما ان غادرت داره ، حتى سعيت الى (كامبو دى فيورى) ، لأقابل « الدون جاسبار فيفالدى » ، الذى أعطانى ابن عمى رسالة اليه ٠٠ ورحب بى الرجل ودعانى لتناول العشاء معه فى اليوم التالى ، على أن يسلمنى اذ ذاك مبلغا سأله ابن عمى أن يدفعه لى ٠٠

وسمع « كازانوفا » تذمر الناس فى روما من « البابا » ووزيره الكاردينال ، وسياستهما التى أدت الى أن احتـل الدولة البابوية ثمانون ألفا من الألمان والاسبان !٠٠ وفى اليوم التالى – وكان أول اكتوبر سنة ١٧٤٣ – قدم الشاب رسالة التوصية الاخرى التى كان يحملها الى الكاردينال « اكوافيفا » ، الذى نصحه بأن يدرس الفرنسية ان شاء أن يبرز فى دنيا السياسة ، وعهد به الى راهب برتغالى فى الأربعين من عمره يدعى « جاما » ، فبادر الراهب بأن اعد له مسكنا وعهد بتعليمه الفرنسية الى محام من روما يدعى « دالاكا » ٠٠

واستطاع « كازانوفا » ان يتصل بحبيبته وزميلة رحلته –«لوكريزيا»– وان يتقرب الى امها ليخفى حقيقة علاقتهما ٠٠ وكانت هذه العلاقة هى الشىء الوحيد الذى كتمه عن الاب « جورجى » !

القلب عدو العقل !

◆ قال الاب يحذرنى : « تذكر دائما ان لابد لك من كبح شهواتك ان شئت ان تحيا حياة بعيدة عن النقد ٠٠ لقد سمعت عن صلتك بأصدقاء رحلتك، واشهد انهم اسرة محترمة ، لا يغشى دارها سوى الاشراف ، ولكنك لا ينبغى ان تكثر من التردد عليها بحيث تغدو زائرا منتظما ٠٠ مالك تتنهد يابنى ؟٠٠ أيشعر قلبك بعناء ؟٠٠ يجب ان تتغلب على قلبك اذا دعت الضرورة ، واذكر ان القلب عدو للعقل ! »

قلت أجادله : « ولكن من الممكن التوفيق بينهما »

– كثيرا مانخال ذلك ، ولكنك تعلم ان لا سبيل الى حياد بينهما

وأحسست بتعاسة ، فشددت على يده وألصقتها بشفتى ، ولكنه ضمنى الى صدره بحنان الاب وأشاح بوجهه حتى لا أشهد دموعه ٠٠

ودعاه الراهب « جاما » الى مقهى سمع فيه حملات صغار الرهبان على الحكومة ، ومطاعنهم فى « البابا » ‏٠٠ كما رأى فيه صورا من تبذلهم ‏٠٠ ومالبث ان زاره المحامى زميل السفر ، وزوج « لوكريزيا » ، ودعاه الى قضاء يوم مع الاسرة فى الريف ، يتعرف خلاله على « دون فرانشيسكو » خطيب اخت « لوكريزيا » ، الذى كان معجبا بأشعاره ‏٠٠ وكان من حظ «كازانوفا» ان يشاطر الزوجين عربتهما ، بينما استقلت « دوناسيشيليا» ـ أم « لوكريزيا » ـ وابنتها الأخرى « انجيلكه » وخطيبها عربة ثانية ‏٠٠ وسعد العاشق الشاب بحوار حبيبته خلال الرحلة التى تمنى لو طالت ، لكنه صدم اذ تبين بعد نصف ساعة انهم وصلوا الى غايتهم !‏٠٠ على انه فى العودة لم يضيع الوقت سدى !

وذهب فى اليوم التالى الى « دالاكا » مدرس اللغة الفرنسية ، وكانت للرجل ابنة جميلة تدعى « بربارا » ، أحبت شابا صادف هوى من نفس « كازانوفا » ، بيد ان خادما رشى الاب بغرام ابنته فحبسها وطرد حبيبها ، الذى كاد ينتحر لولا ان تطوع « كازانوفا » بأن يكون رسولا بينه وبين « بربارا » ‏٠٠ وفى تلك الأثناء ، كانت القضية التى حملت زوج « لوكريزيا » على الحضور الى روما قد اوشكت على الانتهاء ، وأخذت الزوجة العاشقة تخشى ان يحين الفراق :

اللقاء الاول مع البابا ‏٠٠

◆ وأصيب مسيو « دالاكا » بمرض شديد ، فتولت ابنته عنه القاء الدرس على ‏٠٠ واذ هممت بالانصراف ، دست فى جيبى وريقة ، كانت مليئة بالشكر الحار ، ثم برجاء ان اخبر فتاها بأن اباها سيستأجر خادما غير الذى وشى بهما ، بمجرد ان يشفى ‏٠٠ وقد تحقق ذلك فعلا ، وسرعان ماكسبت «بربارا» الخادم الجديد الى صفها ‏٠٠ ولم أعد بحاجة الى ان اتورط فى مغامرة العاشقين ‏٠٠ ولكن الخلاص جاء متأخرا ، كما سيبدو فيما بعد !

وأخذت أتردد فى كل مساء على دار الأب جورجى ، فتعرفت بضيوفه الذين اكبرونى كواحد من خاصته ، واكتسبت دراية بما كانوا يتجاذبون من أحاديث سياسية وأدبية ‏٠٠ كذلك اعتدت أن أحضر مجالس استاذى الكاردينال«اكوافيفا»، بحكم الواجب ‏٠٠ وكانت ألمع نجوم مجلسه « المركيزة ج ‏٠٠ » ، وهى سيدة فاتنة ، عالية المقام ، استدرجونى ذات مساء الى ان أجهر بتقديرى لجمالها ٠ وقد اعتادت فى كل مساء أن توجه الى ـ وهى تلعب الورق ـ بضع ملاطفات بالفرنسية، فأجيبها بالايطالية غير مكترث لضحك القوم

وذات مساء ، أوعزت الى الأب « جاما » ان يدعونى الى المكان الذى كانت

تقف فيه مع الكاردينال ، فلما اقتربت منها ، فاجأتنى بأن وجهت لى بالايطالية سؤالا كان بعيدا تمام البعد عن خاطرى : « كيف تمتعت برحلتك الى الريف ؟٠٠ كانت زميلتك اجمل من المناظر ٠٠ وكان غريمك بارع الذكاء ! »

فاكتفيت بأن انحنيت لها ، واذ ذاك قال الكاردينال فى رفق : « هل أدهشك ان كشفت انباء مغامرتك ؟»

– لا يامولاى ، وانما اذهلنى ان يتحدث الناس عنها ٠٠ فما كنت لأصدق ان روما تشبه القرى الصغيرة فى سريان الاقاويل !

– كلما طال بك المقام فى روما ، الفيتها تزداد شبها بالقرى الصغيرة ٠٠ أو لم تحظ بعد بتقبيل قدم الأب القدسى (البابا) ؟

وأنبأنى الأب « جاما » بأن على ان اتقدم للقاء البابا فى اليوم التالى ، وأردف قائلا : « أو لم تدع الى قصر المركيزة « ج ٠٠ » من قبل ؟٠٠ ان بابيه مفتوحان للجميع ٠٠ »

– وهل تراها ستستقبلنى أو ترانى هناك ؟

– بكل تأكيد ٠٠

وحظيت فى اليوم التالى بلقاء « البابا » – بندكت العاشر – على حدة ، فركعت وقبلت الصليب المقدس ، واذ اعلنت اسمى ، قال لى انه سمع عنى ، وهنأنى على ان ظفرت بأن اكون تلميذا للكاردينال العظيم ٠٠ ووجدتنى اطمئن اليه ، فأروى له الكثير عن المتاعب التى تجشمتها فى القدوم الى روما والفوز بهذه التلمذة ، فأبدى قداسته استمراء للرواية ، وتلطف فقال انه سيسر بأن يرانى كلما تقدمت ملتمسا لقاءه ٠٠ واذ ذاك سألته ان يأذن لى بقراءة جميع الكتب المحرمة على التلاميذ ، فسمح لى ذلك ، ووعدنى بأن يسجل الاذن كتابة ، ولكنه نسى ٠٠ وكان البابا عالما ، مفرط اللطف ، شغوفا بالفكاهة. وعندما قابلته مرة أخرى فى « فيلاميديشى » سألته بأن يحلنى من تحريم اللحم فى طعامى ، فأذن لى ٠٠

واستجبت لتوجيه الاب « جاما » ، فذهبت الى قصر الماركيزة الحسناء ، فى الوقت الذى اعتادت ان تستقبل فيه ضيوفها ٠٠ ولكن أحدا لم يحفل بى ، وبعد خمسة أيام او ستة ، قالت لى الماركيزة ، فى لهجة المتفضلة ، انها لمحتنى فى قاعة الاستقبال بقصرها ، ودعتنى الى ان اكثر من زيارتها !

ليـلة ليـــلاء !

◆ وفى صباح أحد الأيام الاخيرة من نوفمبر ، دعيت الى قضاء يوم مع «لوكريزيا» وزوجها وانجليكا وخطيبها والام «دونا سيشليا» ٠٠ وكانت الأرملة الفاتنة قد حدست حبى لابنتها فأبدت سرورها ٠٠ وقضينا يوما حافلا بالنشاط

والتنقل ، فلما أوينا الى البيت فى المساء ، وجدنا فى انتظارنا عشاء دسما ، وخمورا معتقة ٠٠ وقالت لوكريزيا انها ستنام مع اختها فى حجرة تفضى الى بستان البرتقال !٠٠ فلما اطمأننت الى نوم الجميع ، تسللت الى تلك الحجرة ، بعد ان قضيت ساعة أتجسس على الأختين وهما تنضوان عنهما ثيابهما وتبديان ما خفى من فتنتهما قبل ان تأويا الى السرير ٠٠ وحرصت لوكريزيا على أن تنام فى الجزء المواجه للباب ٠٠ وسرعان ماتسللت الى أحضان عشيقتى !

وفطنا أخيرا الى بزوغ الشمس ، فتسللت عائدا الى غرفتى ٠٠ وبعد لحظات ، سمعت صوت الزوج فى غرفة المرأتين يوقظهما ، ثم جاء يوقظنى ويهددنى ضاحكا بأن يدعوهما الى الغرفة ان لم أبادر بمغادرة السرير ٠٠

غزو « قلب المركيزة » !

◆ وسافر الزوجان بعد ثلاثة أيام أو أربعة ، – اذ انتهت القضية التى حضر الزوج من أجلها – فشعرت بوحشة كتلك التى تكتنف قلب الشاب ٠هو بعد فى المرحلة التى تجعله يميل الى التشبث بحبيبة واحدة ٠٠ [illegible] سى الفرنسية ، حتى امتدح الكاردينال هذا الجد منى ، وأص[illegible] ى فى الدراسة ٠٠ وكانت الماركيزة حاضرة ، فأشارت الى اننى ولا بد [illegible] فى الدرس عزاء بعد رحيل « لوكريزيا » !

قلت مجيبا : « اعترف صراحة يا سيدتى بأننى افتقدتها وحزنت لبعادها،ولكن صداقتى لها كانت بريئة »

– لست أرتاب فى ذلك ، وان كنت قد سمعت قصيدة لك فيها تنم عن [illegible] مبرح ٠٠

وهنا قال الكاردينال فى لطف : « ليس بوسع شاعر ان ينظم الشعر دون ان يدعى الهوى »

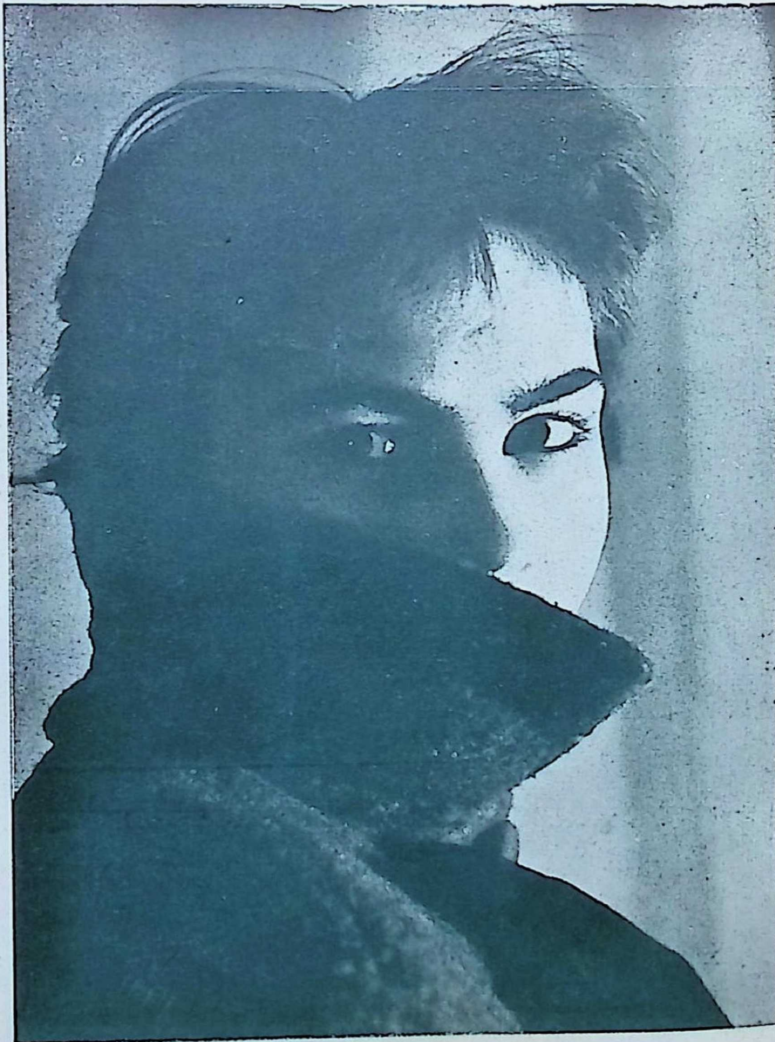
فأخرجت الماركيزة ورقة دفعت بها اليه قائلة : «هاك القصيدة ٠٠ واشهد ان الاوساط الادبية فى روما اجمعت على انها من روائع الشعر »

وعرض عليها الكاردينال ان تترجمها الى الفرنسية ، فقالت انها لا تجيد بالفرنسية سوى النثر ٠٠ أما الشعر ، فيحلو لها أحيانا أن تنظم مقطوعات خفيفة منه بالايطالية ٠٠ وقدم لى الكاردينال آخر قطعة من نظمها ، فدسستها فى جيبى واعدا بأن اقدرها فى روية ٠ وانصرفت وقد استيقظ غرورى وأصبحت أرى نفسى شيئا مذكورا ٠٠ بل لقد أحسست عن يقين بأننى غزوت قلب الماركيزة ! ٠٠ لذلك سولت لى نفسى حين قرأت القصيدة ، ان اكتب بوحيها قصيدة أخرى ٠٠ ومن المستحيل على الشاعر أن يحجم عن النظم اذا أشرق على خياله موضوع بهيج ، فان النار الشاعرية التى تجرى فى عروقه لن تلبث ان تتحول فتحرقه هو !

(يتبع)



مرح الطفولة .. لوحة فوتوغرافية من تصوير الاميرالاى الدكتور ناجى يسى



فتنة .. وغموض ! لوحة فوتوغرافية فازت بجائزة عالمية ، وهى من تصـوير الفنان الايطالى « بيرو جيـوبى »



سير "ج. ا. ميليه"

لوحة الغلاف

فى متحف (ليفربول)، بانجلترا، يرى الزائر هذه اللوحة الرائعة التى حليت بها صدور هذا العدد، والتى تمثل احدى شهيدات الاضطهاد العنصرى فى انجلترا فى عصور الظلام - حوالى عام ١٦٨٠ - حين حكم على "مرجريت ويلسون" - الحسناء التى تصورها اللوحة - و"مرجريت ماكلافلان"، العجوز التى كانت قد جاوزت الستين، بأن تقيدا بالأغلال الى إحدى صخور شاطئ (سولواى)، وتتركا حتى يرتفع المد تدريجا فيغرقهما!.. وامعانا فى تعذيب صغراهما، قيدت فى بقعة أقرب الى الشاطئ من زميلتها، كى تشهد عذاب احتضار الأخرى الطويل قبل أن تبلغ المياه مكانها هى!.. وهكذا قاست نزع الموت مرتين، قبل أن يغطى البحر جسمها ويزهق أنفاسها.. وقد اوحى الحادث الوحشى إلى الشاعر "جون ستيوارت بلاكى" بقصيدة من أروع قصائده، كما أقيم للشهيدتين "مرجريت" نصب تذكارى هائل بجهة (سترلنج).. وقد بيعت هذه اللوحة اثناء حياة راسمها - عام ١٨٩١ - بمبلغ ٤٧٢ جنيها، ثم باعها مشتريها إلى آخر، أهداها بدوره الى متحف "ووكر" بليفربول.

كتابي

شركة فن الطباعات ٥٨١٤٩